رواية

اسكندر ودراجا

وهي رواية واقعية تبين بالادلة الحسية والوقائع المدهشة حقوق الملوك بازاء الامم وحقوق الامم بازاء الملوك وهناء الحياة وشقاءها وذلك في حالات الغنى والفقر والفضيلة والرذيلة وكل ظروف الحياة

بقلم

عوض واصف

منشيء مجلة المحيط بمصر

حقوق الطبع واعادته محفوظة للمؤلف

طبع بمطبعة مصر سنة ١٩٠٣ مسيحية

Digitized by Google

Original from HARVARD UNIVERSITY



تمثيل قتل الملك اسكندر ملك السرب وأمرأته الملكة دراجا بايدي المتآمرين عليهما من شعبهما . و بجوارهما العريضة التي قدمت للملك حتى يمضي عليها بالتنازل عن العرش فقتل مقدمها . وقتل رئيس حراسهما . والملك بطرس ملك السرب الجديد كأنه مشرف على هذا المنظر الفظيع

ان ملكت الرقاب فابغ رضاها   فلها ثورة وفيها مضاء
يسكن الوحش للوثوب من الأ   سر فكيف الخلائق العقلاء

شوقي

زففتنا كلانا في الحياة وها انا   أزف اليك الآن جنباً الى جنب

نجيب الحداد   لسان حال اسكندر لدراجا

Digitized by Google   Original from HARVARD UNIVERSITY

المقدمة

ظل العالم منذ نشأت فيه الممالك والامارات وقامت عروش الملوك والامراء الى الجيل الثامن عشر في حرب دائمة بين ملوكه ورعاياهم لا يكاد يمر عام حتى تدوي انحاؤه بافظع الانباء عن قتل ملك أو امير بايدي الشعب أو نوابه أو الطامعين في السيادة والملك وذلك لان الملوك كانوا يحسبون الرعايا من أملاكهم الخصوصية فيستبدون فيهم على ما يشاؤن ولا يسألون عما يفعلون. فكان الملك لا يلبث ان يجلس على العرش و يبدأ في تحكمه واستبداده حتى تثور ثائرة الشعب فيتألب عليه وينزله ذليلاً مهاناً أو يقتله ويريح منه الوجود. وكان هذا جارياً بنوع أخص في الجهات التي ارتقت عقول سكانها وعرفت حقوق الانسان من حيث كونه انساناً بغض النظر عن سمو مركزه وحقارته وأما الجهات التي خلا سكانها من تلك العقول فظلت محتملة اثقال ملوكها والمتحكمين فيها لحسبانهم من طينة غير طينة البشر يجوز لهم ما لا يجوز لغيرهم من انواع التحكم والاستبداد. الى ان قارب الجيل الثامن عشر على الانتهاء وكانت العقول يومئذ اخذة في الخروج من سجنها الضيق القديم فحدثت الثورة الفرنساوية المشهورة وهي التي قتل فيها الملك لويس السادس عشر واسرته وبدل نظام الاجتماع في فرنسا كل التبديل. واقبل الجيل التاسع عشر بما اشتهر به من معرفة الحرية وقيمتها واستنارة العقول فلم يمض ثلثه الاول الى نصفه حتى قامت حركة كبرى في خواطر المتمدنين وصارت بلادهم شعلة من نار بما نشأ فيها من ثورة الافكار فلم تهدأ حتى عرفت الشعوب حداً

لتحكم ملوكها ورؤساتها وبدلت النظامات الاستبدادية الى دستورية شوروية يرجع الفصل فيها الى الامم نفسها لا الى الملوك والرؤساء. فكان هذا اكبر ما تم للعالم من انواع الاصلاح الاجتماعي واول العهد بوقوفه على فارق صحيح بين الاستعباد والحرية والتمييز والمساواة

وكان الفضل في هذا كله او معظمه للامة الفرنساوية العظيمة الشان فعرفت من ذلك العهد بانها ام الحرية والمساواة كما عرفت من قبل ومن بعد بانها منبع التمدن العصري والعلة الاساسية في رفع راية العلم الحديث. وتبعتها امم كثيرة في الجيل التاسع عشر فحذت حذوها في تقييد الملوك والرؤساء بقيود دستوريه لا ينفكون عنها الى ما توحي به الاغراض والاهواء فلم ينقض ذلك الجيل حتى انقضى زمان التحكم والاستبداد في أكثر انحاء الارض المتمدنة واستسلم الملوك لرعاياهم استسلاماً تاماً القوا من بعده أسلحتهم الاستبدادية صاغرين. على انه ما زال بين دوائر المتمدنين بلاد استبدادية تجري على نوع من نظام العصور الاولى وهي التي جاز ملوكها ورؤساؤها الجيل التاسع عشر ولم يصابوا بسوء فحفظت ديمونتهم الى الجيل العشرين الذي بدأنا فيه منذ ثلاثة اعوام. فكان اول ملك انتقض عليه الشعب في هذا الجيل ملكاً رقي عرش بلاد صغيرة المساحة في اوربا لكنها تضم قوماً سرت في عروقهم دماء الحرية التي تمتعت بها اجزاء اوربا الاخرى ولم يحسن الحكم بينهم فلم يلبثوا ان رأوا منه روح التحكم والاستبداد حتى اعادوا تمثيل الثورات الماضية و تآمروا عليه فقتلوه. وكان هذا الملك هو الملك اسكندر وتلك البلاد بلاد السرب من اعمال البلقان. رقي اسكندر عرش أبيه صغيراً ولم يرضخ لصوت الشعب الرهيب كأنه نسي ما حل بسلفائه منه فلم تكن الا ساعة واحدة حتى قلب عرشه بعدان لطخ بدمائه ودماء زوجته على ما ترى من الرسم فضلاً عن دماء الكثيرين من وزرائه والملتفين حوله من اقارب واصدقاء. وقد كان العمل وحشياً لم يسمع بمثله في تاريخ الثورات وقلب العروش تلطخ به اسم السربيين بالعار ولا سيما لانهم لم يجربوا وسيلة اخرى يتخلصون بها من الظالمين

وكان في بلاد السرب رجل اسمه بطرس قره جورجفتش من سلالة العائلة التي سبقت عائلة اسكندر ابرونفتش في الحكم فدعي الى العرش فلبى الدعوة مسرورًا وارتقاه وهو ملطخ بالدماء على مشهد من العالم المتمدن باسره · ودوت انحاء الارض كلها بهذا العمل الفظيع وانبرت بعض الدول طالبة معاقبة الذين ارتكبوه معلنة عدم الاعتراف بالملك بطرس الا اذا ثبتت براءته من الاشتراك في هذه المذبحة الهائلة ولكنها لم تلبث حتى اعترفت به ملكاً على تلك البلاد وهنأه بعض ملوكها ايضاً بارتقائه العرش تهنئة خالصة من صميم الفؤاد · ذلك لانه ليس للسياسة قلب يتأثر ولا عاطفة ترفق بالضعيف المسكين ولا سيما اذا لم يكن لها صالح في ذلك الرفق · وكل ما يدعيه رجالها من اشكال المؤاساة والتألم لآلام الناس والميل الى رفع شأن المدنية والعمران وتعميم العدل وانصاف المظلومين انما هو لفظ تجرد عن كل معنى ولا وجود له الا في قواميس المداهنة والرياء

وما زال الملك الجديد ثابتاً القدم على عرش السرب بعد انقراض مناظريه والحكومة الروسية تأخذ بيده معضدة اياه كل التعضيد لانها تطمع بزيادة نفوذها في بلاده بواسطته ولا سيما لانها تربي له ولدين في بلاط حكومتها تنتظر ان يكون وارثه منهما طوع بنانها اذا جاء اليوم الذي يخلفه فيه

هكذا كان مجرى الحادثة المحزنة التي وضعنا لها هذه الرواية ذكرناها هنا ليكون القارئ على علم باصلها في سياق الحديث وهي عادة ليست متبعة غالباً في انشاء الروايات لان الروائي يريد ان لا يكون الاصل والمنتهى في روايته معروفين عند القراء حتى يباغتهم بحوادثها الاولى ويشوقهم الى نهايتها ولكننا رأينا في خلال حوادثها من الاسرار التاريخية والسياسية والاعتبارات الاجتماعية والادبية ما يسد ذلك النقص الروائي ويكسبها حلية جديدة لم يشهدها بعد اكثر القارئين · وقد اجتهدنا ان نجعل الغرض من وضع هذه الرواية ملماً بما يتعلق بها من تاريخ وسياسة واجتماع ليخرج القارئ منها جامعاً بين التفكه والاستفادة بقدر ما يستطاع فعسى ان نكون وفقنا منها الى ما نريد فان ذلك جل ما نشأ له فن الروايات

Digitized by Google

Original from
HARVARD UNIVERSITY

الفصل الاول

حلم غريب

في بلاد السرب بلدة اسمها فيتشفتسي غلب على اهلها الاشتغال برعاية الماشيــة والشجاعة ومحبة الوطن والميل الى احترام الاحلام وحسبانها اعلانات سمائية تنبيء الساكنين علي الارض بما سيكون . وكان اعتقادهم في الاحلام ناشئاً عن مذهب قديم بينهم مؤداه ان ارواح الذين يموتون من السربيين تتجمع في سماء تلك البلدة دون سواها من بلاد السرب وتظل مرفرفة عليها اياماً وشهوراً قبل ان يؤذن لها بالرحيل الى مواطنها القاصية في عالم الارواح وانها في خلال هذه المدة تهبط من عل بين حين وحين وتوحي الى الناس في نومهم بأهم مايحدث لهم في مستقبل الغيب ولذلك قلما يكذبون حلماً يقصه أحدهم ومهما يكن من غرابته قالوا ان له تعبيراً اذا فاتنا لم يجهله الخبيرون من معبري الاحلام

وهم يرجعون اصل هذا الاعتقاد الى مايظنونه من ان البقعة التي بنيت فيها هذه البلدة كانت اول البقاع التي استوطنها جدودهم النازحون من بلاد المجر واعتنقوا المسيحية فيها منذ اواسط الجيل السابع للمسيح ولهذا كانت عندهم احسن النقط السربية واعزها تاريخاً واشرفها أصلاً ولا تجد الارواح افضل من سمائها موضعاً تستقر فيه حتي يؤذن لها بالرحيل الى العالم الثاني كما تقدم القول

وكانت في هذه البلدة عائلة عاشت في منتصف الجيل الثامن عشر رزقت سنة ١٧٥٣ بولد دعته قره جورجفتش اوجورج الاسود فحلمت أمه في ليلة ولادته حلما سرها اوله واحزنها آخره ففكرت ووالده طويلا في ماعسى ان يكون الحلم لانه كان عن المولود الجديد . أما الحلم فكان مؤداه انها رأت واذا بابنها هذا شب وكبر واخذ يرعى الالوف من المواشي وظل على هذا مدة طويلة وهو يرعاها بدرجة من الحكمة والسداد تزيد عما الفه الناس من الرعاة كانه كان يعد نفسه لرعاية ماهو ارق من هذه القطعان

ثم رأت واذا بابنها وهو جالس في المرعى حملته غيمة بيضاء هائلة يوماً من الايام وصلت اليه من نواحي الشمال الشرقي واخذت تقذف به في اعالي الجو تارة وتهبط الى مايقرب من الارض أخرى فيشهد مذابح بشرية هائلة تجري بين اقوام مختلفين والدماء تسيل من اجسامهم انهاراً انهاراً حتى كونت بحراً عميقاً انزلته الى صوبه تلك الغمامة البيضاء فخشي ان يغرق فيه وأخذ يصرخ و يستغيث ولكنه انزل بهدوء الى سفينة تشق عباب ذلك البحر الدموي المخيف

قالت صاحبة الحلم ونظرت بعد ذلك واذا برجل نزل من الغمامة المشار اليها وآخر قذفت به غمامة أخرى جاءت من نواحي الشمال فاستقرا في السفينة وأخذا يتذفان بمقذافين ناريين وولدي جالس مضطرب البال حاسباً للمصير حساباً حتى وصلا به الى الموضع الذي اختطف منه اول مرة وهو الذي كان يشرف منه على قطعانه. فلم يصل ذلك الموضع حتى تغير وجهه الى هيئة بديعة ممجدة وملابسه البسيطة الى ملابس ثمينة وانقلبت تلك القطعان الى الوف من الناس سجدت له وحيته باصوات عالية اضطربت لها جوانب المشرقين والمغربين ولكنها كانت متقطعة فلم ادرك من معناها الا انها تعبر عما في الافئدة من الاكرام والاحترام

ورأيت ان ولدي هذا اخذ يأمر في الناس وينهي وكلهم طوع بنانه وانهم يقيمون الافراح للتخلص من ذل كانوا فيه الا عائلة واحدة اخذت ترمقه بنظرة الحسد وتتمنى لو انها حلت محله. ثم نظرت واذا بدخان كثيف يتصاعد من صوب تلك العائلة الحاسدة و يمتد شيئاً فشيئاً الى الموضع الذي فيه ولدي حتى غطاه كله وتحول الى غمامة سوداء حملته الى البحر الدموي الذي شق عبابه سابقاً ولكنه كان قد نضب قليلاً لتقادم العهد به وهنالك انفجر سهم ناري من قلب البحر على هيئة يد قوية واقتربت الى عنق ابني فخنقته واضافت جسمه الى اجسام الذين هدرت دماؤهم في ذلك الموضع المرهوب

وعند هذا سمعت صوتاً عظيماً من أعالي السماء يقول «احفظ هذا ولا تنسه حتى يأتي موعد الانتقام»

Digitized by Google
Original from
HARVARD UNIVERSITY

ولكنني رأيت بعد ذلك وكان لولدي اعوانًا وخلفاء يتعقبونه و يتنازعون مع افراد تلك العائلة الحسدة فيغلبونهم احيانًا ثم يعجزون عن غلبتهم وما رأيت في منتهى الحلم غير مجازر دموية وفظائع تجري في كل موضع اعرفه ولا أعرفه حتى صارت البلاد شعلة نار ومجاري من الدماء كالانهار»

ولما قصت هذا الحلم على زوجها لم يبق عنده ريب في انه سيكون للصبي مستقبل عظيم تتناوبه الرفعة والانحطاط ولكنه لم يطمئن الى تعبير من التعبيرات الكثيرة التي سمعها من بعضهم فرحل الى بلدة من اعمال السرب اسمها فاليفو وهناك يقيم رجل اسمه يوسف اشتهر بتعبير الاحلام على اصول يتبعها في جميع الاحوال فسرد عليه الحلم بالتفصل وطلب اليه ان يدقق في تعبيره لما يظهر فيه من الاهمية الكبرى المتعلقة بالبلاد لا بفرد واحد من الافراد . ثم امهله ثلاثة ايام ليبحث فيها فلم يشأ يوسف ان يعطى هذه المهلة لما ظهر له من الحلم عنده وقال له كل ماعندي من التعبير لهذا الحلم ان تذهب الآن وتبشر والدة الصبي بان ابنها سيحكم السر بيين و يكون تحرير البلاد على يديه . فاندهش الرجل من هذا التعبير السريع وطلب اليه ان يتمهل في الحكم ويسرد معنى الحلم كله لما يحويه من امور كثيرة فيها مخاطر واهوال على الصبي نفسه والذين يلتفون حوله من الناس

فاجابه الى ماطلب وعاد اليه في اليوم المعين للتعبير وقال له اسمع ماسيكون لابنك وللبلاد في مستقبل الايام ولا تشع ما أنا قائل بل احفظه في قلبك واكتمه اذا استطعت عن امرأتك ايضاً فان النساء لم يشتهرن بالقدرة على كتم الاسرار. فاجابه الوالد أما الناس فاعدك بكتمان الامر عنهم وأما امرأتي فلا . لا لاني اريد ان اقص عليها التعبير ولكن لانها قد لاتهدأ عن الالحاح عليّ بما فطرت عليه المرأة من حب الاستطلاع والثبات في ما تطلب فربما أرحت نفسي واعلمتها الخبر ثم أوصيتها بالكتمان على قدر ما تستطيع. وعليه اندفع يوسف يقول :

Digitized by Google Original from HARVARD UNIVERSITY

أرى قبل ان افسر لك هذا الحلم العجيب ان اعلمك بشيء يخفى على الاكثرين وهو انه لاشيء عندي من القوى السرية استطيع بها تعبير الاحلام بل انها معدومة عند كل من يدعيها ايضاً فلا تنظر اليّ كأنني ذو علم يفوق المألوف من علم الناس فان كل ماعندي من الاقتدار في تعبير الاحلام راجع الى شدة التدقيق في الملاحظة وشواهد الاختبار . واعلم ايضاً انه لم يستطع الناس الى اليوم ان يضعوا قاعدة معروفة لتعبير الاحلام يرجعون اليها كلما سمعوا حلماً لانه قلما تتشابه الاحلام وكل ما تسمعه من هذا القبيل احسبه كذباً لايحتمل التصديق

وكانت رغبة والد الصبي في معرفة اسرار الاحلام لاتقل عن رغبته في تعبير حلم امرأته لما تقدم من الاعتقاد العام المتعلق بها في بلدته فطلب الى يوسف ان يزيده من كلامه هذا اللذيذ ولاسيما لانه رآه عاقلاً لايدعي القدرة على مايعجز عنه البشر ولا يجري مجرى الدجالين في ادعاء القوى الخارقة . وسأله ايضاً ان يعلمه رأيه في ماذا كانت الاحلام كلها صادقة على مايشيع قومه او ان بعضهـا صادق والبعض كاذب لان كثرة الاهتمام بها في وطنه مما جعلها حديث الناس ليلهم والنهار

فاجاب يوسف اني اشكر لك ماوضعته في من الثقة واعلم انه لولا ماقرأته على تضاعيف وجهك من العقل الراجح وعدم الاهتمام بالاوهام ماحقرت نفسي امامك الى ذلك الحد وماذكرت لك ضعفي وتجردي عن القوى الخارقة في تعبير الاحلام لان الناس من طبعهم ميالون الى حيث يكون الادعاء بما هو فوق القوى البشرية وقليل بينهم من يلتف حول العقلاء والصادقين . وعندك في هذه البلدة رجل اسمه روزوفتش يختلف اليه الناس بالمئات وعشراتها يسألونه الكشف عن مستقبلهم وتعبير احلامهم وحتى شفاء اسقامهم وتحسين احوالهم بما يدعيه من القوة السرية السامية فاذا تمتم ودمدم وقرأ الارصاد ونطق باسماء الجن وتوابع الارض انزلوه من قلوبهم اعلى منازل الاحترام وظنوه القادر على مالايقدر عليه سواه من كشف الاسرار . واما سواه ممن لا يدعون هذه القدرة ولكنهم على علم واختبار صحيحين فلا

نصيب لهم من ذلك الاحترام ولا عجب فان اكثر الناس بسطاء لا تقبل عقولهم الحقائق ولا تسع غير هذه الاوهام. واري اني اطلت لك في ما تقدم ولعلك تنتظر تعبير الحلم بفارغ الصبر فاسمح لي بان اؤجل الرد على ماسألتنيه عن حقيقة الاحلام والصحيح منها والفاسد الى ما بعد تعبيره. قال والد الصبي ولكني ارجو ان لا تؤخر في تعبيرك شيئاً ولو يكون جارحاً لنا أو منبئاً عن شر سيلحق بنا فانه ليس افضل للانسان من ان يعرف ماسيصيبه في المستقبل ليسر به اذا كان سارًّا أو يتخذ الحيطة منه اذا كان ضارًّا . فاجاب يوسف سيكون لك بعض ماطلبت لا كله لانه لا يحسن بالمرء ان يكون عارفاً بمستقبله في حالتي السراء والضراء وليس في تدبير الخلاق الحكيم ماهو اليق للانسان من تقصير ادراكه عن كشف المستقبل لانه لابد من وقوع المحن والرزايا في هذه الدنيا وزيادتها عن دواعي المسرة والهناء فلو علم الانسان ماسيكون من تلك النوائب قبل وقوعها عاش العمر في شقاء مقيم. فاقنع بما سأقول ولا تستزدني منه فان في ما ستسمعه مايكفي للكشف عن مستقبل لست في حاجة الى العلم باكثر منه. فأخذ الوالد وأعطى في نفسه بعد هذا الرد وقال ما عسى ان يكون ذلك الذي سيخفيه يوسف عني ولكنه كره ان يلح عليه باظهاره وطلب اليه ان يبتدىء بالتعبير

الفصل الثاني

﴿ تعبير الحلم ﴾

فقال يوسف للرجل اعلم ان الحلم الذي حلمته امرأتك صحيح عظيم الاهمية وليس كبقية الاحلام لانه ينبيء بمستقبل عظيم يهتم له كل سكان البلاد الذين يعيشون اليوم والذين سيأتون من بعدهم ايضاً في الاعوام القادمة فكأنه نبوءة شاءت العناية ان تخص بها امرأتك لانها أقرب الناس الى من سيكون تمام الحلم على يديه في مستقبل الايام

فكبرت نفس والد الصبي و بدأ أنفه يشمخ قائلاً ماعسى ان تكون هذه الاهمية العامة المنتظرة من صبي ليس لابويه حول ولا طول

قال يوسف للرجل « رأت امرأتك ابنها جالساً يرعى الالوف من المواشي وهي رؤيا صريحة لان مهنته ستكون رعاية الخنازير. ورأته يرعاها بدرجة من الحكمة والسداد تزيد عما ألفه الناس من الرعاة ومعنى هذا ان رعايته هذه لا تدوم طويلاً وانه انما يرشح نفسه لرعاية ما هو أرقى من قطعانه وما يحتاج في رعايته من الحكمة اكثر مما تحتاج هذه القطعان. وأما السر كله ففي الغمامة البيضاء التي رأت امرأتك في الحلم انها حملت ابنها من محل رعايته لانها على ما قالت وصلت اليه من ناحية الشمال الشرقي وهي الجهة التي تدور على محورها سياسة السرب والى كعبتها تحج آمال السربيين منذ القديم. تلك هي دولة الروس سترى في ولدك استعداداً لتحرير البلاد على يديه من حكم الدولة العثمانية فترفعه مما كان فيه الى درجة الاشراف على بلاد السرب والطموح الى تحريرها فتأخذ بيده في هذه المهمة ولكن من وراء الستار. واما بياض الغمامة فيدل على شرف الخدمة المقصودة منها وهي تحرير الوطن وان لم يكن ذلك القصد الرئيسي عند الدولة الروسية كما ستعلم. واما كون الغمامة كانت تقذف بالصبي الى اعالي الجو تارة وتهبط به الى مايقرب من الارض أخرى فدلالة على وعورة المسلك وعلى ان تلك الخدمة لاتنتهي بسهولة فيتخللها ارتفاع وهبوط. والمذابح البشرية الهائلة التي شاهدتها في الحلم نتيجة لازمة لهذا الاقدام لان دولة الاتراك لايمكن لها التسليم بتحرير البلاد قبل حرب عظيمة تسيل فيها الدماء أنهاراً. وقولها ان هذه الانهار الدموية كونت بحراً عميقاً نزل اليه الصبي على اجنحة الغمامة فخشي الغرق فيه ولكنه انزل بهدوء الى سفينة نجته منه مما يعبر عنه بان الدولة التي تساعده على نيل بغيته سترد عنه كيد اعدائه وتنجيه من المخاوف الهائلة التي ستلاقيه فيكون محاطاً باعظم المخاطر الدموية ولا يصاب بسوء »

قال يوسف « الى هنا وقد فسر الحلم نفسه فان الرجل الذي أنزل الى تلك

السفينة من ناحية الشمال الشرقي قدم من بلاد الروس والرجل الذي انزل اليها من نواحي الشمال قدم من بلاد النمسا وهما الدولتان اللتان تكثر مطامعهما في نواحينا ارسلتا قوتين من عندهما لتساعدا ولدك على ما قصده من الاستقلال حتى استتب له الامر كما جاء في الحلم وانقلبت مهنته من رعاية الماشية الى رعاية السربيين فانزلوه بعد ذلك ما يستحق من منازل الاحترام. ولا يحتاج ماجاء بعد هذا الى تعبير فان افراح السربيين منتظرة بعد هذا الاستقلال ووجود حساد للامير الجديد أمر لابد منه

ثم تظاهر يوسف بالانتهاء من تعبير الحلم وكان والد الصبي حين طرقت أذنيه لفظة «الامير» الجديد قد غاص في بحار الافكار وأخذ يدعو الى الله بان يتحقق الحلم و بان يعيش الى اليوم الذي يرى فيه امارة السرب آئلة الى ابنه فيعتز به ويجني من ثمرات الشرف ماشاء. ولكنه فطن الى ان صاحب التعبير ترك أمراً ذا بال وهو ماحل بالصبي بعد ان دانت اليه رقاب السربيين من المخاطر والاهوال وكيف ان الحلم دل على انه لم يمت بعد ذلك حتف انفه بل تغلبت عليه تلك العائلة الحاسدة فقتلته. وعليه طلب اليه ان يعبر له عن ذلك فحاول التنصل من التعبير قائلاً انما قلت لك كل ما يهمك ذكره من مستقبل الصبي ولا ينبغي لك ان تكون ملماً بكل ماسيكون فان في ذلك ضياعاً للذة الآمال كما تقدم القول. فقال والد الصبي وأية لذة تفوق يا ترى ماذكرته عن مستقبلنا المجيد. وما كان سكوتك عن تعبير البقية الا مضيعاً هذه اللذة لاني أراها منبئة بمستقبل مخيف يبدل تلك السعادة بشقاء مقيم. وخير لولدي اذا كان مستقبله تعيساً بعد هذا الهناء ان يعيش راعياً صغيراً لماشيته وهو هنيء البال طيب الحال من ان يعيش ملكاً سعيدا بضعة ايام تمر مر الحلم ثم تنقضي ذلك الانقضاء المخيف. والسقوط من حائط قليل الارتفاع كما تعلم أبقى على الجسم منه اذا كان من حائط ذي علو عظيم لانه في الحالة الثانية ينسحق لحماً الى عظم واما في الاولى فيهبط مطمئناً ورجلاه في عافية.

Digitized by Google
Original from HARVARD UNIVERSITY

آلا فاخبرني بما سيكون فاني رأيت قولك معقولا في كل ماسردت من تأويلات هذا الحلم العجيب ولعلك لاتجد في نتيجته الا مثل ماسرني سماعه من مقدمته . فكظم يوسف غيظه من هذا الالحاح لانه لم يكن ليحب ان يعرف الرجل ماسيحل بابنه من الشقاء بعد لذة الملك وأخذ يسائل نفسه أن ماعسى يدور في خاطر هذا الانسان اذا اعلمته بما سيكون وهل ترى يثبت على ماتظاهر به من تمني بقاء ابنه على المذلة والفقر وخمول الذكر مع خلاصه من هذا المصاب المنتظر أو انه يقوده الطمع وحب الدنيا وما فيها من مجد وجاه الى مخادعة النفس بالنفس واستسهال التعرض لهذا الخطر العظيم مع التمتع بعز السلطان وما يتلوه من رفعة الشأن . فالتفت اليه قائلاً « اذا كنت ممن يعرفون تاريخ البلاد البلقانية لم يفتك العلم بشيء ظاهر وهو ان القتل أسهل ما يلجأ اليه اهلها في تنفيذ رغائبهم ولا سيما اصحاب الامارة منهم والذين طمعوا في السيادة والملك وقل من قام ملكاً على عرش هذه البلاد سابقاً او ظهر من امرائه وكبرائه في الولايات التابعة اليه الامات مغدوراً مقهوراً حتى ان الملك منهم أو الكبير أو الامير كان اذا القيت اليه مقاليد الامور اعد عدة موته قبل الاهتمام بأي أمر أو اتخذ الحيطة من الغادرين علماً منه بان وراءه كثار يطمعون في ماوصل اليه من رفعة القدر ولكل منهم حزب قوي لا يروق له الا الاستمرار في مغالبة الاحزاب . ولعلك لاتجهل ان كلا من هؤلاء الملوك والولاة كان شديد الميل الى الارتقاء على العرش مع تعرضه للمخاطر والاهوال كالجندي المتطوع يحمل سيفه الى الحرب وهو مرجح جانب الموت على الحياة ولكنه يفعل ذلك طمعاً في الشرف العسكري الموهوم ورغبة في النوال . ومما لايحتمل الريب انه كلما كبر المرء كلما كبرت مخاطره على نسبته لانه يقوم حينئذ في الوسط الذي هو فيه مقام الرأس من جسم الانسان حيث يكون اكثر الاعضاء تعرضاً لنظر العيون وهدفاً لاخطار الحياة . وما زال الانسان من قدم يعرف صعوبة الرئاسة وعظم المسئولية الملقاة على عواتق الرؤساء دون المرؤسين وانه يسعى اليها ما وسمت قدرته الى حد الاستقتال . فكأن المناصب الكبرى مركز الجذب

Digitized by Google Original from HARVARD UNIVERSITY

العام تجذب الناس اليها اضطراراً وهناك يكون التعرض لحمل اكبر الاثقال لانه حيث الجاذبية يكون الثقل العام . أو كأن هذه المناصب ولذاتها بالنسبة الى الانسان كالنار والنور بالنسبة الى الفراشة فهي تساق قسراً الى الضياء الصادر من النور فتلاقي منيتها في الحرارة المنبعثة من جانب النار »

فقاطعه هنا والد الصبي قائلاً كفى الشرح والتعبير فلعل ابني هو هذه الفراشة والمنصب الذي سيرقاه هو هذه النار . وقد ادركت انك انما تريد بهذه المقدمة الطويلة ابلاغي أمر الاخطار المنتظرة كما يبلغ الحكيم غيره اخبار السوء حتى يستقبلها بصبر جميل وتعزيتي عما سيصيب ولدي في مستقبل الايام بما قلت من وجوب انتظار المخاطر للملوك والكبراء . ولكن ألا يكون لما جاء في آخر الحلم من قتل ولدي تعبير آخر غير هذا التعبير فاني سمعت كثيرين من معبري الاحلام يذهبون الى ان الحلم بالموت دليل على طول الحياة . فضحك يوسف في نفسه وقال في سره لقد بدأ ظني يتحقق في هذا الانسان فانه أخذ يخدع النفس بالنفس ويستسهل الموت في سبيل العرش وأما التعبير الاخير وهو المتعلق بقتل ابنه فحاول ان يخدع نفسه بعدم تصديقه . وهو لا ينتظر تعبيراً آخر لمقدمة الحلم لانه مفرح ولكنه انتظر تعبيراً آخر لنتيجته لانه محزن . ومازال الانسان من يومه خداعاً لنفسه كثير الامل في انتظار المسرات قليله في توقع النكبات . ولعل هذه حكمة أخرى من جانب العناية العليا فهي تعالت حكمتها دبرت للناس خفاء مستقبلهم حتى لا يجزعوا لنوائبه لانها اكثر من افراحه ثم هي قضت بحملهم على انتظار الخير اكثر من انتظار الشر ليقضوا حياة مطمئنة بقدر ما يستطيعون . وبعد ان اتم هذه المناجاة التفت الى والد الصبي مبتسماً وقال :

تسألني عما اذا كان لما ظهر في الحلم من قتل ابنك تعبيراً آخر أما انا فلا ارى الا ما اشرت اليه وربما رأى سواي غير ما رأيت . وخلاصة ما يمكنني قوله الان ان ولدك هذا سيحكم السربيين كما ظهر في الحلم ولكن آخرته ستكون سوداء فيموت قتلاً بايدي مناظريه ولا يرتفع السيف عن اعناق اعقابه في بلاد السرب ولا عن اعناق غيره

من مناظر يه فيها لانه هكذا قضي على بلاد البلقان . فاقنع بهذا التعبير ولا تسألني تفصيله ثم اذهب الى امرأتك فبشرها بما سيكون وحذار من ابلاغها ماقلته لك في آخر التعبير . فاجاب والد الصبي وآليس في الامكان ان نعرف المدة التي يحكم فيها ابني بلاد السرب آمنا مطمئناً من غدرات الايام فنشير عليه اذا كبر بان يقتصر عليها في أمارة البلاد حتى اذ جاء اوان الخطر ابتعد عن الحكم وعاش في اطمئنان بعيداً عن ضرر الحساد ؟؟ . فقال يوسف ذلك لا يكون لان الذي قضى بان يرقى ابنك عرش السرب هو الذي قضى ايضاً بان يموت قتيلاً بايدي الاعداء . وعليه فلا سبيل الى خلاص ابنك مما سيكون وعبثاً تحاول التقاط الخيردون الشر وهو ممتزج معه في آن . وقد اضطررت الى الافصاح لاني رأيتك تستسهل ذلك الخطر في سبيل التحصل على النعمة المنتظرة وطالما قلت لك ان العلم بكل ما في مستقبل الغيب مما لا يحسن بالانسان ان يتطلع اليه

قال يوسف هذا القول ثم رأى تباريح الحزن بادية على والد الصبي فشعر بانه اخطأ في اجابته الى ماطلب من الافصاح عن كل ماسيكون . وكان عالماً بفن التنويم فرأى ان يلجأ اليه في ازالة هذا التأثير من الرجل وذلك بأن يأمره وهو منوم بتناسي كل ماسمعه عن قتل ابنه بعد ان يحكم السرب وهو أمر ميسور للقادرين في هذا الفن العجيب . فشخص اليه على عادة المنومين واستهواه فنام وأمره وهو نائم بين يديه بان لا يعود الى ذكر ماقاله له عن قتل ابنه وبان لا يأخذه الاهتمام بذلك المستقبل البعيد . فكان كذلك واستيقظ الرجل بارادة المنوم وكأنه لا يذكر الا انتظار مستقبل طيب لابنه فعاد الى حديثه الاول وطلب اليه بالحاح ان يذكر له ما وعد بذكره سابقاً عن اسرار الاحلام

الفصل الثالث

أسرار الاحلام

قال يوسف للرجل انك تسألني الآن امراً ذا بال ولا بد لادراكك اياه

Digitized by Google Original from HARVARD UNIVERSITY

من تبصر وايمان فاجمع قواك واصغ الي ثم عد الى بلدتك وانشر ما تسمعه من هذا القبيل لعل قومك يعودون الى الرشد ولا يتمادون في ما ذكرته لي عن تعلقهم بمسائل الاحلام تعلق الجهلاء بالخرافات والاوهام . ولو اننا احصينا عدد الذين يؤمنون بالاحلام كل الايمان لوجدناهم معظم البشر وكثيرًا ما يكون اعتقادهم بصحتها كلها داعيًا اياهم الى املاء عقولهم بالخرافات بل مسيئًا لحالتهم الاجتماعية كل الاساءة لان الرجل منهم قد يحلم اليوم ان صديقه الفلاني يبغضه ويسعى الى اذيته أو ان اباه سيقضي عليه أو ان منزله سيحترق أو انه سيخسر خسارة هائلة فيمسي و يصبح بعد هذه الاحلام وهو يبغض ذلك الصديق و يعتقد فيه الميل الى اذيته ثم هو ينتظر ما سيحل بابيه أو بمنزله أو بتجارته انتظار المريض للموت فتسوء حاله كل السوء و يتبدد ذاته بأمور قد تكون كلها بعيدة عن الصحيح . ومما لا يحتاج الى ايضاح اني لست ممن يكذبون كل الاحلام والا ما عبرت لك ذلك الحلم الذي حلمته امرأتك ولكني كما قلت سابقًا أرى ان اكثر ما يكون منها أضغاث لا حقيقة لها وأما الصحيح منها فأقل من القليل . وهنا تقوم صعوبة التمييز بين الفاسد من الاحلام و بين الصحيح ولكنها اذا كانت صعوبة عسرة الحل عند اكثر الناس فهي ليست كذلك عند الذين درسوا حقيقة الاحلام والباعث اليها وما يوافقها من الظروف والاوقات . ولا ادري كيف يكون حل هذه الصعوبة عند سواي ولكن الذي خبرته بنفسي وعلمت به الظروف التي تصح فيها الاحلام يرجع الى أمرين وهما الاستعداد الذاتي عند المرء الذي يحلم والوقت المناسب لظهور الصحيح من الاحلام

أما الاستعداد الذاتي فيقوم بأمرين ايضًا اولهما ان لا يكون النائم ممتلئ المعدة أو سيء الهضم وثانيهما ان يكون معروفًا بالفطنة والتقى والهدوء . وعلى هذا فليس كل انسان مستعدًا لان يحلم احلامًا صحيحة لان الذين يتوفر فيهم هذان الشركان قليلون جدًا بين الناس أو هم أقل من القليل . وقد كبر في الاعتقاد بصحة هذين الشرطين حتى صرت كلما قصدت ان يكشف الله لي عن امر في صفحات الغيب أقمت لذلك استعدادًا عظيمًا وقهرت النفس بالنوم جوعًا او على غير شبع

وزدت تعلقاً بالتقي والهدوء فلا تكاد تمر ليلة علي أوليتان حتى اقف على شيء من ذلك الغيب اما بطريق الصراحة أو برموز استدل منها على ما أريد . وكثيراً ما كانت هذه الرموز تتعصى علي فلا أعرف لها حلاً ولكني كنت استعين على درسها بتسجيل كل حلم وما يقابله من التعبير حتى استطعت ان اكون على شيء من العلم بتلك الرموز

هذا من جهة الاستعداد الذاتي عند المرء الذي يحلم واما الوقت المناسب لظهور الصحيح من الاحلام فيكون على ماخبرته بنفسي قبل الاستيقاظ ولاسيما بعد ان يأخذ الجسم حقه من راحة النوم عند الصباح . والظاهر ان ذلك ناتج عن استيلاء السكون على الدنيا في ذلك الوقت وعن ان المعدة تكون حينئذ قد بلغت نهاية ماتحتاج اليه من الهضم فيتحرر الجسم من اثقالها واثقال الغوغاء ويستعد العقل لقبول ما توحي به الروح

الى هنا وقد استوقفه والد الصبي لانه رآه مسترسلاً في مايعتقد كثيرون بانه خرافات وأوهام فقال له كيف يليق بعاقل مثلك ان يستسلم للتصديق بأمر كهذا لاتصادق عليه العقول . وماتلقنت شيئاً من العلوم ولكني سمعت بعض الذين أوتوا منها أوفر نصيب يقولون ان قوة الروح واحدة سواء في اليقظة والمنام فهي لاتعجز عن شيء في اليقظة وتأتيه في النوم . وهب انها اكتسبت قوة جديدة بعد ان تنام الحواس فكيف يمكن لهذه القوة ان تعرف مالا يعرفه غير علام الغيوب . واذا كانت هذه القوة حقيقية فكيف تخطيء في احلام كثيرة كما قلت وتضلل بالانسان . واذا كان خطأوها اكثر من صوابها أفليس أولى بالناس ان يضيفوا الاحلام كلها الى جانب الخرافات حتى لايقعوا في شرور التضليل ؟؟

وكان يوسف ممن لايغترون بما عندهم من سعة العلوم فسمع ما يقول ذلك الشيخ بغاية من الاصغاء قائلاً في نفسه رب انتقاد صغير يخرج من بسيط الادراك يكون داعياً الى شدة الاهتمام . فأجابه انك لم تخرج في اعتراضاتك

Digitized by Google Original from HARVARD UNIVERSITY

عما هو واجب على مثلك عند سماعه مثل ما قلت بل ان جميع ما اعترضت به علي مما يجب ان لا ينبذ لاول وهلة من سماعه . غير انك علمت شيئاً وفاتتك اشياء . فقد قلت في بدء الحديث اني وان كنت ممن يميلون الى تصديق بعض الاحلام ولكني اريد ان يشيع بين العامة عدم صدقها لان التصديق بها كلها مما يملأ عقولهم بالخرافات وتسوء له حالتهم الاجتماعية كل السوء . على ان ذلك لا يمنعني من تقرير حقيقة كهذه سئلت عنها . وأول ما يعترضك دون تصديقها عدم انطباقها على المعقول . نعم انها كذلك لانها لا تنطبق على المعقول ولا على المنقول ولكنها تتخطى حدود المعقول . فالعقل لا يدركها لا لانها مناقضة له ولكن لانها فوق حده المألوف . وليس لهذا العقل ان يكذب كل ما يخرج عن حدوده لان خروجه عنها لا ينفي صحته . وما زال العقل يظهر عجزاً فاضحاً حتى في ادراك المنظور : ألا ترى انه لا يزال جاهلاً نفسه وكيفية تركيبه وهو موجود . بل ألا ترى انه مازال عاجزاً عن ان يدرك سر الحرارة وهي كاوية وحقيقة الانوار وهي تخترق الابصار

بل اي شيء ادرك العقل سره في هذا الكون الفسيح . واين كان هذا العقل حين لم تظهر عجائب الاختراع الحديث . ألم يكون موجوداً . نعم كان له وجود ولكنه لو سئل يومئذ عما امكن ظهوره الان من هذه الاختراعات لعدها من قبيل الاوهام والخرافات . وما زال في الكون قوات كثيرة تجهلها العقول ولكن جهلها بها لا يعد دليلاً على عدم الوجود . فاذا كان العقل لا يدرك حقيقة الاحلام الصحيحة واسرارها فليس هذا دليلا على عدم وجودها . بل انه لم يقم للعقل من الدلائل على صحة الابحاث التي تعرض عليه ما قام له من الدلائل على صحة بعض الاحلام . فان ملايين البشر قديماً وحديثاً ينامون ويحلمون وكلهم على اجماع في القول ان من بين احلامهم كثيراً ينطبق على الواقع ولا يمكن ان تكون كل هذه الحوادث من قبيل الصدفة التي لا يصح معها دليل . فاذا قيل ان كيف يكون بعض الاحلام صادقاً والبعض كاذبا مع ان القوة في الروح واحدة قلت انها ليست واحدة . كما

سيجيء ومع هذا فان الارواح لم تؤت عصمة الالوهية فانها قد تخطىء وقد تصيب ولكن الخطاء عندها اقل من الصواب. هذا وانها مقيدة بالظروف التي شرحتها لك من قبل فقد توحي الى العقل وحياً في المنام ولا يكون مستعدا لادراكه في حالة ارتباكه باثقال المعدة والغوغاء كما تقدم او باثقال اخرى لا تعلم فيتخبط في تلقيها ويخرجها اضغاث احلام

اذا علمت هذا فاعلم ايضاً انه كلما تحرر الجسم من اثقال وظائفه كلما تحررت روحه من ثقله ومتى تحررت لم يبق بينها وبين الغيوب حجاب . ألا ترى ان الانسان كثيرًا ما يحل المسائل الرياضية الصعبة وغير الرياضية ايضا وهو نائم مع انه يعجز عن حلها او حل ما هو ابسط منها وهو مستيقظ ؟؟ . او لم تسمع بالذين اتوا من مدهشات الاعمال وهم في حالة النوم ما لا يعرفونه وهم في حالة الصحو وان عرفوه لم يستطيعوه.؟؟ . فقد روي عن كثيرين استطاعوا وهم في النوم ان يعبروا البحور سباحة وهم يجهلون العوم حتى انهم لو كانوا يعرفونه في اليقظة ما استطاعوا ان يقطعوا المسافات البعيدة التي يقطعونها عوما حالة كونهم نائمين . وروي عن قوم غيرهم امكنهم ان يتسلقوا ادق الاسوار وحواسهم نائمة مع انهم يرهبون مجرد النظر اليها في حالة الاستيقاظ . ولو انك ايقظت النائم وهو يسبح في البحر او يتسلق السور غرق او وقع وهو امر غريب في حد ذاته ولكن سره ليس عميقاً لان كثافة الجسم ولطافة الروح لا تجتمعان في مكان ولا في زمان . فان المرء وهو نائم تكون روحه متحررة من جسمه على نوع ما كما تقدم القول فلا ترى شيئاً يعيقها عن اتيان ما هو في حدود الامكان ولكنه اذا استيقظ حبست حواسه هذه الروح اللطيفة في سجن ضيق لا ترى منه النور الا شعاعا من وراء الحواس . فاذا كان في امكان الانسان ان يأتي من الاعمال وهو نائم ما يعجز عنه وهو مستيقظ فلماذا لا يكون في امكانه ايضا ان يعرف من امور الغيب وهو نائم ما يجهله وهو مستيقظ ؟؟.. آلان العلم بالغيب فوق المألوف من طوق الانسان ؟؟.. اللهم ان العلم بذلك الغيب ليس اغرب من الاتيان بما هو فوق الاستطاعة والقدرة من مثل تلك الاعمال ولا هو بأعجب

من حل هاتيك المسائل الفائقة

قال والد الصبي ولكنك قلت في اول كلامك عن اسرار الاحلام انه لا بد لمن يحلم احلاما صحيحة ان يكون في طبعه الفطنة والهدوء وما عهدت هاتين الخلتين كاملتين في ام جورج ولا في بنت اخرى من بنات حواء لانهن على ما تعلم متسرعات في الفكر والقول والعمل وعندهن من المقدرة على الكلام الكثير ما لا يخفى على الناقدين فكيف استطاعت امرأتي ان تحلم ذلك الحلم وهو صحيح على ما تقول

فضحك يوسف من هذا الاعتراض اللطيف وقال اذا لم يكن في طبع امرأتك الميل الى تينك الخلتين فقد اضطرت الى الاتصاف بهما اضطرارًا بعد ان قاست ما قاسته من مصاعب الوضع وهي لم تحلم ذلك الحلم الا في الوقت الذي كانت ضعيفة على أثر الولادة رزينة العقل هادئة الروح . وقد علمت منك انها معروفة بالتقى وهو على ما تقدم القول الزم صفة لصحة الاحلام . ولا اظنني بمبتعد ا عن الموضوع اذا قلت لك اني في الحين الذي كنت ابتعد عن التقى وهدوء الروح لم اكن احلم حلما صحيحًا بل كانت كل احلامي من قبيل الاضغاث . ولكني حين جاء الدور الذي تعقلت فيه وخفت القوة العلوية واصبحت كثير التأمل في اسرار الوجود وما وراء الوجود كثر عندي الصحيح من هذه الاحلام

واريد ان اوجه نظرك الى شيء دقيق في مسائل الاحلام وهو ان اكثر ما يكون منها متعلق بالعائلات والاصدقاء وهو مما يدل على ان بين الافراد المتحابين علاقة سرية تظهر باجلى وضوح في المنام . وما زال كثيرون من العلماء يذهبون الى ان بين ارواح الناس كلهم علاقة عظيمة تظهر كلما تخلصت من كثافة الاجسام . وعليه فلا عجب ان تحلم امرأتك ذلك الحلم لانه لم يكن شيء في وقت نومها يمنع من تقابل روحها بروح ابنها هذا الصغير وانبائها بما سيكون . هذا اذا لم نقل ان الروح العلوية التي تدبر كل هذا الكون هي التي اوحت اليها بما علمت به لانه لاشيء يمنع اتصالنا بالسماء كما ان الانباء بالغيب من جانب هذه القوة العلوية معترف بامكانه من جانب الاحلام على ما جاء في كتب الانبياء

Digitized by Google
Original from
HARVARD UNIVERSITY

قال يوسف هذا القول ورأى ان حديثه عن الاحلام طال فقال لوالد الصبي اذا كنت اكتفيت بما سمعت فقم مقتنعاً بصحته و بلغه أمرأتك فاني اخالها في انتظار لرؤياك شديد . فاجاب ذلك الوالد سأقوم على وعد الرجوع اليك مرة اخرى لاسألك شيئاً عن الرموز التي قلت لي انها قد تظهر لك في الحلم احيانا وتستطيع تعبيرها تعبيراً صحيحاً فان اكثر الاحلام تظهر رموزاً واشارات وقلما تعبر مباشرة عن الصحيح فلئن علمت كل رمز منها وما يقابله من التعبير امكنني تفسير الاحلام . ثم قام وودعه أحسن وداع قائلاً سأذكر لك هذا المعروف ولئن تم ما قلت لي من تعبير الحلم لاوصين ابني بك خيراً حين يرتقي العرش وتلقى اليه مقاليد الامور . فاجاب يوسف لست اطمع منك ولا من ابنك في شيء من الاجر فقد لا يبلغ الطفل اشده قليلاً حتى اكون في عداد الدارجين لاني على ما ترى قد بلغت حداً من العمر لا يطمع في حال فكيف بالاستقبال . واما غاية ما أرجوه ان لا تكون له علاقة باهلي من بعدي فانا قوم طبعنا على الاكتفاء بما نحن فيه ولئن لعبت الدنيا امامنا وزينت لنا شيئاً من نعمها مصحوباً بالاخطار وتقلقل البال هزأنا بلعبتها وما بسطنا يداً لنيل ذلك الشيء . وعيب على المرء ان يعلق أمله بشيء حاضر و يبني عليه القصور فكيف به اذا علقه بمستقبل بعيد غير مأمون . فاذهب وانس انك قابلتني ولا تشغل نفسك بجزاء مادي تهبني اياه فاني في اليوم الذي اعلق امالي على مثل هذا الجزاء أفقد ماوهبت من سلام ادبي داخلي وما فيه من لذة حقيقية وهناء . — فنظر اليه والد الصبي نظرة المندهش من هذا الزهد قائلا في نفسه حتى أهله فانه لا يريد ان تكون لهم علاقة بابني من بعده لئلا تصحب بالاخطار فما عسى ان تكون هذه الاخطار ومن في الرعية لا يتفانى في التقرب بعروش الملوك . ولكنه لم يشأ مراجعته في قوله وتركه قاصداً منزله مسروراً وفي نفسه آمال عالية واي آمال

Digitized by Google Original from HARVARD UNIVERSITY

الفصل الرابع

اوهام النساء

سار الرجل حتى وصل منزله فقابل امرأته بوجه يتدفق البشر منه لانه اصبح والدًا لاول أمراء السرب حسبما اعتقد ثم جلس على كرسيه ونادى الصبي الصغير باسم الامير وأخذه التيه والعجب بني خلف فقال لامرأته باسماً ترى هل تعلمين ياأم جورج من تحملين على ذراعيك . فاجابت لاشيء غير اني احمل ولدًا . قال نعم ولد ولكنه ولد ولا كل الاولاد وما حملت مثله امرأة من قبلك في البلاد . ومعلوم انه ليس افضل عند المرأة من ان يمدح امامها طفلها لان مدحه من مدحها فهي حين سمعت ذلك الاطراء اعجبت بنفسها وأي اعجاب وهنهنت الطفل هنهنة لظنها ان رجلها انما يعجب به و يظهر سروره برآه ولكنها تجاهلت هذا الاحساس قائلة وما معنى هذا الاطراء فان كل واحد بابنه معجب ولا ارى في ابنك مايزيه عن المألوف بين الابناء . فقال نعم ولكني أقصد بذلك مستقبله ولا بشرنك اليوم بانه سيكون مستقبلاً عظيماً ما رآه أحد في عشيرته ولا في بلاده كلها وقد ظهر لك ذلك في الحلم الذي سمعته منك وانبأني بتعبيره اصدق معبري الاحلام . ثم قص عليها كيفية التعبير وكان قد نسي منتهاه المركا تقدم القول فشاركته في سروره وزادت اعتناء بالطفل وانعطافاً اليه لان مجدها سيقوم عليه . ومهما يكن من سمو انعطاف الاباء الى جميع الابناء فانه لايكون متساوياً بينهم الااذا كانوا متساوين في الدرجات واما اذا بدت من احدهم اهمية خصوصية في حاضر أو مستقبل كان الانعطاف اليه ممتازًا

على ان أم الصبي اخذت تعيد وقائع الحلم الى ذاكرتها فرأت في منتهاها مجموع مخاوف واضطرابات تنتهي بقتل هذا الملك فعادت الى رجلها وأخذت تناقشه في ماسمع من معبر الاحلام فاجابها بكل ماوسعته الذاكرة ولكنها لم تطمئن الى هذا التعبير ورأت ان تؤكد الامر من ذي تمتمة ودمدمة يرصد الارصاد

و يستمون التعاويذ لامن رجل كيوسف يقتصر من التعبير على الحقائق دون الاوهام. وما زالت بنات حواء ميالات من يومهن الى الخرافات قلما تسمع عقول الغالب منهن غير الاوهام لانهن قليلات الحيلة في ادراك الحقيقة عاجزات الرأي الا في كيد الرجال

وقد مرت في عرض الكلام الذي مضى اشارة الى رجل ممن يدعون القدرة على تعبير الاحلام اسمه روزوفتش في بلدة فاليفو من اعمال السرب وهو رجل عرف بالاقتدار على التمويه والتضليل وقد استطاع بما اتقنه من ضروب التدجيل ان يجمع اليه قلوب البسطاء من السكان وهم سوادهم الاعظم ولا سيما معشر النساء فكان منزله يمتلىء منهن و يفرغ مرات عديدة في كل يوم هذه تسأله تعبير حلم حار لبها في تأويله وما اكثر احلام النساء وهاته ترجوه الكشف عن شيء أضاعته وما أصيب كفوف بنات حواء وتلك تلتمس منه اسعاف ابنها من بين اصابته وما اعظم اغترار الام بمزايا الابناء وغيرها تطلب اظهار مستقبلها بحساب الرمل او الودع او حساب النجوم وأخرى تضرع اليه ان يخرج من ابنتها شيطاناً سكنها وما كان قلبها ولا قلوب اخواتها لتخلو غالباً من اجواق الشياطين

هكذا كان اعتقاد النساء في روزوفتش فضلاً عن اعتقاد الرجال حتى راجت سوق تدجيله كل الرواج واصبح وهو الحاكم بأمره في ذلك البلد وما حواليه فقلما صار امر لم يشر به او حدث فيه حادث ولم يكن مرجعه اليه. ولا عجب ان تروج سوق الاوهام في صقع كهذا وهو فوق كونه شرقياً ذا استعداد من فطرته و بيئته لقبول الخرافات خلا من كل علم يدرك به اهله الصحيح من أسباب الحوادث وعلل الاسقام فيلتمسون الوقوف عليها من وراء الاوهام

وقد كانت أم الامير المنتظر بين اللواتي يخدعن بهذه الاضاليل فأسرعت الى ذلك الرجل قاصدة ان تقص عليه الحلم لينبئها بتعبيره ذلك مع ان رجلها اوصاها بان لا تسأل احداً في هذا الشأن على مثل ما اوصاه يوسف ولا ان تخبر أحداً بما سيكون. فسارت اليه على عجل مزودة بما استطاعت من المال واستأذنت

Digitized by Google Original from HARVARD UNIVERSITY

في الدخول فدخلت مخترقة صفوف اللواتي يختلفن اليه وهي شامخة الانف على بنات جنسها لانها امتازت عنهن بكونها ام الامير. ولا طاقة للنساء في الغالب على كتمان السر مهما يكن نوعه ولا سيما اذا كان سرًّا كهذا يلتمسن من وراء افشائه الفخر والتيه فهي لم تصبر على ما في الفؤاد وضربت عن وصية الرجل الفصفح وصفح فأخذت تقص حلمها على ملأ من النساء وتذكر ما قال يوسف عنه وكيف انها لم تقنع بتعبيره فسعت اليه من بعد بعيد

وكان روزو يسمع اقاصيص الحلم فيتظاهر بالبشر تارة وبالغم طورًا كأنه يدرك اسرارها لاول وهلة من سماعها حتى اذا انتهت منها سألها وهل كان الصبي مع ابيه حين ذهب الى يوسف وسمع منه ذلك التعبير . فقالت لا . قال وكيف اذن امكن لذلك الدجال ان يتأكد من صحة ما قال وهل لا يزال في البلاد واحد يحسبه قادرًا على التعبير او ادراك امر من الامور وهو يجهل امرًا كهذا بسيطًا وهو ان الصبي يجب ان يكون موجودًا ليحسب نجمه ويطبقه على ماجاء في الحلم عنه. وهل في البلاد واحد يتجاسر الى ذلك الحد وينبئ بخروج السرب عن سلطة الدولة العلية ودخولها تحت سيطرة واحد من الصعاليك. وما هي العلامات التي ظهرت في الحلم ودلت على ان الصبي سيكون ملكا او اميرًا . فان رعاية الماشية لا يؤخذ منها ذلك المأخذ على أي وجه من الوجوه ولعلي أجد من نجم الصبي ما يدل على مستقبل حسن له ولكن ليس مستقبل الملوك والامراء. فاذهبي واحضريه ثم حافظي عليه وبخريه فان الشيطان قدير على إخفاء الحقيقة وقد بدأ منذ قصصت لي الحلم في التردد على الصبي قاصدًا الحيلولة بيني وبينه ليخفي عني ما سيكون من أمره بعد حين. وكانت المرأة قد عينت له اليوم الذي ولدت فيه ذلك الصبي فصبر الرجل طويلاً وهو يكتب ويحسب ويتمتم ويدمدم ثم قال لعلي أجد في هذا الصبي ما يفسر لي شيئًا خفيت اسبابه عني وهو ظهور نجم غريب في الليلة التي برز فيها الصبي الى الوجود فاني أرى الآن شأنًا يذكر عن هذا النجم وعلاقة عظيمة بينه وبين طفلك فاسرعي الى احضاره بدون تأخير.

Digitized by Google Original from HARVARD UNIVERSITY

فقامت المرأة من حضرته وهي تحسب لرجوعها الف حساب وتخشى ان لا يكون تعبير الحلم منطبقاً على تعبير يوسف فتسقط أمالها وآمال زوجها بعد ان أشاعت ما أشاعته وصارت عائلتها مضغة في جميع الافواه . وكان عندها شيء من الذكاء اعاد الى ذهنها ما قاله روزو عن الدولة العلية والامير المنتظر فخشيت ان تسري الاشاعة من فم الى فم ومن بلد الى بلد وتعلم الدولة بان في البلاد عائلة تطمع في تحرير البلاد او تنتظر تحريرها على يد واحد من افرادها فتنكل بها شر تنكيل . وما زالت سائرة وهي تردد هذه الافكار حتى وصلت بلدتها فوجدت ان الاشاعة سبقتها لان بعضاً من النساء كن هناك حين قصت الحلم على الرجل واتبعته بتعبير يوسف وهن كما تعلم اسرع الرواة الى نقل الاخبار . فلما دخلت منزلها قابلها الرجل بشيء من الجفاء لانها خالفت عهده واذاعت الامر في حين انه لم يتأكد بعد ولا يزال الصبي في لفائف المهد . وعلم انها قاصدة أخذه والذهاب الى ذلك الدجال فاستشاط غضباً واقسم ان لا تبرح المنزل لئلا تزيد الاشاعة شيوعاً فيزيد هزء الناس به وينزل من قلوبهم منازل الاحتقار . ولكن المرأة وهي صعبة المراس شديدة التمسك بما ترى بعيد عليها ان تحترم قسماً او تخشى تهديداً فهي اصرت على وجوب الذهاب قائلة قد نسمع من الرجل ما يبطل هذه الاشاعة ولئن سكتنا زادت جسامة واتصلت بولاة الامور فلأذهبن مع الصبي ولتكن انت معنا فاني أرى الامر عظيماً يدعو الى شدة الاهتمام . وما زال الرجل يحاول اقناعها بالامتناع وهي تحاول اقناعه بالذهاب حتى غلب رأيها رأيه وما كانت هذه اول مرة اناخ فيها أبناء آدم لبنات حواء

وكان روزو منذ سمع ذلك الحلم وتعبيره مجتهدا في الايقاع بيوسف لانه رآه مزاحماً له في صناعته خائفاً ان يجمع اليه بعض القلوب فيطلع الناس على ضعفه وتدجيله . ولهذا ما تم ان سمعه حتى ذهب تواً الى الحاكم وقص عليه الامر كما سيجيء قائلاً ان في البلاد رجلا يعد الافكار للقيام بثورة عامة يتحرر من بعدها الشعب ولئن ترك على حاله كانت العاقبة وخيمة على الدولة العلية . ثم وجه انظاره

اليه وقال ان الامير المنتظر حسبما قال يوسف سيكون اليوم بين يدي فلنن حضرت وسمعت من ابويه ماقيل عنه علمت اخلاصي من نحو الدولة العلية واعتمدت على ماأقول. وقد تقدم ان صناعة الكشف عن أمور الغيب كانت عامة في تلك البلاد لاعتياد أهلها على الاوهام والخرافات واعتقادهم الراسخ في صحة الاحلام ولهذا كانت المزاحمة بين اربابها أشد منها بين غيرهم من أرباب الاعمال. وكان للدسائس والوشايات محل رفيع في تلك البلاد فثمرت هذه الوشاية وقام لها الحاكم وقعد واستعد لكشفها لعله ينال منها جزاء الاخلاص

هذا ولم يكن الا قليل حتى كان الصبي وابواه بين يدي روزوقتش وذلك الحاكم ولم يكن احد يعلم بما دبر الرجل من تلك الوقيعة فقصت المرأة حلمها واشارت الى شيء مما قال يوسف في تعبيره فكان روزوقتش يلتفت الى الحاكم ويسلفته الى ماتقول حتى اذا انتهت من كلامها لم يبق ريب عند ذلك الحاكم في جناية يوسف على عرفه لانه نطق بلسانه قولاً اذا تم كان مخالفاً لمصلحة الدولة او انه ينبه الافكار عند بعض الوطنيين الى تحرير البلاد . وعليه حفظ الامر في نفسه وبدأ يدبر مكيدة يوقع فيها ذلك الشيخ المسكين ولا سيما لانه كان يعلم ايضاً من قبل انه حر الفكر لا يعرف التملق ولا الرياء وفي طبيعه ميل الى كراهة الظلم والاستبداد اللذين اثقلا كاهل تلك البلاد

على ان الحاكم رغب في الوقوف على تعبير الحلم قبل ان يترك روزوقتش قائلاً في نفسه لعل في الامر صحة أو بعض الصحة فسأله ان يدقق في تعبيره لان فيه أهمية ظاهرة. وكان والد الصبي يرى الحاكم وروزوقتش ينفردان معاً ويتحادثان كلما سمعا شيئاً من تعبير يوسف فداخله الريب في امرهما ولا سيما لانه رآهما جاعلين لحلم امرأته أهمية خصوصية فقال في نفسه ماعسى ان يكون ذلك الانفراد . وعلم بعد هذا ان الرجل الذي مع روزوقتش هو الحاكم فزادت ريبته وأيقن ان المسألة دخلت في دور جديد يستحق الحرص الشديد .

وقصد والد الصبي ان يقوم فمنعه روزوقتش ريثما يعبر الحلم فقال له اني اراك

قلقاً فربما بدا لك في وقائع الحلم أمر مكدر لا تريد اظهاره لنا فاذا كان الامر كذلك فنعم ماتفعل لاننا قوم لانصبر على مكاره حاضرة فكيف بمستقبلنا البعيد ·
فقال روزو لعل الذي الهمك الصبر حين سمعت تعبير يوسف يلهمك اياه الآن ·
فسكت الرجل واستعد لسماع التعبير وهو يعلم انه سيكون بعيداً عن الصحيح · وبعدان قرأ روزو الارصاد واستدعى الجن وتوابع الارض وبخر واستعوذ واختفى وظهر وتمتم ودمدم وحسب نجم المولود قال ان الحلم غريب وتعبيره اغرب · قالت امه وكيف ذلك : قال فان ابنك سيكون رئيساً لعصبة لصوص بعد ان يحترف حرفة ابيه وهي رعاية الماشية ولا يكون أميراً ولا وزيراً خطيراً · قالت اذن وما هي تلك الغمامة البيضاء التي انزلته في بحر من الدماء وتلك المصيبة التي حلت به في منتهى الحلم · قال أما الغمامة فنعمة ترفعه من حرفة اللصوص الى الدخول في جند جلالة السلطان وقد يكون له شأن بين الجنود فيخوض غمار المنايا ويتعرض لكثير من الاخطار ولكنه يخرج منها كلها سالماً ويطول عمره الى اكثر مما كان منتظراً ولا ينال مجداً ممتازاً ولا رفعة خصوصية فاني رأيت نجمه لم يلبث حتى أفل بعد ان ظهر لامعاً · قالت ولكن في الحلم اموراً أخرى كثيرة تخللت تلك الوقائع فهل لها من تعبير · قال ليس لك ان تسأليني عن غير ما سمعت ولكني اوصيك بان تأخذي جانب الحذر من شيطان يلتف حوله منذ اليوم ويحاول سكناه وتغيير مجرى التقادير · ثم اظهر لها حجاباً كله طلاسم وقال ضعيه اذا شئت تحت ابطه ولا تنزعيه منه طول الحياة فانه الكفيل وحده بطرد ذلك الشيطان الخبيث ووقايته من عيون الحساد · وباعها ذلك الحجاب بمبلغ من المال هو معظم ما كان معها وما كان في بيتها ولم تأسف عليه لاعتقادها انها انما اشترت به ابنها هذا العزيز ووقته شر الحساد والشياطين · وكان رجلها جالساً في ذلك الوقت غارقاً في بحار الافكار لايبدي معارضة لما تفعل امرأته مهما كانت مخافته لاعتقاده ان شيوع هذا التعبير الاخير مما يحول انظار الناس عنه ويضرب على الاشاعة الاولى فينجو مما قد تنتجه من فادح الاخطار

وخرج ابوا الصبي من عند هذا الدجال فاخذ الرجل يعنف امرأته قائلا انك اوقعت يوسف في ورطة قد لا ينجو منها وهو الرجل المعروف بالفضيلة والتقى ولم يكن ايستحق منا غير المعروف لانه انبأنا بالصحيح الذي لاريب فيه وزف الينا احسن انواع البشائر فعلمنا من مستقبل عائلتنا ما اعلى درجتنا ورفع رأسنا فوق الرؤوس. وقد رأيت الآن كيف انه انبأ بان سيكون ابننا لصاً بل رئيساً لعصبة لصوص فلئن ذاعت هذه الاشاعة كثر احتقار الناس لنا وتوجهت اليه الانظار من صغر وقد كنا في غنى عن هذا كله لولا انك اصريت على رأيك واعتقدت صدق ذلك الدجال. فاجابت امرأته خفف عنك هذا الغضب فان الحق في جانب روزوفتش وليس في جانب يوسف لانه من اين لنا ان نلد امراء ونحن فقراء بل أين لجورج ان يتولى الرئاسة على هذه البلاد وهي في قبضة الدولة التي تخشاها الدول العظام. وهب انه نال ماقال يوسف عنه فانه لا يأمن عاقبة الانتقاض عليه وطموح الطامعين في الملك اليه وليس افضل للانسان من ان يعيش ناعم البال وان يكن فقيرا. ولو انه شب وسمع بهذه الاشاعة عنه لم يلبث حتى يطمع في المحال ويحاول تأييد مايتحدث به الناس فيوقع نفسه في شراك الاهوال. فنظر اليها الرجل نظرة المتحير قائلا عجيب منك تفضيل اللص على الامير. وهل خفي عنك ان اللص معرض لاخطار واهوال لا يتعرض لها طامع في الامارة والملك فاذا اشفقت عليه ان لا يتعرض للطمع في الترأس على هذه البلاد وتحريرها من ايدي الغرباء فلماذا لا توجهين اليه مثل هذه الشفقة اذا شب ومال الى حرفة اللصوص. او لا تعلمين ان الموت في سبيل الارتقاء وتحرير البلاد موت شريف يجب ان يسعى اليه الصادقون في الوطنية وذوو النفوس الكبيرة والطامعون في الرفعة والعلاء

قال على اننا لسنا الآن في شيء من هذا وانما نحن في الرجل الذي تعرض لخطر الموت بسببنا وما أذنب ذنباً. فقالت وهب ان قوله الذي قاله لنا يحسب خطأ فهل هو جناية كبرى الى ذلك الحد يستحق عليها عقاب الموت. فقال نعم لان ذلك يحسب خروجاً عن الاخلاص للدولة وسعياً الى اقامة ثورة عامة بين الشعب يقصد

بها تحرير البلاد وويل للذين تثبت عليهم هذه الجناية فان جرمهم يكون أعظم من ان يقبل الغفران . وما زالا على هذا الكلام حتى وصلا الى منزلها وفي نفسيها افكار كثيرة يرددانها وقد كانا الى ماقبل ذلك خاليين من كل هم الا ان يكون هم المعاش

الفصل الخامس

يوسف بين يدي الوشاة

نقاء الضمير

وبينما كان يوسف جالساً في منزله مطمئن البال لاهياً بمعالجة صحته وقد انهكها الشيب جاءه رسول من قبل ذلك الحاكم يأمره بالحضور . فقال في نفسه ما عسى ان يكون هذا الطلب وليس لي علاقة بقضية ولا بشيء آخر يتعلق بسياسة البلد وحكامه . ولكنه امتثل للامر وسار الى الحاكم حتى وقف بين يديه متكئا على عصاه ولم يسمح له بالجلوس اكراماً لشيبته ورفقا بضعفه على ما كان ينتظر . ورأى يوسف من نظرة الحاكم انه استدعاه لامر ذي بال وليس لشهادة بسيطة او استشارة في شأن من الشؤون فأعاد الى ذاكرته اكثر ما مر في حياته من المسائل المتعلقة بالبلد والدولة فلم ير فيها ما يستدعي هذا الطلب الا ان يكون ذلك الحلم الذي فسره في ما تقدم ولكنه لم يحسب له حساباً لظنه ان حلماً مثله قد يكون وهماً لا يعتد به احد اعتداداً رسميا . وكان يوسف على ما تقدم القول رجلاً جمع في نفسه صفات المروءة والفضل التي يمكن لفضلاء الدنيا احرازها فكان مطمئن البال في نفسه شأن كل طيب السيرة ونقي السريرة فانه لا يخشى تبكيت الضمير ولا يضطرب في نفسه اذا قام عليه دعاة الزور والبهتان . على ان يوسف كان مخطئا في ظنه لان الذي يريد الايقاع بسواه لا يعدم علة ينتحلها ضده ولو من الهواء ولئن كان طيب السريرة مطمئن الضمير لا يخشى شراً من دعاة البهتان فانه لا يعدم

Digitized by Google
Original from
HARVARD UNIVERSITY

قوماً ينغصون عيشه ويرمونه بما ليس بحق ولا سيما اذا كان ضعيف الجانب عاجزا عن حماية نفسه من صدمات الظالمين فانه يكون هدفا لسهامهم دائما مهما اعتزل او عاش عيشة الزاهدين . كذلك كانت الدنيا من بدء عمرانها وعلى هذا النسق ستدوم الى منتهى الايام ولا سيما في الوسط الذي يغلب فيه الظلم على العدل وتحل الظلمة محل النور

مقام المشورة

ردد يوسف ذلك في نفسه فلم تكن الا بضع دقائق سأله الحاكم من بعدها سؤالات ظهر اولاً انها ليست من تلك الدعوى في شيء فاجاب عليها بما فطر عليه قلب الفضلاء من البساطة والاخلاص . وكان اول ما نطق به الحاكم قوله من انت يا هذا وما عملك . فاجابه أما أنا فيوسف وأما عملي فافتاء بعض الناس بما يستفتونني فيه . فقال الحاكم وما هي انواع الفتوى التي يستفتيكها الناس فما سمعت الى اليوم ان بين الحرف حرفة من هذا القبيل . قال يوسف اذا لم يكن لهذه الحرفة وجود عند الناس فهي موجودة عندي ولا اظنها الا اشرف الحرف أو هي من أشرفها لانها اذا صحت كانت خير هداية للناس في ما يحتاجون اليه من أمور الحياة . فقد قيل ان الدنيا عمل ونصف العمل مشورة والنصف جد ونشاط فكأنما الذي يحترف هذه الحرفة عن حق صريح يجمع في يديه نصف الدنيا أو أعز مطالبها . وا كثر الذين تراهم يشكون الآم الحياة أو يخسرون أموالهم و يضلون سواء السبيل انما هم قوم ساءت مشوراتهم ولئن وجدوا مختبرا يهديهم أقوم الطرق ما وقعوا في ما يشكونه ولا أصيبوا بسوء . فاذا كانت حرفة كهذه كافلة منع هذه الاضرار فضلا عن اظهار شيء من غوامض الاسرار فا كرم بها من حرفة كثيرة النفع وا كرم باصحابها اذا كانوا من الصادقين

قال الحاكم ولكن هل يدخلك من هذه الحرفة دخل تعيش منه . فأجاب اني اعيش عيشة البساطة معتزلا عن الناس فلست في حاجة الى دخل من هذه الحرفة ولا من سواها ويكفيني القليل الذي جمعته في صباي ارجع اليه كلما اشتدت بي الحاجة

Digitized by Google Original from HARVARD UNIVERSITY

وأعيش منه وان كنت اعلم ان لاجناح عليَّ اذا عشت من هذه الحرفة لانه اذا كان العامل بيده مستحقا للاجرة فكم يكون العامل بعقله وهو الذي يفرغ من مادة قواه اسمى ما في هذا الكون وأغلاه . ولكن ليسمح لي الحاكم بأن التمس منه ايضاح السبب في القاء مثل هذه السؤالات واستدعاء شيخ فان مثلي للامتثال بين يديه وهو لاشيء له ولا شيء عليه . فاجاب ليس لك ان تلقي مثل هذا السؤال وعليك فقط ان تجيب على كل سؤال . فقال لك الأمر فاسأل ما انت سائل

قيمة الحرية

متى تجوز اقامة الثورات

ايهما أثمن النفس أم الحرية

فقال الحاكم اذا كانت حرفتك الاستفتاء فاني مستفتيك الآن في شيء وهو هل يجوز التحريض على اقامة ثورة في الشعب يقصد منها تحريره اذا كان راضخاً لاحدى السلطات أو تنبيه الاذهان الى شيء من قبيلها على أي وجه من الوجوه ؟ فلما سمع يوسف هذا السؤال علم ان وراءه اكبر منه وان في الامر مكيدة وان جهل سببها . وكان حر الضمير كثير الميل الى اظهار مايرتأيه فوقع في ارتباك عظيم لان الجواب الذي كان يحضره على هذا السؤال كاف وحده لالقاء القبض عليه والتمثيل به لخروجه عن روح السياسة المرعية في البلاد . فاجاب يوسف اذا لم يكن بد من الجواب على هذه السؤال فليسمح لي مولاي ان أسأله أيضا عن ظروف ذلك الشعب وحالة السلطة التي يخضع لها ليتسنى لي القاء الجواب الصريح . فقال الحاكم ليكن الشعب كيفما كان ولتكن السلطة على اية حالة من الحالات فهل يسوغ لاحد القاء مثل ذلك التحريض أو تنبيه الناس الى حركة يتبعها هدر الدماء . فقال يوسف اما التحريض على أمر ينتج منه هدر الدماء فضرة لاتجوزها العقول الا في حالات خصوصية

قال الحاكم وقد بدأت المكيدة في الظهور وما عسى ان تكون تلك الحالات التي يجوز فيها اثارة الثورات. فاجاب يوسف اذا كنت قد وضعتني موضع الثقة في الاستفتاء ولم يكن بد من النطق بما في الضمير فاعلم ان اعز ما في هـذه الدنيا الانسان واعز ما في الانسان نفسه واعز من هذه النفس ان تكون حرة في ذاتهـا وفي الوسط الذي تعيش فيه. وعليه فان الحرية اعز ما في هذه الدنيا ولا شيء يعلو عليها حتى النفس نفسها . ذلك لان النفس لا تطيق سجنـين سجن الجسم وسجن الاستعباد ولا سيما اذا كان مصحوباً باستبداد. فان نفس الانسان كانت قبل ان تسجن في جسمه طليقـة حرة في فضاء الاكوان الفسيح لا تتقيد بقيد ولا تقف امام رغبتها عثرة في الوجود . ثم هبطت من محلها الارفع وذلت اذلالا وبدلا من وجودها في فضاء لا اول له يعرف ولا آخر يدرك حجزت في ذلك السجن الضيق من جسم الانسان. فليس أصعب عندها من ان تسجن في سجن آخر أشد ويلاً مما تلاقيه في ذلك السجن وهو سجن العبودية من نفس أخرى لا تختلف في الاصل عنها. لذلك ترى تواريخ الناس من قدم مشحـونة بالحروب واكثرها ان لم يكن كلها راجع الى الاجتهاد في المحافظة على هذه الحرية عند الجانب المدافع او محاولة سلبها عند الجانب المهاجم. ولو ان الامم التي خضعت لسواها بعد الحروب القديمة الهائلة رضيت بان تسلب منها هذه الحرية الغاليـة ما جرد احد سيفاً عليها ولا امتشق حساماً بل اكتفى بدعوتها الى الخضوع فتخضع بدون قتـال. والواقع ان كل ما في هذا الكون من غير الخلائق العاقلة سائر ايضاً على هذا المبدأ الطبيعي الذي لا ينقض وهو الرغبة في الحرية ومحاولة نيلها منذ وجوده الى يوم انحـلاله. فانك تراه معمولا به بين الحيوانات الغير الناطقة والطيور والدبابات من أسماها الى احقرها ولا سيما التي ذاقت طعم الحرية منها في وسيع القفار او فسيح الفضاء. فالاسد الذي قد تمر عليه في القفر ايام كثيرة لا يجد فيها فريسة تسد نهمه اذا وقع في فخ الصياد وسجن ولو في أفسح السجون وأعطي له في كل ساعة ما يشاء من الاكل لا يرى هذه النعم كلها الا نقماً في جنب تلك الحرية وما فيها من جوع وشقاء.

والعصفور الذي يسطو عليه اعداؤه فيخربون عشه في كل يوم وقد تمر عليه ساعات لايجد فيها ما يسد رمقه اذا حصر في قفص ولو كبير واعطي من الحب او العشب فوق مايحتاج اليه وجد ذلك كله باطلاً في جنب حرية كان يتمتع بها وهو طليق الجناح. كذلك الامر في عالمي النبات والجماد فان كل مادة فيهما مركبة من جواهر تحاول اجزاؤها الانطلاق فارة الى وسيع الفضاء ولكن تمنعها سنة طبيعية تعرف بسنة الجذب فتنجذب بعضها الى بعض ثم هي تتدافع طالبة التخلص من ذلك الاستعباد ولا تزال على هذه الحال من كر وفر وهي تتنازع البقاء بين قوتي الجذب والدفع او بعبارة اخرى بين قوتي العبودية والحرية بدون انقطاع

قال يوسف فاذا كانت هذه السنة طبيعية سائرة في كل الكون فاحر بها ان تنطبق بالاكثر على الانسان لانه مجموع عواطف تشعر وتتأثر وذو رغائب يرى بعجزه عن تحصيلها منتهى التعاسة والشقاء. وقد قيل ان السعادة هي ان يملك الانسان مايشتهي فاذا صح هذا فان السعيد هو من كان مطلق الحرية والتصرف لينال مايريد اذا كان عن عقل وروية واختبار صحيح . لهذا كانت السعادة في الكون اسماً بلا مسمى لان الانسان مابرح عبداً لنفسه اذا لم يكن عبداً لسواه من القريبين أو من البعيدين. ولا يخفى ان ويلاً اهون من ويلين فيكفي ان يكون الانسان عبداً لنفسه فقط لاعبداً لها ولسواها من النفوس الامارة بالسوء والاستبداد

تنازع الواجب الحق مع الصالح الشخصي

قال الحاكم سمعت ماقلت فاوجز ولا تبعد عن الموضوع الذي نحن فيه وكل ما أطلبه منك ان هل يجوز التحريض على الثورات وهدر الدماء او تنبيه الاذهان اليها. فحزن يوسف لانه رأى انه انما يلقي درره امام من لا يعرف لها قيمة ولا يحسن التقاطها ولكنه رأى كظم الغيظ حكمة في مثل هذا المقام. فقال له ليسمح لي الحاكم ان اقول له قولاً واحداً وهو انه كان في استطاعتي ان اجيبك على سؤالك بكلمة واحدة لاأجد من بعدها مسئولية وهي ان التحريض على الثورات

أمر لايجوز في حال من الاحوال. ولكني رأيتك تضعني في مقام لايجوز معه اخفاء مافي الضمير وهو الاستفتاء فاذا كنت لاتريد مني حرية في المقال فانبئني ماذا تريد ان اقول لاقوله بغض النظر عما اعتقده شخصياً والا فاني مسترسل في قولي من حيث لأريد ان يكون عطلاً من الادلة والبراهين امام شخص مثلك اعتقد انه يجب ان يكون واسع الصدر رحب الجناب راغباً في اسناد الحقائق الى ادلة ترتاح اليها الالباب . وما كان سؤالك بسيطاً لا يستحق غير الايجاز بل انه من اكبر المسائل التي يجب ان تشتغل فيها الاذهان لان له أعظم علاقة بسياسة الشعوب وعليه وحده يتوقف كل ما يسمع في تاريخ البشر من أوقات السلام وازمنة الحروب . وطالما اساء الناس الاجابة عليه فقاتلوا بعضهم بعضاً من حيث لم يكن موجب للقتال او استسلموا بعضهم لبعض في الوقت الذي لايحسن الاستسلام

ورأى الحاكم من أقوال يوسف مايستحق الاعتبار وان غلب عليه حب الايقاع طمعاً في القاء دسيسة ينال منها اليسار فانزله في قلبه منزلة الاحترام وسمح له بالجلوس الى حضرته والاسترسال في قوله . وطالما كانت مكانة الشخص داعية الى احترامه حتى من اعدائه الطامعين في الايقاع به ولكن طالما كانت الاغراض ايضاً داعية هؤلاء الاعداء الى ايذائه اذا كان في نفوسهم خبث يدعوهم الى جعل الصالح الشخصي فوق الواجب فيكون امامهم كالطير الجميل امام ذوي الطمع والشره يستحسنون منظره ويحلونه في قلوبهم محل الاعجاب ولكنهم لايلبثون حتى يذبحوه ليأكلوه

كذلك كان الواقع في موقف هذا الاتهام . فان الحاكم رأى من يوسف علماً يكسبه المهابة وحرية تلبسه الوقار وطلاقة تجذب اليه القلب وشيبة يرفق بها الفؤاد فاندفع بالجزء القليل الباقي عنده من الانسانية البشرية الى احترامه احتراماً ظاهرياً حتى اذا انطفأ نور ذلك الجزء بعواصف المطامع الشخصية قامت هذه المطامع ساعية الى ايذائه سعي أولئك الطامعين في ذبح الطير الجميل . وذلك انه

Digitized by Google Original from HARVARD UNIVERSITY

تعود الانتفاع بدس الدسائس ولا سيما ما كان متعلقاً منها بسياسة البلاد حتى يقال انه ساهر على ما فيه صالح رؤسائه كما سيجيء . وهو شأن ضعيف الرأي الذي لا يستطيع ان يوجد لنفسه مركزاً بقوته الذاتية واقتداره الشخصي في ما يفيد فائدة حقيقية فيسعى الى تحصيله بطرق أخرى أسهلها عند امثاله طرق أبواب الدسائس والوشايات ولا سيما اذا صادف أذنين تسمعان

عود الى البحث في الحرية

ولكن لندع ذلك الآن وما كان يجول في خاطر يوسف ذلك الحين ولنعد الى بقية ما قال عن هذا الموضوع الخطير . فان يوسف لما اطمأن الى حاكمه عاد الى ما كان فيه من شرح الحرية والظروف الواجب اتباعها في تحصيلها فقال : يذكر سيدي الحاكم ما انتهيت اليه من قولي أن اعز شيء على النفس ان تكون حرة خالية من كل قيد . على ان هذه النفس قد تستكين للاستعباد اذا غابت عنها الحرية زماناً طويلاً فتصبح وهي جاهلة طعم الحرية الا قليلاً او انها تنال من الضعف الناشيء عن العبودية ما يعجزها عن تحرير ذاتها . كالوحش الذي يقتنصه الصياد ويضعه في قفص فانه يكون في أول امره كثير الميل الى الحرية والرجوع الى ما كان فيه كما تقدم القول ولكنه اذا ظل في سجنه زماناً طويلاً وتزاوج فيه وتوالد ضعف هو وشب نسله ضعيفاً وقد لا يدري هذا النسل ان أباه كان طليقاً أو ان وراء سجنه هذا عالماً ملؤه الحرية ولئن علم بذلك اقعده ضعفه وسلاسله عن تمنيه والطموح اليه

فالشعب الذي يخضع لسواه زماناً طويلاً يكتسب من الضعف ما لا يؤهله للحرية وقد يجهل مسالك هذه الحرية أيضاً لانه لم يطرقها فلا يتمناها يوماً أو تخطر له في بال . ولئن اعطي قليلاً من الحرية ظن في أول أمره أيضاً انه لا يزال سجيناً كالعصفور تسجنه مدة في قفص فاذا فتحت باب سجنه ظل راقداً موضعه ولم يفر ظناً منه ان باب النجاة من العبودية لا يزال مقفلاً دونه فلا يستطيع الفرار . وقد يكون من الحكمة ان لا يطمح الشعب في ضعفه الى الحرية لانه يكون حينئذ طفلاً في

Digitized by Google Original from HARVARD UNIVERSITY

مهد العمران تؤذيه الحرية كما يؤذي الكبير الاستبداد . وطالما كان استقلال الشعب الضعيف الجاهل معدوداً استقلالاً مائتاً فمثل هذا المائت لا يحيا الا بالاستعباد لمن هو قوي حكيم حتى اذا اكتسب الشعب منه قوة أمكن الانتفاع بها وتحويلها الى استقلال حي صحيح

فاذا ثبت هذا ثبت ان للحرية ظروفاً وللعبودية مثلها . فاذا كان الشعب جاهلاً كله همجياً كان من المفيد ان يبقى راضخاً للسيطرة التي ملكته حتى اذا اكتسب منها في المستقبل قوة استطاع ان يحارب بها هذه السيطرة نفسها ويقاتل عدوه بسلاح عدوه وينال الاستقلال . وأما اذا كان بين الشعب الجاهل كثيرون من ابنائه المستنيرين الذين عرفوا كيف ترتقي الشعوب وفي استطاعتهم ان ينهضوا بانفسهم مع ذلك الشعب فليس من الحكمة ان يرضوا بما هم فيه من الاستعباد لئلا يطول على شعبهم زمان العبودية فلا يسعهم الا الرضوخ لها ودوام الاستسلام . نعم ان ذلك قد يفضي الى ثورات دموية تروح فيها الارواح والاموال ولكن خير لهذه الروح التي ليست هي الا من جوهر الحرية وعلى مبدأها وجدت منذ نشأتها في هذا الكون وفي ماقبله ان تغادر عالماً لاتنال فيه استقلالها من ان تستميت تحت رق العبودية ولا سيما اذا كانت عبودية جائرة

الى هنا وقد انتهى من كلامه عن الحرية فقال الحاكم فهمت الآن ما قلت وعلمت الظروف التي يجب على الشعوب ان تحاول فيها التخلص من الاستعباد الذي هي فيه . فاذا كان الامر كذلك ففي أي نوع من تلك الشعوب تضع شعب السرب وهل تحسب انه من الشعوب التي يجوز لها محاولة الاستقلال . فاجاب يوسف ليسمح لي سيدي الحاكم بان اقول ان سؤالاً كهذا يعد خارجاً عن حدود الاستفتاء . قال هذا لانه ادرك الآن ان في هذا الاخذ والرد دسيسة كبرى حيث كان عالماً بمجرى الاحوال وكيف ان الحكام ينتهزون اقل فرصة من هذا القبيل ويبنون عليها القصور العالية وان تكن وهماً وخيالاً . فقال الحاكم ولكني أرى هذا السؤال داخلاً ضمن تلك الحدود لانه اذا كان امكنك ان

Digitized by Google Original from HARVARD UNIVERSITY

تذكر كل تلك المبادئ عن الحرية وتلقي عنها الشروح وتضرب الامثال فليس اسهل من ان تطبق ذلك على البلاد التي انت فيها لانك من اعلم الناس بها . وقد قيل ان العلماء اكثر الناس حرية في المقال وان أدى بهم الى ما لا تحمد عقباه لانهم اكثرهم معرفة بقيمة الحرية التي شرحتها الآن وانت على ما يظهر تعد من اوائلهم فلا تمتنع عن الرد ولا تستسلم لحبائل الخوف . فاجاب يوسف انك صادق في ما قلت عن الحرية وقدرها في نظر العلماء ولكني لست منهم ولا انا ادعي القدرة على الاندماج في وسطهم لاني لا ازال بالنسبة الى بحر العلم الواسع طفلاً يلعب على الشاطئ كما يقول احد العلماء . وهب اني منهم فان للحرية حدوداً كما قلت ولا يجب ان يتخطاها أحد الا لضرورة قاضية ولا ارى محلاً لهذه الضرورة في موقفي الآن . على ان الحاكم اكثر من التشديد قائلا ولكني اريد ان اعرف منك ما ترى في بلاد العرب وهل هي من البلاد التي يجب ان تفك قيود استعبادها وتخرج الى الحرية المنشودة أم كيف . ولما رأى يوسف هذا الالحاح وعلم انه لابد له من الاجابة على هذا السؤال الخطير ثم شعر بان وراء الاجابة عليها ما وراءها من المسئولية السياسية الكبرى طلب الى الحاكم ان يسمح له ببضع دقائق ليتامل في الامر فاعطاه السماح

ثم تركه الحاكم الى قاعة اخرى فوضع يوسف يده على جبهته وساح في بحار الافكار لعله يرى منفذاً من المسئولية الكبرى التي تنتظره فحار به في ذلك ووقع بين عاملين عظيمين اخذا يتجاذبانه تجاذباً مرا وهما عامل النجاة والابقاء على الحياة مع الكذب ومخالفة الضمير وعامل التصريح بما في الفكر مع التعرض للاخطار . وكان مثله في هذا مثل الشهداء الذين كانوا يقفون امام الحكام الظالمين في ما مضى من الايام فيقعون بين ان يسلموا في حياتهم و يصرحوا بما في الضمير و بين ان يطاوعوا أولئك الظالمين في ما يريدون و يخالفوا ضمائرهم لينجوا من قصاص الموت . وارتبك في نفسه ارتباكاً عظيماً حتى كاد يصل الامر به الى حد الذهول لانه كان على مبادئ راقية تضطره الى النطق بالحق ولكنه كان

Digitized by Google　　Original from HARVARD UNIVERSITY

يعلم انه حين ينطق بهموتاً يموت . فتصور الحرية ملاكا جيلا يرفرف بجناحيه اللطيفين من عل ويخص بعض البشر بنور الحرية والاستقلال في الفكر والعمل ويترك البعض الآخر في ظلمة العبودية والاستبداد فرفع اليه نظره وصرخ قائلاً الى متى تبعد ايها الملاك الجميل عن هذا الشعب المسكين وهو لا يزال بشراً تؤلمه مظالم الظالمين . ألا نظرة منك الى ذلك الحاكم وامثاله ليعلموا انه اذا كان للحكومة حق التصرف في الاجسام وانواع الحطام فليس لها حقه في العقول وما يدور فيها من الافكار والضمائر وما تنطوي عليه من الاعتقادات . أليس في بلاد السرب من البشرية مافي تلك البلاد التي خصصتها بنعمة الحرية . أو لم يكن من الافضل ان لا يوجد في هذه البلاد وكل بلاد أخرى منيت بظلمة الاستبداد فرد واحد يعرف قيمة الحرية ليتمسك بأهدابها لان معرفته بهذه الحرية توقفه على قدرها وتدعوه الى التمسك بها وهنا كل الويل عليه في وسط كله فساد واستبداد . نعم اني كنت اتمنى ان لا اعرف شيئاً من الحرية الفكرية لاني لا استطيع الانتفاع بهذه المعرفة ولئن تمسكت بها وقعت في ما انا واقع فيه . وخير للمريض الذي يعيش في بلدة لا اطباء فيها ان لا يعرف بان في الدنيا اطباء يستطيعون تخفيف آلامه لانه يموت حينئذ مستريحاً عالماً انه عمل كل ما يمكن عمله ولم ينجح . وخير للرجل ان يجهل الحرية ولا يذوق لذاتها اذا كان في وسط لا شيء فيه من الحرية لانه اذا تلذذ بنوع من اطعمتها التمس مثله بعد فلا يجد و يعيش كاسف البال . ولكن كيف يصح هذا الحكم وكيف استسلم لافكار الذهول . فان الحرية حرية يجب ان لا يقيدها قيد ولا ترتبط بظرف لانها نبات يصلح زرعه في كل أرض . بل هي بالنسبة الى عالم الاستبداد الوسيع كنور شاهق يصدر عن قنديل صغير الحجم ولكنه ينير مساحة واسعة من الظلمات . فاذا كانت الحرية التي تدور بين جوانحي كائنة في فرد حقير مثلي فلا بدع ان ظهرت اليوم في ظلام هذا البلد العظيم لأنها قد تنيره كله فيخرج من الظلمة الدامسة الى النور العجيب . ولئن اظهرت امام ذلك الحاكم مايدور في

خلدي من الآراء الحرة عن هذه البلاد ونلت ماأتوقع من القصاص كان هـذا القصاص شهياً على قلبي لانه لايمكن ان تضيع شهادتي عبثاً بل لابد من ان تسمع ولو من واحد فيبشر بها بين الناس ويحول تيار افكارهم الى الحرية فلايلبثون ان ينالوها وا كون بذلك أديت اجل خدمة للبلاد

وبعد ان انتهى يوسف من هذه المناجاة صمم على ان يصرح امام الحاكم بما في ضميره وهو انه يحسب بلاد السرب داخلة ضمن البلاد التي يجوز لها طلب الاستقلال وان خالف مصالح الدولة وعرض نفسه لخطر الموت. وكأن دافعاً داخلياً دفعه الى طلب الحرية فتخيلها انساناً بعيداً جداً عن بلاده فصرخ منادياً اياها وكان صوته عالياً سمعه الحاكم من وراء القاعة فهرول اليه وقال اني اسمع هنا صوتاً غير اعتيادي فهل لك حاجة الى انسان تناديه. فاجاب كان لي حاجة الى هذا الانسان ثم اني اخطأت اذ ظننته حياً فاسفت على هذه المناداة . وكان يوسف يقول هذا القول وفي منظره مايدل على الاندهال فرأى الحاكم ان لا يناقشه فيه ولكنه عاد الى سؤاله عما رأى في المباحثة الاولى فاندفع يوسف يقول:

تسألني أيها الحاكم عما أرى في حالة السرب وهل هي من الحالات التي يجوز فيها طلب الحرية والاستقلال. وقد فطنت الآن الى ان لك كل الحق في هذا السؤال وان لم تحسن عاقبة الاجابة عليه على ما انتظر . ولكن اذا كانت الحرية اسمى ما في هـذا الكون على ماقلت فاني احتراماً لها اذ كر لك ان بلاد السرب في مقدمة البلاد المحتاجة الى نعمة الحرية والاستقلال . واذا كنت أيها الحاكم من المنصفين فلا أخالك الا معي في هذا التصريح لان لك بلاداً تريد لها أنت ماأردته انا لبلادي ومن العدل والحكمة ان يحب الانسان لسواه ما يحبه لنفسه . نعم ان التصريح بذلك قد لاينطبق على صالحك ولكنها الحقيقة يجب ان تقال مهما يكن من نتائجها . واعلم اني لاأطمع في سعي لاني مكتف بما أنا فيه فلا أخشى تقييداً قد ينتج عن هذا الجواب بل لست أطمع في حياة وقد نلت منها فوق المراد. وربما أدهشك ماتسمعه مني أيضاً وهو ان أعظم مايدعوني الى التأسف

والتحسر ما تراه من ضعف في يمنعني عن ان اتبع هذا القول بعمل ظاهر غير هياب. فان السربيين لا يزالون بشرا يؤلمهم ما يؤلمكم يامعشر المالكين ولهم ما لكم من نفوس تتوق الى الحرية والبقاء في ارضها متمتعة بالاستقلال وليس لها اليوم ما للنفوس الحرة من الوسائل الحيوية التي يتوقف عليها ارتقاء الشعوب

واقعة دموية في قاعة التحقيق

وبينما كان الحاكم ويوسف يتناقشان في هذا الموضوع كان اثنان يراقبانهما من وراء الجدار ويسمعانهما حرفاً فحرفاً فيعجبان لاقوال يوسف ويتمنيان لو حدث من الحاكم شيء ضده فينتقمان له شر انتقام. ولم يكن أحد يعلم بوجودهما ولا كان يوسف يعلم ان له في هذه الخلوة القهرية انصاراً. فلما انتهى يوسف من كلامه المتقدم فرح الحاكم في نفسه فرحاً لا يوصف قائلاً لقد امكنني اظهار اخلاصي للدولة والملة فسأبلغن ماقال يوسف الى الرؤساء وأهولن فيه تهويلاً ليعلموا اني قائم بالخدمة خير قيام. ثم خرج الى الخارج واستدعى ثلاثة من الجنود وامرهم ان يقبضوا على يوسف حين يشير اليهم فأذعنوا للامر ووقفوا خارج الباب في الانتظار. ودخل الحاكم الى يوسف وقال له علمت الآن أراءك بالنسبة الى الدولة وهذه البلاد التي تخضع لسلطتها وكيف ان اكبر واجباتها طموحها الى الاستقلال. ولكن اذا كانت هذه آراؤك فهل كان من الحكمة اظهارها أمام الجمهور. فاجاب يوسف نعم أراها كذلك وقد علمت الآن اني كنت جاهلاً لاني لم أظهرها من زمن طويل. على اني لم أحدث بها جمهوراً ولا نفراً ولا أتذكر اني حرضت واحداً على القيام بها بأي وجه من الوجوه. فقال الحاكم وهل نسيت ما أبلغته ذلك الراعي وكيف انك غرست في ذهنه وذهن أمه ما كان ابنهما سيكون حاكماً على هذه البلاد بعد ان تتحرر على يديه. فادرك يوسف حينئذ صدق ماظنه من قبل وعلم انه وقع في شر هذه المكيدة ولكنه تجرأ فلم ينكر شيئاً مما صار وقال صحيح ما تقول ولكن الذي قلته لذلك الوالد لم يكن الا

تفسير حلم رأته امرأته ولا يجوز ان تدخل الاحلام وتفسيراتها التي قد تصدق وقد لا تصدق في امور رسمية كهذه تتعلق عليها آمال وارواح. فقال الحاكم ولكنك بما قلته لذلك الرجل خلقت فيه اميالاً لم تكن توجد من قبل فاذا شب ابنه وسمع بانك انبأت بذلك المستقبل عنه سعى جهده الى تحقيقه ومال بكليته الى نيل هذا المجد الموهوم . وان رجلاً مثلك بلغ من جراءته عدم الاكتراث بصالح الدولة يعد وجوده في هذه الحرية المطلقة خطراً واضحاً على الهيئة الاجتماعية . واعلم اني علمت دخائلك منذ جاء اليك ذلك الغر الجاهل وطلب منك تفسير حلم امرأته ولولا اني دافعت عنك دفاعاً عظيماً مابقي لك وجود الى هذا الآن لان امرك اصبح مشهوراً في دار السلطنة وحدث على اثره مالم يكن في الحسبان من استعداد الشعب للانتقاض والثوران . فاجاب يوسف اني اسمع ذلك منك بصبر جميل لانه ليس لنا معشر الرعية عند امثالكم واسطة من وسائط الدفاع فالقول ماقلتم والامر ماتأمرون . غير ان عندي كلمة الآن سواء سمحت لي بقولها أو لم تسمح فلابد من قولها قبل ان تقضي مني الاغراض وهي انه اذا لم يكن في السلطنة غيرك لكفى بك دافعاً يدفع الشعب الى حب التخلص مما هو فيه . واذا لم يكن غير ما أرى من استبداد الحكام في ارائهم وحبس حرية الافراد الى حد الامتناع عن الدفاع لكفى به دليلاً على ان الامة السربية يجب ان تسفك آخر نقطة من دمائها سعياً وراء الحرية وتخلصاً من الاستعباد . وقد طاولتك الى الآن حاسباً مقام الحكام فوق كل مقام حافظاً لك كرامتك كما يجب ان يكون الرعايا أمام رؤسائهم ولكني رأيت منك ابتعاداً عن سماع الحق ولم يهمك غير استخدامي لما فيه صالحك فبطلت بذلك صفة الرئاسة وجاء الاوان الذي يجب علي فيه ان اجاهر بما في الضمير سواء غضبت أو لم تغضب . وبدأ يوسف ينطق فاوقفه الحاكم بغضب قائلاً لقد جهلت انك امام رجل في يده حياتك ومماتك فلابد من معاقبتك العقاب الذي تستحقه لأن ضعف شيخوختك لا يكفي على مايظهر لتأدية العقاب . ثم استدعى أولئك الجنود بصوت عال فاقبلوا كالوحوش وقد اخرجوا

Digitized by Google
Original from
HARVARD UNIVERSITY

سيوفهم من اغمادها والتفوا حوله كأنه اتى ذنباً هائلاً يقل في جنبه كل ذنب واخذوا يربطون قدميه ويديه فناداهم بصوت خافت ان لا تتعبوا انفسكم في الربط والضبط فاني ممتثل لما تريدون وها انا اسير امامكم برضي واختيار حتى الى اعمق اعماق السجون . وتجرأ واحد من هؤلاء الجنود ولطم بيده جبهة ذلك الشيخ قائلاً ليس لك ان تعارضنا في ما نريد . فتألم يوسف ولكنه سكت متجلداً واستسلم للقضاء قائلا في نفسه ليأت هؤلاء الاشرار بما عندهم ولأ كن اول شهداء الذين دافعوا عن الحرية في هذا البلد التعيس . ثم اطرق هنيهة وهم يحكمون شد وثاقه ونادى نفسه قائلاً ولكن ما نفع استشهاد كهذا لا يشهده واحد من العالمين يبلغ الناس اسبابه فيعتبرون واكبر ظني ان دمائي ذاهبة هدرًا في قاعات السجون فيذهب كل ماقلت مع الهواء ويضيع ضياع الخط على صفحات الماء

ولم يتم يوسف هذه المناجاة حتى سمع غوغاء من وراء القاعة التي كان فيها لان ذينك الرجلين اللذين كانا يراقبانه من وراء الجدار ويسمعانه حرفاً حرفاً كما تقدم القول لم يعد لهما صبر على الانتظار ورأيا الظلم مجسما امام عيونهما وذلك الشيخ المسكين الذي حل احترامه في قلبيهما أرفع مكان يسام الخسف والذل من اوغاد لا يدركون مقامه فجردا سيفيهما ودخلا قاعة التحقيق قائلين بصوت واحد ان اخلوا سبيل الرجل فانه لم يأت ذنباً عرفناه ولا اخطأ في حرف واحد مما سمعناه . فالتفت اليهما الجنود وازدروا بهم ثم عادوا الى ما كانوا يأتونه من ربط يوسف بدون مبالاة . ورأى الحاكم ظواهر الشر بادية من عيون الرجلين فانساب ملتمساً الباب ولكنه لم يخط خطوة واحدة حتى استوقفاه قائلين منك لا من سواك نطلب اخلاء سبيل هذا المظلوم . فارتعش الحاكم وانحلت مفاصله شأن كل من اضعف الظلم قلبه وصيره جباناً مهاناً ولكنه تظاهر بالتجلد ونادى اولئك الجنود ان اقبضوا على هذين الاثنين ايضاً فانهما يريدان بنا شرًّا وقد استأجرهما يوسف ليكونا في خدمته قبل ابتداء التحقيق ولا عجب في هذا لانه كان شاعرا بجريمته الهائلة وعلم انه لابد له من خلل

هذا السقوط . وسمع يوسف هذا الادعاء فانكره وقال في نفسه بل ارسلها الذي لا يغفل عن فعال الظالمين . واذا كان دم الشهداء محسوباً كبذار للارض فقد اثمرت دمائي في شخص هذين الرجلين من قبل ان تهدر وتصير بذاراً . واذا كان الرجلان قد سمعا المناقشة التي دارت بيني و بين هذا الحاكم وعلما السر في هذا التحقيق فقد صرت من اسعد شهداء البشر لانهما سيخلفانني في التبشير باسم الحرية الجليل فلا تضيع دمائي هدراً كما ظننت وحاشا لنبات الحرية ان يبذر في أرض ولا يثمر مهما يكن من فساد تربتها بل حاشا للحق ان يتضوع هباءً منثوراً لانه اذا اختفى عن العيون كان كالماء يغلي في آنية مغطاة من كل صوب ولكن بخاره لا يعدم منفذاً ينفذ منه الى ما هو ظاهر فاذا عدم هذا المنفذ أخذ الآنية كلها وما تحمل من غطاء واندفع طائراً في وسيع الفضاء

وقد جال في خاطر يوسف ذلك كله في تلك اللحظة وكان اللجاج قد اشتد بين الجنود والرجلين فحاول ان يمدهم بعضهم عن بعض قائلاً المدافعين عنه انه يكتفي منهما باذاعة السر في هذه المحاكمة فلم تنفع محاولته و بدأ الضرب والطعن وكان الرجلان فوق شدتهما عارفين بفنون الدفاع لانهما كانا يحملان السلاح صغيرين فكانت ضرباتهما صادقة ثم علا الصياح وامبت السيوف في الافئدة والاعناق وجلس يوسف في وثاقه مبهوتاً والحاكم في سباته وقد هربت دماؤه من عروقه حتى انجلت الواقعة عن قتل جندي وجرح غيره جرحاً بليغاً وجرح احد الرجلين جرحاً خفيفاً . وحاول الحاكم حينئذ ان يصرخ مستغيثاً بالخارجين فاسكته أحد الرجلين بضربة في فخذه اخترقت اللحم والعظم وغادرته طريحاً على الارض . ورأى هذان الرجلان واسمهما مولو ورالي ان بقاءهما اصبح خطراً فحلا وثاق يوسف بالرغم عن توسلاته اليهما ليتركاه لئلا يزيد السخط عليه ولا ينجو من عقاب الموت ثم ربطا برباطه ذلك الحاكم والجنديين اللذين بقيا على قيد الحياة وقصدا الخروج فاستكشفا خارج الباب خوفاً من وجود قوم يقفون على ما صار فيقبضون عليهما ولم يجدا أحدا فارغما يوسف على الخروج وخرجا واياه بعد ان

اقفلا الباب على اولئك الجريحين

—(الفصل السادس)—

« جراءة المحبين »

كان ليوسف ابنة عم اسمها ماري تفنن الخلاق في ابداع خلقتها فكانت سحراً للناظرين وجعل من قلبها قلب رجل لا يعرف الخوف فاجتمعت فيها رقة المرأة وشجاعة الرجل فكان الذي ينجو من ضربات سيفها الصادقات لا ينجو من سهام الجفون. وكان لها أب علمته هجمات الاتراك على السربيين ان يكون في استعداد دائم للقتال هو وأولاده وأولاد أولاده فكانت تلك الفتاة نابغة في رمي السهام والضرب بالسيف وطالما أدهشت الناظرين اليها باستوائها على الجياد استواء بطل مدرب وتجريدها السيف تجريد الشجاع المقدام. واتفق انها خرجت مع أبيها و بعض أقاربها في يوم من الايام لزيارة أحد الاقرباء في بلد بعيد فلقيهم قوم من قطاع الطرق أعجبوا بالجياد التي يمتطونها فقصدوا سلبها وأسر الفتاة الجميلة ماري والعفو عن الراكبين. وسار اثنان منهم في طليعة الهاجمين ولكنهم لم يتقدموا اليهم و يأخذوا في فتح الحديث حتى عرفهم والد الفتاة وأدرك ما يرومون فجرد السيف في الحال ونادى أبناءه أن خذوا حذاركم من هؤلاء اللصوص واحملوا عليهم حملة صادقة ولا تخافوا فلمثل هذا الوقت أعددتكم وفيه يمتاز الشجاع عن الجبان واعلموا اننا انما ندافع عن هذه الاعراض المقدسة وهي التي يسهل في جنبها اهراق الدماء. فلم يتم الرجل كلامه حتى غمزت ماري جوادها وأسرعت الى النزال شاهرة سيفها سائرة نحو الاعداء فكان لمقدمها هيبة يطير لها قلب الشجاع. وكانت هذه أول مرة التقت فيها بقوم كهؤلاء فلا عجب اذا تجرأت على ملاقاتهم لان الجاهل جريء مقدام فهي انساقت بجراءة الجاهلين الى ذلك الموقف المحفوف بالمخاطر والاهوال وا كبر ظنها انها لا تموت لانها حسبت نفسها

Digitized by Google Original from HARVARD UNIVERSITY

كالطير الجميل اذا تعقبه الصياد طمع في صيده حياً ليمتع به الانظار ولم يطاوعه قلبه على اعدام حياته الغالية . وكأنها عدمت كل رشد فتمادت في سيرها لملاقاة الاعداء وحسب أبوها ذلك منها اقداماً خطراً فناداها لترجع ولا تعرض نفسها للمنون ورآها تجد في السير فأسرع اليها وجذبها لتعود فأجابته ان لي غريماً بين أولئك القوم وطالما أتعبني بنظراته المتوالية فأوقعته الظروف بين يدي الآن فاتبعني ولا تخف لانه يحبني محبة متناهية فهو لا يطمع في اعدامي وقد يكتفي بمحاولة أسري حية فانتقم منه على ذلك الطيش . ولما رأى الاعداء هذا الاقدام تقدموا نحو الفتاة وأبيها والذين تبعوهما من الاقرباء فوقع نظر ملكوفتش وهو ذلك المحب على صوب الفتاة فطار له سروراً لانه حسبها فرصة سانحة لأسر حبيبته والهروب بها الى حيث لا يعرف انسان . وكان يعلم ان ماري تعرف شجاعته وانه طالما جندل الابطال في ساحات الوغى ومن تحته جواد يسابق الطير في سيره فقال في نفسه ان هزة واحدة من سيفي كافية لالقاء الرعب في قلبها فتخونها شجاعتها وتضطر الى الاستسلام . ونظر اليها نظرة الوحش الكاسر الى غنيمته وتقدم شاهراً سيفه المخيف فقابلته بالمثل وكان المحاربون من الجانبين ينظرون اليهما صامتين وقد جمدت سيوفهم في أيمانهم لان أقرباء الفتاة كادوا يذوبون خوفاً عليها اذا لم يكن من الموت فمن الاسر وهو أشد وقعاً عليهم واللصوص ينظرون تارة الى الفتاة وقد سحرهم جمالها الفتان وأدهشتهم شجاعتها الفائقة وتارة الى ملكوفتش وقد حسدوه على النعمة المنتظرة لانهم لم يكن عندهم ريب في انه يتمكن من أسرها فيفر بها الى وسيع الفلاء . ولم تكن الا دقيقة حتى اصطدم ذلك الوحش بهذا الملك الكريم فتظاهرت ماري بأنها ستسلم له نفسها وأخرجت كل حيلة اشتهرت بها بنات حواء فامتقع لونها وتراجعت قليلاً قليلاً فطمع بالقبض عليها ومدّ يده اليها فانتهزت هذه الفرصة وطعنته طعنة مرة أسقطته الى الارض يتخبط في دمائه . ورأى اللصوص ذلك فحملوا عليها وعلى أقربائها حملة منكرة صارخين يا للخيانة والعار امرأة تقتل بطلاً ونحن واقفون . ووجه كل منهم اهتمامه الى

صيد ماري فأصبحت محط الهجوم منهم والدفاع من الاقرباء فجرح أبوها جرحاً بالغاً في هذه المعركة لانه تغانى في الدفاع عنها وكانت جراحه متناهية ورأت الفتاة ذلك فارتخت مفاصلها وألقت السيف من يدها وترجلت عن جوادها لعلها تخفف آلام أبيها أو ترد اليه الرمق وهرب الباقون بعد ان قتل واحد منهم وقتل واحد آخر من اللصوص . و بقيت ماري في ساحة القتال مع أبيها ومدت بنظرها الى الاقرباء فرأتهم وقد ولوا الادبار فأيقنت بدنو الاجل واشتد غيظها من أولئك الجبناء

صون العفاف

ولم يبق عندها ريب في أن ساعة أبيها قد اقتربت وانها اذا استسلمت للاسر راحت ضحية المغرمين فخانتها قوتها وظهر فيها ضعف النساء فأخذت تبكي بكاء اليائسين . ولكنها كفكفت الدمع حالاً لانها رأت سبيلاً للنجاة . على انه سبيل مخيف تنحل لذكره قوى الشجعان فكيف بالجنس الضعيف . سبيل طالما لجأ اليه الذين صفرت الدنيا في عيونهم وضاق الفضاء فرخصت حياتهم و باعوها بأبخس الاثمان . سبيل يحسبه العاجزون عن حمل أثقال الحياة أحسن منفذ للنجاة . بأيديهم لا بأيدي سواهم يخرجون أرواحهم من أجسام ضاقت سجونها عن ان تسعها فطلبت التخلص من تلك السجون والانطلاق الى عالم الحرية والاطلاق . عرفه ملوك كانوا مثلاً في السؤدد والعز فرأوه أحسن دواء يتخلصون بتجرعه من داء الحياة الثقيل فلجأوا اليه وتجرعوه شراباً مرّاً التخلص مما هو أمر . شاول ملك اسرائيل العظيم — ذلك البطل المغوار الذي طالما خاف اسمه الملوك والابطال . وكليوبطرا ملكة مصر وربة التاجين تاج الملك وتاج الجمال — تلك التي خضع لها اكبر القياصرة في ذلك الزمان ومرغ الابطال وجوههم أمام أعتابها — هذان وغيرهما من ملوك الزمان وعظمائه لم يجدوا غير هذا الدواء القاسي سبيلاً الى التخلص من العبودية بعد ان عاشوا العمر لا تسعهم الدنيا بما رحبت فتجرعه كل منهم بثغر باسم وقلب غير هياب . كانوا مثلاً في الشجاعة وسعة السلطان ثم عجزوا عن حمل

Digitized by Google Original from HARVARD UNIVERSITY

أثقال الحياة وقد بدأ طالعها في الهبوط فلا عجب اذا عجزت تلك الفتاة ماري عن ان تجد حيلة غير ماوجدوه للتخلص مما هي فيه

اولئك خشيوا ان يشاهدوا بعيونهم كيف ضاع سلطانهم بعد العز والرخاء فرأوا ان يقضوا على حياتهم بأيديهم ولا يكون سبيل الى التحسر على هذا الضياع وأما الفتاة ماري فانها انما خشيت ضياع ماهو في شرع العقول أعز من كل ملك وسلطان. كانت تعلم انها ستحل من قلب آسرها أرفع محل وتتسلط على فؤاده تسلطاً يتفانى الجنس اللطيف عادة في سبيل الحصول اليه ولكن اوحى اليها العفاف بوجوب اهراق دمها بيديها صوناً لمقامه السامي المنيف. رأت ان تفتديه بدمها ولا عجب ان يفدى الأعز بالشيء العزيز. وأي شيء أعز من الحرية والعفاف

لهذا كله رأت ماري ان تتخلص من الحياة قبل ان يهجم عليها اولئك اللصوص ويأسرها القادر منهم على اسرها فتناولت خنجراً خبأته لمثل هذا الحين ورفعته لتطعن به صدرها الرقيق وتموت على صدر والدها الحنون. وزادت ميلها الى الانتحار تلك الدماء المنهدرة من جسم أبيها ولا سيما حين تذكرت انها هدرت في سبيل انقاذها من أولئك الاشرار. وكان اللصوص مع قساوة قلوبهم ينظرون الى ذلك المنظر المفزع فتثور في عواطفهم ثائرة الحنان ولا يتقدمون الى اقتناص الفتاة عالمين ان أباها سيموت وانها لا تستطيع الهروب. ولكنهم لم يروا ذلك الخنجر في يدي غنيمتهم ولو انهم رأوه لاسرعوا الى اختطافه من يدها وانقاذها. وشعرت ماري بذلك أيضاً فانزوت وراء جثة أبيها وكانت الروح لا تزال تدب فيها وعولت على التخلص من العار الذي ينتظرها اذا وقعت في أيدي اللصوص ومن تبكيت الضمير الذي اشتد عليها في ذلك الحين لانها قالت في نفسها ربما كانت جراءتي اولاً مع ذلك الشرير هي التي أوقعت والدي في هذا المصير. ولكنها بينا كانت تحاول اغماد الخنجر في صدرها سمعت أنيناً من أبيها تبعه صوت منه متقطع يقول ماري ... ماري ... ليتك كنت معي الآن لتساعديني على ما أنا فيه. وكانت شدة الآلام قد أنسته ان ابنته لا تزال بجواره وانها لم تهرب هروب أولئك الانذال فطار لب

الفتاة وتنازعها عاملان بين ان تقضي على حياتها تخلصاً من العار المنتظر وبين ان تبقي على نفسها لتكون عوناً لابيها في تخفيف آلامــه. ثم منحت نفسها مهلة نادت فيها والدها بأن لبيك ياوالدي هاأنا بجوارك ماذا تطلب. قال ألا تزالين هنــا وسط المخاوف والاهوال. قالت لولا أنينك الذي قطع أحشائي في هذا الآن لتخلصت من تلك المخاوف وكنت الآن طليقــة لاأشعر بشيء ممــا أنا فيه. أما الآن وقد أفقت قليلاً واللصوص يحاولون اختطافي من بين يديك فهل لي ان أسألك أمنية يصعب سماعها عليك ولكنها سهلة عند التأمــل والتحقيق. فاننا لمــا أشرفنا على أولئك اللصوص كانت أول الفاظك ان اهجموا عليهم ولا تخافوا فاننا انما ندافع عن الاعراض وهي أقدس مايستحق الدفاع. فاذا ذكرت هذا فاذكر انه لايمضي وقت قليل حتى اكون بين أيدي اولئك الاشرار. أواه فماذا يكون. أفلا تفضل ان أقضي على حياتي قبل هذا الوقوع. أولاترى هذا الخنجر أفضل ما يلجأ اليه الحائر في هذا الموقف المرهوب. فقال نعم ولكن ليس الآن لانك اذا فعلت هذا قضيت على نفسين في آن. قالت أما أنت فلا أخالهم يصيبونك بأذى بعد ان رأوك في هذا الحال وأما أنا فلا مناص لي منهم في حال من الاحوال. واني أراهم الآن يتحفزون للقدوم الينا فاستودعك الله اذن ولا تحزن اذا رأيتني أتدرج في دمائي فبغير هذا لايسلم الشرف الرفيع. ثم تناولت خنجرها وحاولت ان تضرب بها نفسها فمنعها أبوها بيديه المرتخيتين وقال مهلاً ولا تتسرعي فانهم مازالوا بعيدين واني أرى قوماً آخرين قادمين اليهم فلعلهم جاؤا في نجدتنا. نعم بل في نجــدتك وحدك لانهم لايصلون الينا حتى اكون في عالم غير عالمهم. ثم تأوه ووضع يده في موضع الجرح البليغ وصرخ أواه من يأتيني بقليل من المــاء. فكاد يذوب قلب ماري لانه لاماء عندها وتمنت لو أن في دمع العين مايفيد لاروائه فتفيض عليــه بيحر من عينيها ثجاج او ان الدماء تقوم مقام الماء فتستنزل من دمائها ما يشاء. والتفتت يمنة ويسرة لعلها تجد سبيلاً الى عيون الماء التي تكثر في تلك الجهات فرأت خضرة نامية عن بعد بعيد اذا قصدته لم يكن بد لها من المرور بأولئك اللصوص

فتنازعها حينئذ عاملان عامل الواجب نحو أبيها لعلها ترد غلته بقليل من الماء وعامل الواجب نحو نفسها وشرفها خوفاً من السقوط بين أيدي أولئك الاشرار . ولكن لما كانت تشعر من نفسها بأن هؤلاء اللصوص لا يسمهم الا اجابة رغائبها قبل صيدها علمت انها قد تنجح في مهمتها ولو يكون في نجاحها السقوط بين أيديهم قائلة ان التخلص منهم بعد قضاء المهمة أمر في الامكان اذا لم يكن بالحيلة فبالانتحار . وعليه قامت وكلها حذر وخوف وتقدمت مسرعة نحو تلك الخضرة فتبعها اثنان من أولئك المراقبين كان هيامهما بها يفوق كل هيام . ولما رأتهما قادمين اليها وقفت في مكانها وناديتهما باكية ان ماذا تطلبان مني فاني عائدة الى حيث كنت وليس من المروءة أيها الرجلان ان تستوقفاني في ذهابي الى حيث أجد ما يبرد غلة هذا الطريح . وفطنا انها ذاهبة للتفتيش عن ماء فانفرد أحدهما بالقول ان الماء الذي تطلبينه بعيد عن هذه الجهة وقد لا يستطيع الظمآن ذلك الانتظار وعندنا منه ما يكفي فخذي ما تشائين بلا خوف ولا وجل واعلمي اننا لا نطمع منك طمع أولئك الاشرار فاطمئني على نفسك وأبيك وقدمي له من العناية ما تشائين . فقالت كيف هذا وقد كنتما بين أولئك اللصوص الذين حملوا علينا هاتيك الحملات وقتلوا من بيننا رجلاً ولا كل الرجال وجرحوا أبي جراحاً بليغة قد لا يكون لها شفاء . فأجابا اننا انما دافعنا عن أنفسنا فقط ولم نقصد الهجوم في حملة من الحملات ولو كنت تعلمين بأحدنا وتاريخه معك ومع عائلتك لما رفعتم في وجهنا سيفاً ولا رشقتم في صدورنا رمحاً . فقالت اني لا أفهم ما أسمع الآن ولو رفع الحجاب الذي تغطيان به وجهيكما ربما أمكنني ادراك ما تقولان ولكني لا أرى الفرصة تسمح لنا بالاخذ والرد في هذا الآن وقد اكتفيت منكما بهذا الوعد وعد الرجال وهو انه لم يبق خوف من أولئك الاشرار فقالا بل الخوف موجود اذا لم تنل أمراً تعرفينه بعد . فقالت وما عسى ان يكون ذلك الامر . قالا دعيه الآن وا كتفي بأخذ ما تشائين من الماء وعودي الى أبيك برّدي غلته وخففي آلامه ولئن تعذر عليك أمر فنحن على استعداد من اجابة ما تطلبين .

Digitized by Google
Original from HARVARD UNIVERSITY

فتكاثرت المواجس حينئذ عند ماري قائلة في نفسها ان الرجلين لا يصنعان معي مثل هذا المعروف بدون طمع في نوال فليس بين بني آدم اليوم واحد يأتي المعروف خالصاً من كل شائبة وغرض وليس في الفعال التي بدت من أولئك اللصوص وهذين في مقدمتهم ما يطمئن له البال . ولكنها اكتفت بأخذ ما أرادت من الماء شاكرة لها هذا المعروف ثم عادت الى أبيها وهو على آخر رمق من الحياة فأحيته بجرعة من الماء وقعدت الى جانبه تضمد جراحه وتقص عليه ما رأت من ذينك الرجلين وقد أبدت كل دهشة واستغراب

وكان أبوها يسمع هذا ويعيد الى ذهنه تاريخ حياته لعله يقف على سر هذا المعروف ومادعا ذينك الرجلين الى فعل ما فعلا بعد ان اتيا ورجالها هذه المنكرات فما اوحى اليه الخاطر الا امرًا مضى عليه خمس سنوات الى سبع ومؤداه ان شاباً قصده في يوم من الايام وطلب اليه ان يمنحه ماري ويزوجها اياه فأبى بعد ان أوسعه لوماً وتعنيفاً على هذا الاقدام . ثم تذكر ان ذلك الشاب عاد فالح عليه الحاحًا عظيماً بواسطة المقربين مظهرًا شدة ولوعه بالفتاة فقال في نفسه لعله جاء اليوم ينتقم منا على هذا الرفض ويأخذها عنوة واقتدارًا . ولكنه عاد فقال ان (مولي) لا يقدم على مثل هذه المنكرات وان لم يكن شاباً ذا مال كثير يؤهله للاقتران بماري فربما كان في الامر سر آخر لست ادريه

مروءة الاشرار

والتفت الى ابنته بعد ان دارت في عقله هذه الافكار وقال لقد كان هذا الماء من أولئك الاعداء دواء لي شافياً فاعجبي يا بنيتي من حكمة الاقدار وانظري كيف تستنبط النفع من مساوىء الاضرار . ولقد اذهلني مارأيت أولاً من ظواهر الدناءة عند أولئك الاعداء وما أشهده الآن من الشهامة وكيف انهم يروننا على هذه الحال وقد عدمنا كل سلاح ندافع به عن النفس والعرض ولا يتقدمون الينا لينالوا منا ما يشاؤن . ولكن لعل هذا من قبيل المروءة المشهورة عن قطاع الطرق وعصابات اللصوص فقد قيل ان قاطع الطريق كالاسد لا يقاتل من القى

سلاحه الى الارض ثم استمات . فقالت الفتاة ولكن دعنا من هذا كله الآن فلعلك تشعر بتحسين في حالتك لاني ارى صوتك صار أقوى مما كان ولا تبدو منك علائم التألم من هذه الجروح . فقال اني أشعر بما تظنين ولعل اطمئناني على مستقبلك مع اولئك اللصوص كان معظم السبب في تناسي الآلام . واحمدي الله معي لان الطعنة التي اصابتني لم تكن صادقة قاتلة وان تكن شديدة قاسية فاذا بقي الجرح مضمدًا وامتنع النزف استطعت القيام . ولكن آلا ترين ما أرى من ان الذي يبديه اولئك القوم من السكوت مازال يستوجب الاعجاب . فاجابت الفتاة ليس في مروءة الاشرار يا ابتي أمر غريب فان المروءة على سمو مكانتها بين الصفات قد توجد في أحط المبتات . وقد يكون المرء مجردًا من اكثر الصفات الحسناء ولكنه لا يكون مجردًا منها كلها . وكما ان الخير كله لا يمكن ان يجتمع في انسان كذلك لا يمكن ان يجتمع الشر كله فيه . على ان مثل هذه المروءة لا تعد مروءة صادقة لاني اراها مخاطة بالاغراض والاهواء فهي ليست عن ميل سليم . ومازلت اردد في خاطري قول ذلك الرجل الذي اعطاني الماء ان الخوف موجود اذا لم تنل مانريد فكأنهم يصنعون بنا هذه المروءة انتظارًا لشيء وليس لمجرد الشفقة والحنان . والعفو عند المقدرة فضل عظيم ولكني لا ارى صفات هذا الفضل متوفرة في أولئك الانذال فا كبر ظني انهم لا يلبثون ان يتقدموا الينا ويأتوا مايشاؤن

واقعة أخرى واقتناص الفتاة ماري

وكانت الطليعة التي رآها والد الفتاة سابقًا مقبلة الى صوبه قد أقبلت ودنت منه فلم تتم الفتاة كلامها هذا حتى كان أربعة من أولئك اللصوص محيطين بها وبأبيها خوفًا من اختطافها والباقون مشتبكين مع تلك الطليعة في القتال . وتحرير الخبر ان واحدًا من الذين هربوا بعد الواقعة الاولى عاد الى البلدة وجمع قومًا من الاشداء ليأتوا وينقذوا الفتاة وأبيها وكان ذلك الهارب شابًا من أقرباء الفتاة ولكنه تفرد بهذه المروءة لانه كان طامعًا في الاقتران بها ونال وعدًا أو شبه وعد باجابته الى ما يريد . فلما التقت العين بالعين ترامت السهام من الجانبين ثم دار

القتال بالسلاح الابيض وكان شديداً ارتجت له الارض بأنات الجرحى ونزعات القتلى وصياح الابطال . فلم تكن الا ساعة أو أقل حتى دارت الدائرة على حماة الفتاة بعد ان قتل اكثرهم ولطخت الارض بدمائهم . وشعرت الفتاة بهذا وعلمت ان كل تلك الدماء انما سفكت في سبيلها لا في سبيل سواها وكانت شديدة الشعور فأخذت تندب نائحة على أولئك الابطال قائلة لا كنت ولا كانت ساعة خرجنا فيها الى هذا المكان . ولم يبق عندها ريب في ان ساعة اقتناصها قد قربت وكانت الآلام عادت فاشتدت على أبيها من شدة ما ألم به من الخوف والرعب فانتزعت الخنجر الذي خبأته لمثل هذا الحين ورفعته لتطعن به نفسها فأمسك بيدها رجل ممن يحيطون بها ولم تكن الا دقيقة حتى اجتذبها ورفعها الى وراءه على ظهر الجواد ثم سار بها وتبعه خلانه يسابقون الطير و يسبقون

الفصل السابع

يوسف مع منقذيه

لما تمكن ذانك الشابان مولي ورالي من انقاذ يوسف هربا به الى وسيع الفلاء آملين ان لا تسمع الحكومة باخبارهما مع ذلك الحاكم حتى يكونا في بعد باعد لا يكشفهما فيه انسان . فظلا سائرين حتى وصلا بقمة بعيدة عن العمران فنزلا اليها ليستريحا ويتجاذبا اطراف الحديث مع يوسف وقد طال شوقهما الى الانفراد به ليقفا منه على ما يدور في خاطره عن احوال البلاد السياسية ويرشحا نفسيهما للذود عن استقلال البلاد ثم يستأنفا معه امراً يتعلق باحدهما مولي وتلك الفتاة ماريه . وكان يوسف لا يعرف مولي جيداً وان سمع باخبار ميله الى ماري ولكن مولي فوق ذلك الميل كان شغفاً بمبادئ يوسف ايضاً فاجتمع فيه الامران حتى دفعاه الى التفاني في سبيل انقاذه عالماً ان في يديه أمر الفتاة اذا قال قولاً في شأنها لم يكن لقوله راد . على ان يوسف كان يعلم ان مولي ممن يخاطرون بانفسهم في كل حين وان له عصابات قد تأتمر بامره احيانا وتعيث فساداً في البلاد فلم تكن أخلاقه راضية عنده وحين سئل رأيه في اعطائه ماري لم يوافق عليه . وكان ذا مال ولكن ليس

طائلاً فكان نفوذه وسطاً في البلاد . وما كان ميله الى مبادئ يوسف المتعلقة باستقلال البلاد عن علم بقيمة الاستقلال أو تبصرة في عواقب الامور أو غيرة على صوالح الوطن ولكن عن ميل طبيعي الى القلاقل وخوض المعامع والحروب والى مجرد الظهور بمظهر الجريء المقدام . ولكن يوسف لم يكن عالماً بحقيقة اخلاقه كلها وغاية ماظنه فيه حين أقدم على انقاذه من ايدي الحاكم والجنود انه علم بظلامته وتعلق بمبادئه الصحيحة فقصد انقاذه شهامة منه خالصة . وزاد تأكداً من هذا الامر حين خاطبه مولي بعد انقاذه طالباً منه تدبير أمر اذا اتاه نالت البلاد على يديه نعمة الاستقلال . وقد كان كل مايرمي اليه ان يشتهر بانه دافع عن كيان الوطن وترأس حزب الراغبين في الاستقلال ليكون له ما لمحرري البلاد من السلطة ورفعة الشان

فلما رأى يوسف منه شدة الاهتمام بأمره ومبادئه طلب اليه قبل ان يجيبه على ماطلب ان يوضح له سر حضوره في تلك الفرصة حين انقذه وكيف علم بظلامته الى آخر ماصار . فقال مولي اني شخص لا تربطني اعمال كثيرة في البلد فقلما أشغل عن العلم بما يدور بين الناس ولهذا علمت بامرك من اليوم الذي وقفت فيه امام ذلك الحاكم وأخذت اتتبع خطواتك واتنسم اخبارك حتى امكنني الوقوف على اكثر مادار بينك وبين الحاكم من الحادثات التي تدل على سمو مبادئك وانحطاط مبادئه . ولعلك تعلم بعد أمراً آخر جعل ميلي الى انقاذك فرضاً واجباً وان لم يكن هو كل الذي دفعني الى ذلك الاقدام

فوضع يوسف يده على جبهته وتأمل الامر ملياً ثم قال في نفسه ان اقدامه على انقاذي كان أمراً عظيماً ولكن يظهر ان الذي دفعه عليه كان أهم واعظم . وما كانت المروءة الخالصة لتبدو من رجل كهذا لا أظنه نال من الاداب حظاً يؤهله لهذه الصفة السامية . ولكن لماذا اجنح الى رأي كهذا وليست المروءة الا نباتاً لا يصلح نموه غالباً في غير قلوب البسطاء والذين بقيوا على سذاجتهم الطبيعية وقلما رأيت انساناً زاد نور عقله وكثرت مطامعه على نسبة ارتقاء امياله الا كان بعيداً عن المروءة الخالصة متمسكاً بالانانية البالغة . فلا يبعد ان يكون هذا الشاب

Digitized by Google Original from HARVARD UNIVERSITY

من ذوي المروءات الخالصة لانه لم تنم في قلبه بعد مصالح تضرب على مصالح الغير أو لا تدع محلاً لهذا النبات الجليل

ثم التفت يوسف الى مولي وقال له يظهر لي انك ممن يشعرون بضرورة استقلال البلاد التي انت فيها ويميلون الى تحقيق هذه الامنية . ولكن الميل شيء والاقتدار على انجازه شيء آخر فهل ترى في نفسك قدرة على ذلك . وهب انك وجدت هذه القدرة فهل ترى البلاد في استعداد لقبول هذا المشروع الخطير

وكان مولي لا يعرف غير السيف والرمح فلا عجب اذا لم يدرك سوءالات كهذه على بساطتها فاجابه بقوله ان عندي وعند زملائي من العصابات ما يؤلف جيشاً جراراً مستكمل الالات ولا أظن جيش الترك القليل النازل في هذه البلاد كافياً لمقاومة نصف رجالنا الاشداء . فقال يوسف ولكن العبرة في الظفر لا تتوقف على الكثرة بل على النظام الحربي فقد تجمع خمسة آلاف رجل غير منظم ولا يستطيعون الثبات امام الفين منظمين . واعلم ان عثرات الآمال ليست بسهولة فكم من رجل تتوسم فيه خير الآمال حتى اذا توسطت ميدان العمل وبدأ الجد قل الذين تجدهم في يدك قلة لا تغني فتيلا . وربما سمعت عشرة آلاف يتظاهرون امامك الآن بالشدة والبأس وتمام الاستعداد حتى اذا جاء وقت العمل ورأوا الامر عملا لا كلاماً تراجعوا الى الوراء ولم تجد منهم غير القليل . والى هذا ينسب اكثر ما نشاهد من كساد المشروعات الكبرى وغير الكبرى لان المرء قد يشرع في مشروع يعلم جيداً انه لا يقوم بغير المساعدين ثم انه يجد من المقربين اليه قوماً طاشت عقولهم فيحرضونه على الاستمرار فيه مظهرين الاستعداد لمساعدته حتى اذا ابتدأ في العمل يوماً ويومين التفت يميناً وشمالا فلم يجد الى جانبه غير نفر قليل . وانت تعلم ان الحكومة قيدت كثيرين من رؤساء البلاد بالرواتب الرابية وطمعتهم بالمناصب السامية فكل هؤلاء يريدون المحافظة على الحكومة الحاضرة واذا ظهر منهم الميل الى مساعدة مثلك كان ذلك انتظاراً لمثل هذه النعم في الحكومة الجديدة . ويغلب على الظن انهم آفة كل مشروع من هذا القبيل لانهم فضلا

عن كونهم يبتعدون عن تعضيد القائمين به فانهم ينضمون مع الاعداء ضدهم فيسوء المصير . والى هذا اشرت بقولي ان هل في البلاد استعداد لقبول هذا المشروع . لانه اذا لم تنتظر المساعدة من امثال هؤلاء فواضح انه ليس في البقية قدرة على العمل بأي وجه من الوجوه

فقال مولي ولكن اذا كان الامر كذلك وكان هذا محط ما ترمي اليه فكيف صرحت أمام ذلك الحاكم بوجوب الاستقلال . فأجاب يوسف لم أُصرح بوجوبه حالاً ولكني تمنيت ان تبدأ البلاد في الاستعداد له حتى اذا جاء الزمان الموافق انتفض الشعب عصاً واحدة ونال الاستقلال . وقد اضطرني موقف ذلك الحاكم الى التصريح بأكثر مما أظنه واجباً لانه أحرج مركزي وأبان من ظلمه ما دعاني الى تمني الاستقلال في أقرب الاوقات . وعندي انه اذا كان أمثالك يجتمعون معاً ويبدأون أولاً في جمع قلوب المتخالفين من رؤساء الاحزاب ثم اهتموا في تحسين المالية الداخلية وربوا النفوس على الميل الى الاستقلال أوجدتم قوة هائلة في البلاد تكسح كل عدو خارجي اذا لم يكن في زماننا ففي زمان أولادنا

فقال مولي ولكن كيف يمكن هذا وقد قبضت الحكومة الحاضرة على كل موارد البلاد بحيث اصبحت وهي لا تملك حرية التصرف في شيء من اموالها ولا تدبير أمر من امورها الداخلية . ولئن اردنا الانفاق من ايراد البلاد على ما يحسن مواردها ويربي في النفوس ذلك الميل الذي اشرتم اليه وجدنا من الحاكمين معارضة قاهرة وأمكن لهؤلاء الحاكمين ايضاً ان يجدوا من ابناء البلاد انفسهم ما يحسب سداً منيعاً امام كل مشروع من هذا القبيل

فقال يوسف صحيح ما تقول من ان القوة للحاكمين ولكن اعلم ان للمحكومين قوة اخرى تفوق هذه القوة بما لا يقاس وهي قوتهم كلهم اذا اجتمعوا على رأي واحد واحكموا التدبير . ومهما يكن من تلك القوة الخارجية فان رجالها الذين يديرونها أقل من اهالي البلاد ولا يعسر على هؤلاء الاهالي ان ينشئوا من اعمالهم الخصوصية ما يحسن احوالهم الداخلية ويوجد قوة تضرب على كل قوة . ولكن انشاء هذه القوة يحتاج

Digitized by Google Original from HARVARD UNIVERSITY

الى وقت طويل وصبر جميل . نعم انه قد يمكن ان يكون في البلاد ما يكفي للتغلب على الاعداء النازلين فيها اليوم ولكن لا يلبث هؤلاء الاعداء حتى يستمدوا معونة اخرى من حكومتهم لا تبقي ولا تذر . فاذا أحكم التدبير الداخلي وسار رؤساء الاحزاب بعقل وصبر لم يكن استقلالهم المنتظر مائتاً أو موقتاً سريع الزوال . وكثيراً ما يكون الانتصار الموقت شراً من الرضوخ للاستعباد لان القوة الحاكمة لا تلبث بعد الانكسار ان تجدد قوتها وتزيد الاهالي ضيقاً على ضيق ثم تنتبه الى أميالهم وتضع العثرات أمامهم فتؤخر موعد الاستقلال من أيام الى أعوام ومن أعوام الى أجيال طوال

وكان مولي قد أوصى صديقه رالي الذي معه ان يفتتح الحديث المتعلق بماري مع يوسف ورأى رالي ان البحث في استقلال البلاد قد طال وسمع منه ما يكفي للتغطية على الغرض المطلوب فقال ليوسف ان كل ماسمعناه منك عن الاستقلال جدير بأن يعول عليه ولا يلتفت الى سواه فاسمح لي الآن أن أسألك سؤالاً معترضاً أريد القاءه اليك عن انفراد . فقام رالي وابتعد قليلاً وفي قلبه من الآمال شيء كثير لانه لم يخطر قط في باله ان الرجل الذي نجاه من الموت يرد له مثل هذا الرجاء

قال رالي ليوسف قد رأيت صديقي مولي وعرفت ولا ريب شيئاً من أطواره . ولا أقول لك انه خاطر بحياته في سبيل انقاذك لان هذا أمر كان واجباً عليه ولا يظنه منة أتاها عليك . ولكن مخاطرته هذه تدل على مقدار ما عنده من الشهامة والفضل وعلى انه ممن تستحب معاشرتهم ويركن اليهم في الملمات . وقد سبق له ان سأل عن ابنة عمك ماري وقصد الاقتران بها لعلمه انها من بيت عريق في الحسب والنسب وانها منسوبة اليك وهو كما تعلم يجل قدرك اجلالاً عظيماً . ولكن أباها رفض يومئذ رفضاً باتاً وعلم واياي انك أنت الذي أشرت بوجوب الرفض لان صفاته لا تؤهله لذلك . أفلم تر الآن من صفاته هذه ما يؤهله لها تأهيلاً تاماً وهل ترى في البلاد كثيرين يليقون لها مثل هذا الصديق

Digitized by Google Original from HARVARD UNIVERSITY

الفصل الثامن

حديث عن الزواج

بين يوسف ومنتقديه

رأي في المروءة

لما القي على يوسف ذلك السؤال المنشور في منتهى الفصل الماضي أطرق طويلاً في الارض ووقع بين عوامل كثيرة جعلت مركزه بين أيدي منتقديه أحرج منه بين أيدي خصومه ومضايقيه . ولا عجب في هذا فقد تكون محاولة التخلص من عداء المبغضين اصعب من محاولة الابتعاد عما يغضب المحبين . وقد فطن حينئذ ان بيت القصيد في تلك المروءة التي نالها بواسطة ذينك الشابين كان راجعاً الى هذا السؤال وعلم ماطالما ردده في ذهنه من ان المروءة الخالصة أبعد الصفات عن طباع الآدميين . وقال في نفسه لقد اخطأ الذين يفضلون الانسان عن الحيوان في كل صفاته ويجردون الحيوان من كل صفة تفضل عما يقابلها في بني الانسان

فقد رأيت الكلب يسعى الى انقاذ صاحبه ولا يسعى الى تحميله على اعطائه كسرة من العيش جزاء هذا الصنيع بل هو ينتظر لعله يعطيه فاذا لم يعطه لم يؤذه . ورأيت النملة تنقذ أختها النملة اذا وقعت في ضيق وتساعدها اذا عجزت عن خزن طعام الشتاء ثم تذهب في سبيلها بدون انتظار لمقابلة المثل بالمثل . ورأيت سباع البر تأتي المروءات بعضها مع بعض فيطعم القوي منها الضعيف وينقذه اذا وقع في محظور ثم يلوي على وجهه الى برية أخرى قد لا يعود منها طالباً رد هذا الاحسان . وقد يأتي السبع مروءة مع من القى سلاحه من الناس انفسهم ويتركه يسير حرّاً غير منتظر منه رد الجميل . ورأيت من معشر الطير فئة السنونو تدل اخوتها على المراعي الخصيبة وتتركها طائرة الى بعيد البلدان ولا يبدو منها انتظار لرد الاحسان — ذلك كله رأيته ورأيت اكثر منه في معاشر الطير والحيوان وأما الانسان فلم اره كذلك مع اخيه الانسان — بعيد ان يأتي هذا الجنس جميلاً ولا

Digitized by Google Original from HARVARD UNIVERSITY

ينتظر ما هو أجل أو قلما يأتي أمرًا الا انتظارًا لعدة أمور . هما انقذاني مما كنت فيه وياعظم مافعلا ولكنهما لم يخلصاهذه المروءة البالغة فقمدا الي يحرجان صدري بطلب المحال . ولقد كان يفضل عندي ذهابي طعماً حراماً لذلك الحاكم الظلوم عن وقوع تلك البنية المسكينة في يد هذا الشاب المشوم. فلئن مات مثلي جاء موته بعد ان شبع من الحياة ثم هو لم يشعر بشيء بعد الممات واما هي فتي وقوعها بين ذلك الوسط الشرير قصف لغصنها الزاهر في اول ايامه وموت مقيم في حياة تحس وتتألم وما أتعس نفس منيت بهذين ممات وحياة

***

طال على رالي انتظار الجواب ورأى يوسف متماديًا في الاطراق فقال له لعلك رأيت في الامر صعوبة خفت ايضاحها ولكني أرجوان لا تخفي شيئًا عما يجول في صدرك لاننا حين سألنا هذا السؤال لم نفرض ضرورة اجابتنا اليه. فأجاب يوسف صدقت في ما ظننت ولكن الصعوبة التي اعترضتني اليوم قائمة في محاولة جعل الجواب على سؤالكم في مكنة يدي لاني أراه في أيدي سواي . وأنت تعلم ان الفتاة التي تسألني عنها رشيدة يمكنها اعطاء رأيها في هذا الامر وان لها والدًا هو أقرب اليها مني ولهذا فان اخراج المسألة من أيديهما الى يدي أمر بعيد الامكان . فلو كنت صاحب الشأن لأجبتك بما أرى أما الآن فلا اظنني قادرا على اعطاء الجواب الصريح ولئن أعطيته لم آمن مغبة انكاره منهما فأخذل ولا تستفيدان . — قال يوسف هذا وابتعد عن الرجل ليتمشى قليلا فعادت العوامل الى منازعته ولا سيما ما كان متعلقًا منها بالواجب ومراعاة الخاطر . فقال في نفسه أما الواجب فيقضي بأن لا اتداخل في امر كهذا له اصحاب معروفون ولئن تداخلت دعتني الذمة الى رفض الطلب رفضاً باتاً لاني لا أرى العروسين متكافئين . وأما مراعاة الخاطر فتقضي بأن أجيب الطالب الى ماطلب اوان اسعى الى تحقيق امنيته لانه بحشم سأل هذا السؤال ولئن لم افعل ذلك عده مني خروجاً عن مقابلة المروءة بالمروءة والاحسان بالاحسان . على ان الحقيقة

بيت القصيد في كل دعوى او انها يجب ان تكون بيت القصيد . فاين تقوم هذه الحقيقه هل في الواجب أو في مراعاة الخاطر ؟؟ أما الواجب فواجب وفيه الحق وكل الحق واليه يجب ان تتجه خطة السير في كل حال . وأما الخاطر فلا شيء غير انه خاطر يجب ان يخضع للواجب الذي هو الحق والا كان خاطرا خاسرًا شأن كل خارج عن الحقيقة الواجبة الاتباع . نعم انه قد تحسن مراعاة الخواطر أحيانا والضرب على الواجبات ولكن ليس في شأن كهذا تتوقف عليه حياة انسان . ولئن اشتريت ذلك الخاطر كان ثمنه فاحشاً جداً لا تكلفني بدفعه مروءة ولا يقضي به عليّ واجب احسان . فأين خاطر شاب كهذا يمكن له ان يعيش بدون ماري من فتاة كهذه اذا أعطته يدها عاشت عمرها في نكد مقيم . وربما خدمت نفسي اذا راعيت ذلك الخاطر لاني احسب عند ذلك من ذوي المروآت ولكني اكون في الحقيقة خارجاً عن واجب المروءة الحقيقية بايثار نفسي عن نفس الفتاة . ولئن اعطيته يدها لمجرد التقرب منه كان شأني شأن الوالد الذي يتاجر بابنته عند واحد من الكبراء لم يشتهر بفضل ولا بطيب خلق ولكنه من اصحاب النفوذ والاموال فيعطيها اياه ليشاركه في نفوذه وينتفع باموله وان حاقت بابنته انواع المكاره والخطوب . اذن فاين ذلك الوالد من المروءة وكيف يحسب عمله حقاً وهو خارج عن كل واجب وصواب . وكيف يليق بمثلي ان يتاجر بتلك الفتاة ويقدمها ثمناً غالياً ابتغاء رضى ذلك الشاب . حسن ان تكون المتاجرة بالاموال لا بالنفوس فقد يمكن ان تعوض خسارة تلك واما هذه فلا تقبل التعويض

ما اقل مروءة الاباء والاقرباء الذين يجعلون بناتهم محطاً لهذه الاهواء . انهم يعجزون عن نيل الرفعة بايديهم فيلتمسونها من هذا الاناء الضعيف . كلمة واحدة اقولها الآن امام هذا الطالب او يقولها والد ماري كافية للقضاء على حياة انسان . نعم ان مولي قد يكسب عائلتها نفوذاً ليس لها الآن او ان رفض طلبه قد يجر عليها الشقاء ما دام على هذا الطبع الذي عرفته الآن وهو استخدام قوته لنيل آماله ولكن ليكن ذلك النفوذ كيفما يكون وليبق هذا الشقاء حليفها الى منتهى

الايام ولا تلقي بيدها الى تهلكة تقول من بعدها بيدي لا بيد سواي فلا يكون ثمت سبيل الى تخفيف الاحزان . ويا ليت شعري ما الذي يدعوني الى الارتباك في امر كهذا وما اشترط علي ذلك الشابان حين انقذاني بانهما ينقذان نفسي في مقابل اهلاك نفس اخرى هي نفس ماري . اوما الذي يدعوني الى عدم التصريح لها بما يجول في الخاطر وعاقبة التصريح في موضوع كهذا أأمن من المداهنة والمداراة. لقد يمكن ان احيل الطالب على والد الفتاة او الفتاة نفسها ويمكن لهذا الوالد اولها احالته علي فيسأم من نفسه ولا يعود الى الرجاء . ويمكن المخادعة بالتسويف من يوم الى يوم اوبانها مخطوبة لسواه او ان وقت زواجها لم يحن اليوم او ان الفتاة لا تقبل او ما شاكل هذا من اشكال المواربة والدهاء . ولكن ما لنا ولهذا كله واشرف منه وافضل عاقبة ان يقال بان هنالك ظروفاً خصوصية تمنع من اجابة الطالب وليس للطالب ان يضطرنا الى ايضاح الظروف

عول يوسف على هذا الجواب ثم عاد الى رالي فبثه اليه قائلا لقد كنت اتمنى لو لم تكن تلك الظروف لتزيد الالفة بيننا ولم أشأ ان احيلك على والد الفتاة كما اردت اولا لاني رأيت بعد الامعان ان هذا سيكون جوابه الوحيد وهو ان لديه ظروفاً خصوصية تمنعه عن اجابة هذا الرجاء .

{ القضاء والقدر }

فقال رالي ليسمح لي سيدي ان اسأله ايضاح شيء من هذه الظروف اذا لم يكن كلها لعلنا نستطيع تذليلها ولا يكون بيننا ما يدعو الى شيء من النفور . فقال يوسف في نفسه لقد جاء ذكر النفور منذ الآن ولا عجب فهذه نهاية كل الفة بنيت على اغراض شخصية مهما ظهر في البدء انها ذات اساس متين . ولكنه رأى ان يخاطبه بلغة الشرق المرعية عن القضاء والقدر وهي اوقع لغة على مسامع الشرقيين حتى يجعل ذلك القضاء حكماً لا يقبل حكمه الاخذ والرد فاجابه بقوله وعلى م تبدأ بذكر النفور ومعاذ الله ان يختلف رجال مثلنا جعلوا الدماء العزيزة واسطة لميثاقهم من اجل فتاة . واعلم اننا مسوقون بيد علوية تدير هذا الكون وما

فيه بسنة تعرف بالقضاء والقدر وهي سنة صادقة لئن ظهرت انها مخالفة لصوالحنا في بعض الظروف فانها بلا ريب موافقـة لنا كل الموافقة وليس علينا الا الامتثال لها والرضوخ لما تريد . وربما رأيت امرًا ظننته مفيدًا لك وسعيت جهدك في الحصول عليه ولكنه في الباطن غير مفيد فاذا كنت عاقلاً وجب عليك التسليم . ألا ترى انه وان تكن ظواهر ماري تدل على انها موافقة لمولي ولكنها قد تكون في الباطن مخالفة لصالحه كل المخالفة خذ لهذا مثلاً ذلك الشاب الذي كان قاطنًا بجوارك منذ عشرة أعوام واسمه جورج كيف انه هام في حب ابنة عمه هيامًا تضرب به الامثال وكانت ممتنعة عليه لعداء بين أهلها وأهله فلما تغلب على الصعوبات لم تلبث شهرين معه حتى اعترتها اسقام شديدة مررت حياته ثم ماتت بعد عام . ولا ريب انه لو كان يعرف هذه النتيجة لما سعى كل ذلك السعي ولترك الامر لصاحب الاقدار لانه يرى من المستقبـل مالا نراه . وخـذ رجلاً آخر قد تعرفه أيضاً وهو سميك ومن بلدتك كيف انه اقام حربًا عوانا في سبيل فتاة امتنعت عليه حتى اذا نالها بعد ان اهرق من اجلها دماء كثيرة كانت له سببًا لنكد الحياة ومرارة العيش لانه ظهر بعد انها شكسة الطباع مع جمال منظرها ولم تلبث عامًا واحدًا حتى اصيبت بداء الجنون وهي مقيدة الى اليوم كما تعلم في ظلمات السجون . ومما لا اظنك ترتاب فيه ان ذلك الشاب اصبح يتمنى لو لم يبذل في سبيلها شيئًا من ذلك السعي لانه انتظر منها السعد وهناء الحياة بالنظر الى ظواهرها فكانت في الباطن الخفي الا عن الاقدار اكبر سبب في بلاياه . واذا غضضت النظر عن القضاء والقدر او كنت ممن لا يتعلقون بأذياله فافرض انه المستقبل واعلم ان ما تتوقعـه اليوم قد ينقض امالك في الغد فلا تتعلق بأمل كل التعلق واكتف بنظرة توجهها اليه ثم حاول الحصول عليه فاذا استعصى بعد الجهد كان من العقل ان لا تأسف لانك لم تؤت علم الغيب وقد يكون كله ويلا عليك مهما دلت ظواهره على نفعه وضرورته لديك . وطالما رأيت كثيرين اقترنوا بفتيات لم يهيموا بهن كل الهيام وبلغ بالبعض منهم الى انه اسف للاقتران بمن وقعت من نصيبه منهن ثم ظهر بعد انهن كن اوفق الفتيات لهم من كل الوجوه .

اعرف شابا احب فتاة حبا يقرب من العبادة أو يزيد وخطبها من ابيها فقبل حتى اذا جاء وقت القران ابدلتها عائلتها باختها مكرا وخداعاً لانها كانت اصغر منها. والعادة كما تعلم عند العائلات غالباً ان لا تسلم في زواج الصغيرات من بناتها قبل الكبيرات. فلما انتهى عقد الاكليل رأى محياها فاذا هي ليست تلك الفتاة التي ملكت قلبه فحزن حزناً مبرحاً وعزم على بث شكواه عند اهل الشرع ولا سيما لان التي صارت من نصيبه اقل جمالا من تلك بما لا يقاس . على انه كان من ذوي التساهل وممن يريحون انفسهم بوضع احمالهم على عاتق الاقدار دون عواتقهم فسكت عن الشكوى وكظم الغيظ صابرا صبر الكرام . ويا ليلة سوداء حضرت فيها المصالحة بينهما وقد ثار من قلبه ما كمن من الغيظ ولا سيما بعد ان رأى الفتاة الاخرى قد اقترنت بسواه فقد سمعته يلعن الساعة التي طلب فيها ذلك الاقتران وتمنى لو لم يعش يوماً من بعد ذلك الان . على انه لم تمض خمس سنوات بعد هذا التاريخ حتى رأيته يحمد الساعة التي اقترن فيها بأمرأته دون الاخرى لانه رزق منها بزينة الحياة الدنيا وسرته سجاياها واما الاخرى فظهر انها عاقر من فطرتها وهو اليوم يتمتع بابنائه واما الاخر فيحرم من اهم آمال الحياة

ومرادي من هذا كله واضح هو انه ربما كره الانسان أمرًا وكان هو خيرًا له أو أحبه وكان سبباً لمرارة دائمة دامية . ولكن لما لم يكن لنا غير الظواهر كانت آمالنا متجهة دائماً الى ماتظنه خيرًا . ونحن لا نلام في هذا لان مداركنا أقصر من أن ترى غير المنظور ولكن على العقلاء منا ان لا يأسفوا اذا سعوا في أمر كهذا ولم ينالوه لانه ربما كان ملؤه شرًا يظهر على توالي الايام . وربما كان اهتمام مولي بتلك الفتاة من هذا القبيل ولم تكن موافقة له وان دلت ظواهرها على موافقتها فعليه اذا كان عاقلاً ان لا يأسف لفواتها من يده بعد الاجتهاد في الحصول عليها

وكان رالي يسمع هذا وهو يردد في خاطره اخفاق سعيه وسعي صديقه قائلاً لقد عرضنا نفسينا لخطر الموت في سبيل رجل كهذا لا يعرف قيمة للجميل . ولكنه

كان من ذوي الثبات فلم يكن يترك ساقاً الا ممسكاً ساقاً وساقين . فعاد الى محاججة يوسف قائلاً لقد تركتنا تحت رحمة القضاء والقدر وحاولت ابطال الجهاد فلو كان كل انسان يقول ماقلت ويترك أمره للاقدار لبطل السعي في هذاالوجود وانتفت سنة طبيعية لاتحوّل ولا يعتريها الزوال . وما أدراني ان الخير كله في ماري وليس في فتاة أخرى من بنات حواء . والا يصح القول ان هذه الاقدار نفسها هي التي قضت بهذا السعي لديك وقضت بأنك تحاول ارجاعنا خائبين ثم قضت ان نظل ثابتين على الالحاح في طلب الفتاة حتى ننالها . فاذا صحت الاقدار كنت مسوقاً منها الى الالحاح عليك حتى تبذل ما في الوسع وفوق الوسع لتنيلنا هذا المراد . واذا كنت تطلب منا ان لانغضب اذا اخفق سعينا في طلب الفتاة لانه هكذا قضت الاقدار فلا جناح علينا اذا طلبنا اليك أيضاً ان لا تغضب منا اذا اشتد عليك هذا الالحاح لاننا انما نحن مسوقون اليه قسرا بهذه الاقدار

فاجاب يوسف على الانسان ان يلح ما استطاع للحصول على امر يظنه خيرا ولكن هذا اذا خفيت عنه نتيجة الالحاح لانه ربما ناله واما اذا هو علم بتلك النتيجة ولم يبق ريب عنده في انها تنتهي الى اخفاق مسعاه فمن الحكمة ابطال هذا الالحاح . وقد قلت سابقاً وأقول الآن ان هنالك ظروفاً خصوصية تمنع عائلة الفتاة من اجابة مولي الى ما يريد فلا أظن الالحاح آتياً بنتيجة غير التي عرفتها الآن . ولو كان كل انسان يعرف نتائج سعيه سواء بالنجاح أو بالفشل كما تعلم أنت اليوم في سعيك هذا لسكت واستراح كما يمكن لك اليوم ان تستريح . واعلم اني لا انسى فضلك وفضل صديقك علي لانقاذي من ايدي الظالمين ولكن هذا جميل ربما امكنني رده من طريقة اخرى غير اجابتك الى ما تطلب من هذا القبيل فاذا عجزت عن رده فليتول الله عني مكافأتكما بما فيه الخير الجزيل

ورأى رالي ان لا فائدة من الالحاح فاستأذنه باحضار مولي وذهب اليه فوجده متقلباً على نار الانتظار شأن كل من هام هذا الهيام . ورفع مولي نظره اليه فلم يجد من منظره ما يدل على نجاح المسعى ولكنه تجلد وسأله فأجابه رالي

لقد انتقلت مسألتك من رحمة يوسف الى رحمة لاقدار وعلى هذا تركتها الآن. فقال مولي حسناً كان ذلك لان الوقوع تحت رحمة القدر خير من الوقوع تحت رحمة الناس . قال رالي فليكن كذلك ولكن عليك اذن ان تصبر حتى تنبئك الاقدار بما سيكون لانه ظهر لي انها لاتريد البت في المسألة الآن . فقال مولي لاتخف عني الصحيح فقل ما انت قائل ولا تستتر بستر الاقدار . قال رالي قم أنت وناقش يوسف لعلك تدرك منه اكثر مما ادركت . فاجابه وما الذي امكنك ادراكه . قال رأيت يوسف لا يريد وقد حاول اخفاء قصده بقوله ان هنالك ظروفاً تمنع من اجابتنا الى هذا السؤال . فاشتد غضب مولي ولم يتمالك ان صرخ قائلاً اذن ويل له من رجل ناكر المعروف . أفلاجل فتاة طلبناها لترفع شأنها وشأن عائلتها ينسى مخاطرتنا في سبيله بما عندنا من مال وروح

فقال رالي ليس من حسن السياسة ان تظهر الغضب في مثل هذا الموقف فان نيل الاماني يقتضي التأني والصبر وكظم ما في الضمير . والرأي عندي ان نذهب اليه سوية ونعود الى مناقشته بالتي هي احسن لنعلم السبب الذي دعاه الى قول ما قال فاذا تبين لنا انه لا يزال مصرا على رأيه وانه لا فائدة من الرجوع الى والد الفتاة كان لنا تدبير آخر قد تروح فيه ارواح

***

وكان مولي هذا يحب الفتاة حباً مفرطاً لما رآه فيها من جمال نادر المثال فضلا عن ذكاء تضرب به الامثال . وقد كانا يلعبان معاً صغيرين فتأصل حبه لها واما هي فلم تمل اليه ولو بعض الميل . وقد خالفت بذلك قاعدة تعرف في المثل بقولهم « من القلب الى القلب رسول » وظهر من نفورها منه وحبه لها ان المرء قد يحب ولا يحب ولا عجب في هذا فان رالي رأى من ماري ما يدعوه الى حبها وأما هي فلم تر منه ما يدعوها الى الميل اليه . وماجاز فيهما يجوز في غيرهما من الناس .

والرجل باعتبار هذا الامر رجلان : — رجل يتمادى في حب غيره اذا رأى الميل متبادلا فاذا بدا من هذا الغير اعراض قابله بمثل هذا الاعراض وسار على مبدأ عزة النفس . فاذا كان هذا المحب طيب العنصر ترك ذلك الغير وشأنه . أو كان خبيثه سعى الى مجازاته على هذا الاعراض وأبدل الهيام بالانتقام . — ورجل يزيد حبه للغير كلما اعرض عنه وان يكن اعراض الكراهة لا اعراض الدلال . ومثل هذا من أبعد الناس عن مبدأ عزة النفس وحفظ المقام . فاذا كان هذا المحب سهل الاخلاق أو ضعيف الحول والطول تذلل الى ذلك الغير وبذل ماء الوجه في ارضائه . أو كان ذا قوة استخدمها في جذبه اليه ولم يهتم لما سيكون من المستقبل معه ولو يكون نفورا في نفور — وكان مولي ثاني الرجلين لانه عرف اكثر من مرة ان ماري لا تهواه ولكنه كان ممن يستخدمون قوتهم في كل شيء حتى في ما لا تنفع في امره قوة كالحب الذي لا يخرج عن مجرد عواطف وأميال .

قام رالي الى يوسف وقلبه متقد نارًا لانه كان ككل محب كثير الرجاء . ولكنه رأى ان يتجلد امامه اولا ولا يظهر الميل الكلي الى تحقيق امانيه فجلس اليه يسأله صحته وما لقي في خلواه متظاهرًا بانه مستعد للدفاع عنه الى آخر نقطة من دمائه لالشيء الا لانه يستحق هذا الدفاع . فشكر له يوسف هذا الاحساس وقال له ليتني كنت قادرًا على مكافأتك على ماعملت وما تعمل فاني على ماترى قليل الحول والطول ولا شيء في الارض يستحق ان يكون مكافأة لك على هذا الصنيع . ولكني اعلم ان كل ذي مروءة مثلك لا ينتظر عن صنعه بديلاً وان لك من نجاح مقصدك في انقاذي اكبر جزاء . انت خاطرت بنفسك في هذا السبيل ولا شيء بعد النفس وعرضت غصنك للقصف قبل الاوان فكل جزاء يستطيعه مثلي قليل في جنب هذا الاحسان

فلما سمع رالي هذا الشكر خشي ان يعيد حديث الزواج لئلا يكون مخالفًا لظن يوسف فيه ويضيع فضل هذه المروءة فاقتصر من الحديث على رد الشكر وعاد فاقسم باغلظ الايمان انه لم ينقذه الا لحسبانه اياه رجلاً فاضلاً اذا ناله

Digitized by Google Original from HARVARD UNIVERSITY

ضر خسرته البلاد . وقام هذا القسم لدى يوسف دليلاً جديداً على ان الرجل ينطق بما لا يضمر لان الصادق في دعواه قلما يرى نفسه في حاجة الى الاقسام . ورغب يوسف بعد هذا في التخلص من ذلك الحديث وفتح حديث آخر فرأى من رالي اعراضاً عن سماعه والاشتراك فيه لانه كان ممن لا يعرفون الصبر ولا يحسنون سياسة الاحاديث . وعليه اشار الى صديقه مولي اشارة خفية ليعود الى مسألته . فالتفت مولي الى يوسف وقال يظهر لي ان صاحبنا يحب ان يكون في مسألته واقعاً تحت رحمتك لا رحمة الاقدار . فقال يوسف ليتني كنت قادراً على تحقيق امانيه ولو ببذل النفس فاني اذا فعلت هذا لم آت الا ببعض مايجب . ولكني أرى الاقدار احكم منا معاشر البشر وابعد نظراً فمن الحكمة ان يقع المرء تحت رحمتها لا رحمة سواها اذا استطاع . ولا أرى بداً من اعادة ماقلته لك وهو ان ماري لم تخلق لرالي ولا خلق رالي لماري . فحول رالي وجهه عن يوسف لانه لم يتمالك عن الغيظ ولم يشأ اظهاره له وعاد فقال صدقت فان مثلي لا يستحق ان يشارك مثلها . فاجاب يوسف لم اقصد بما قلت انك لا تستحقها او انها لا تستحقك بالمعنى الذي فهمته لانكما من عائلتين متكافئتين في الوجاهة واليسار . فقال رالي فهمت الآن انك لا ترانا متكافئين في غير ذلك وهذه اول مرة علمت فيها انك تنظر الي بعين الاحتقار وان نظرت الى صنيعي بعين الوقار . فاجاب يوسف كيف يكون ذلك وما كان المرء الا بصنيعه . فقال رالي كان يجب ان يكون كذلك ولكنك رأيتني على ما يظهر شديد البطش في الحادثات فظننتني كذلك في المعاملات . قال هذا ولم يستطع الثبات فهم مغضباً ونسي كل علاقة له مع يوسف وتحول الهيام الى رغبة في الانتقام . وكان ممن اذا غضبوا ضاع صوابهم وصاروا اقرب الى الوحشية منهم الى الانسانية فلم ير جناحاً عليه ان يتركه وحده في هذه الخلوة ويجعله معرضاً لانظار الذين يفتشون عنه من رجال الحكومة واقسم في نفسه ان لا يعود عن اخذ ماري بالقوة مهما كلفه هذا او عرضه للاخطار . وعلى هذا عقد النية وسار الى حيث جمع بعض اخوانه الاشداء وتربص لاهل ماري في خروجهم من منزلهم الى تلك

Digitized by Google Original from HARVARD UNIVERSITY

القفار فحدث بينه وبينهم ماتقدم ذكره من الوقائع الدموية حتى اختطفت ماري

الفصل التاسع

ماري بين أيدي خاطفيها

لما خطفت ماري ضاع صوابها اي ضياع ولا سيا لانها رأت انها عاجزة عن الانتحار تخلصاً من الاسر والعار . وكان الرجل الذي اختطفها هو مولي صديق رالي انتهز فرصة اشتباك المقتتلين وفر بها الى وسيع الخلاء . ولم يبق لها أمل في النجاة ولكن ضياع صوابها خفف عنها هذا المصاب فلم تعد تشعر كثيراً بعظم ما هي فيه . ورأى مولي تغير حالتها فخاف العاقبة ولا سيا لان رالي لم يكن اقبل عليه بعد اذ كان مشتبكا مع المقتتلين . فأنزلها الى بقعة في الخلاء لا يقربها انسان ولا حيوان وقعد لديها متصاغراً يلاطفها بأرق الحديث ويطمنها على حياتها ولكنه لم يسمع منها رداً الا انها كانت كلما قصدت التكلم انعقد لسانها وخنقتها العبرات . وكانت تمد بنظرها يميناً وشمالا وقد لاحت عليها علائم الجنون فزاد حزنه لاخفاق سعيه وسعي صديقه أي اخفاق وتركها قليلا ليزيل خوفها فوقف على رابية ينتظر حضور رالي بفارغ الصبر وطال الانتظار ولم يحضر فأوجس خيفة ان يكون حل به مكروه في القتال . ولم يكن حاملا معه شيئاً من الزاد والماء فزاد ارتباكه لانه كان بعيدا عن مواطن العمران . وكادت الشمس تغرب وهو على ذلك الحال وقد تنازعته عوامل الاضطراب حتى كاد يفقد الرشد ويضيع الصواب . ولكنه خشي ان تموت الفتاة جوعاً أوعطشاً فهام على وجهه يطلب رزقاً وتركها تحت رحمة الاقدار فما زال يضرب في الارض حتى أقبل على كوخ بعيد فدنا الى ساكنيه وطلب اليهم ان يمدوه بقليل من الماء والزاد . فقالوا له هل عندنا هذه الليلة وانزل ضيفاً كريماً لانه ليس من الحكمة ان تسير الآن وتعرض نفسك لاخطار الليل ولا سيا لان الموضع الذي تقصده كثير المخاوف والاهوال . فزاد خوفه على الفتاة وهي في خلوتها وتنازعه امران بين ان يأخذ ما تيسر من الماء والزاد ويعود

Digitized by Google Original from HARVARD UNIVERSITY

الى الفتاة ليبيت ساهرا عليها في ذلك القفر أو ينبئهم بشيء من أمره فيعاونوه على احضارها لتنزل عندهم وتبيت . ولكنه فضل ثاني الامرين على ان لا ينبئهم بأمر الفتاة وقال لهم لقد أمسي علي الوقت وكنت مع شقيقتي قاصدين بلداً بعيداً فأعياها التعب واضطررنا الى البقاء وهي الآن في موضع بعيد اذا سمحتم لي بالذهاب اليه لاحضارها وصحبني بعضكم زدتكم شكرا على شكر . وفي أهل البادية مروءة ليست في سواهم فلبوا طلبه مع انهم عزل من كل سلاح وصحبه اثنان منهم حتي وصل ذلك الموضع فوجد الفتاة نائمة مطمئنة كأنها أمنت كل الاخطار . وأين الخوف من هذه المسكينة وقد فقدت وجدانها والشعور — فتاة مهما يكن من قوة جنانها رأت الموت مجسما امام عينيها واباها يعالج سكرات الموت وشرفها معرضاً للضياع وقد اصبحت بين طغمة من الاشقياء تجردت عن كل مروءة صحيحة وحنان — ضاع عقلها فزين لها ان المخاوف أمان وأطمأنت الى موضع موحش يفزع منه الوحش ويخشاه اشجع الشجعان

دنا اليها مولي وايقظها فاستيقظت مذعورة وظنت انها في حضرة ابيها وهو متألم من جراحه فنادته باكية ماذا يؤلمك يا أبتي ليتني كنت فداك . فظنهما ساكنا الكوخ في حلم ولكنهما ارتابا فيما رأياه وبدأا ينظران اليها والى مولي بعين التقد والريب . ولم يخش مولي ان يفتضح امره لانه رأى الفتاة في غيبوبة لا تستطيع معها الانباء بما حل بها فبعد ان قدم اليها ماأحضر من ماء وزاد حملها الى ظهر الجواد وسار يتبعه ذانك الشخصان حتى وصلوا ذلك الكوخ

ورأى سكان الكوخ جمال الفتاة فبهرهم وحالها فقهرهم فاحلوها محلاً رفيعاً من قلوبهم واسفوا لانه ليس في كوخهم مايليق لضيافتها حتى انهم لم يشعروا بمرارة الفقر شعوراً تاماً الا في ذلك الحين . ورأوا ان يقفوا على امر الفتاة فدققوا في مناقشة الرجل وطلبوا اليه ان يفصح لهم عن الحقيقة فلم يجبهم بغير ماقال اولا . وانفردت ربة الكوخ بالفتاة وسألتها عن امرها وما يكون من شأن ذلك الرجل معها فاجابت اجوبة مرتبكة متناقضة لا يستخلص منها شيء معقول . وكانت

تلك المرأة غاية في الشفقة والحنان فحزنت على الفتاة حزناً مفرطاً وخيل لها انها غريبة واقعة في اسر ذلك الرجل ولئن تركتها تسير معه بعد انقضاء الليل اتت ذنباً كبيرًا لا يقبل الغفران. فاستدعت رجال الكوخ وقالت لهم ما ادرانا ان تكون هذه الفتاة المسكينة اسيرة الضيف وليست شقيقته كما قال. فلست ارى في ملامحها مايدل على الاخوة ولا يعقل انهما كانا سائرين فمال بهما النهار على مايقول. والا فاذا كانت هذه شقيقته فكيف يسير بها وهي على هذا الحال. ان ملبسها ومنظرها يدلان على انها من بيت كبير ذي نعمة طائلة فلم يكن اقل من ان يصحبها خادم في الطريق وا كبر ظني ان وراءها سرًا خفياً لا يليق بنا الاغضاء عنه وانها واقعة في مصيبة افقدتها الصواب. والمروءة تقضي بأن تدبر انقاذها من يد هذا الرجل أو تتبع خطواتهما لعلنا نقف على سرها العميق. فقالوا ولكن ما عسى ان يفعل امثالنا ونحن لا سلاح ولا قدرة على الكفاح وربما كانت الفتاة شقيقته كما قال ثم مر واياها بهذا القفر لامر لا ندريه. فتركتهم المرأة وذهبت الى الفتاة لتقضي حاجاتها وتبذل مافوق الوسع لتخفيف ويلاتها وتحاول الوقوف من اقوالها المتقطعة على شيء من امرها فلم تهتد الى حقيقة ثم نامت واياها نوماً مضطرباً حتى الصباح

وكانت دلائل الاضطراب بادية على وجه مولي حتى انه لم يذق النوم في تلك الليلة واصحاب الكوخ من حوله يتأملون حالته ولا يجسرون على زيادة التدقيق معه في أمر الفتاة لانهم حسبوا ذلك منافياً لذوق الضيافة وحقوق الضيوف. فلما اصبح الصباح افاقت الفتاة من غيبوبتها قليلاً وعاد الى ذهنها ما كانت فيه وما امست عليه فكانت اول كلمة نطقت بها اين انا الآن ومن أتى بي الى هذا الكوخ. قالت هذا واغرورقت عيناها بالدموع واخذت تندب سوء حظها فسمعتها تلك المرأة واسرعت اليها وسألتها مابها فاجابتها بغزير الدموع. وكررت الالحاح عليها فابلغتها أمرها بقلب مضطرب لانها خافت ان يسمع مولي فيصب عليها جامات غضبه وينتقم منها شر انتقام. فطمنت المرأة خاطرها وقالت لها لئن كنا على ماترين من الفقر والمسكنة فان لنا قلوباً ارق من ان تتركك مع ذلك اللص

وانت على هذا الحال واشجع من ان تخاف منتقما مهما بلغ من الحول والطول . ثم قامت مسرعة واستدعت رجال الكوخ فابلغتهم تفصيل الامر قائلة لاعاش الناس اذا لم يخدموا بعضهم بعضاً في أوقات الملمات ولاعشنا نحن اذا لم تقهر ذلك الضيف الثقيل وانقذنا منه هذه الفتاة . وكانت هذه العائلة الساكنة في الكوخ من ذوات اليسار في بدء أمرها وقد عرفت بالنخوة والمروءة ثم جار عليها الزمان واقعدها في ذلك الكوخ الحقير بعيدة عن العمران ولكن لئن اضعف الفقر رجالها وأخلى أيديهم من كل قوة مادية فما زال بين اضلاعهم قلوب ملؤها الشجاعة الادبية . فاجمعوا رأياً على وجوب انقاذ الفتاة مهما كلفهم هذا من المشاق وقعدوا يتداولون في ما يجب عليهم عمله بالحكمة والسداد . وكان اول ما فكروا فيه تجريد الرجل من سلاحه وسجنه في موضع قريب من الكوخ حتى اذا أمنوا شره ذهب بعضهم الى أقرب مدينة واخطر حاكمها بالامر ليرسل من رجاله قوة تساعدهم على رد الفتاة الى بلدتها . فدخلوا اليه وجردوا سلاحه وأسرعوا فأوثقوه واعلموه ان ظلامة الفتاة لم تخف عنهم وانهم لولا الخوف من قصاص عتيد لعاقبوه بالاعدام على هذا الصنيع . فحاول مولي ان يتنصل من هذه التهمة وينسب الكذب الى ماري ولكن اقواله لم تلق اذاناً سامعة . وتقدمت عند ذلك ربة الكوخ فأوسعته تعنيفاً على ما عمل قائلة لقد ساقتنا العناية الى اتخاذ هذا الكوخ مسكناً وساقتك الينا في يوم أمس لنكون سبباً في انقاذ هذه المظلومة من يديك وأيدي اخوانك الظالمين . وفهم مولي حينئذ ان ماري أفاقت من ذهولها وشكت اليهم أمرها ولكنه في الحقيقة سر لشفائها وانقاذها لانه انما دفع على ما أتى بتأثير رالي وكان كثير الاسف لما وصلت اليه حالتها شديد الاشفاق عليها . واستسلم للرجال فساقوه مكبلاً الى حيث سجن وبقيت ماري في الكوخ تنيره بضياء اشراقها وتسحر أهله برقيق الحديث . على ان رجوع عقلها اليها كان مصاباً على جسمها لانها اصبحت كثيرة التفكير في ما وصلت اليه حالة ابيها بعد اختطافها فأخذت في الضعف يوماً فيوماً وكاد يسوء مصيرها لولا ما كانت تلاقيه من حسن المعاشرة وتستنشقه من

Digitized by Google Original from HARVARD UNIVERSITY

طيب الهواء . وقد خفف وحشتها وجودها في وسط ترتاح الى محادثته ولولا هذا لانفردت بفكرها في عالم الخيال واستسلمت لعوامل الاحزان

هذا وقد رأت ان تغدق بنعمها على ساكني الكوخ ولكنها خشيت ان يصادف فعلها استياء فامتنعت يوماً ويومين حتى اذا رأتهم يقطعون من الضعف قوة ويقدمون لها كل ما تحتاج إليه نادت ربة الكوخ وطلبت اليها ان تأخذ شيئاً من حليها وترسله مع أحد ابنائها لبيعه والانتفاع بثمنه مظهرة انها هي في حاجة الى ذلك حتى لا تؤلم عواطفها ولا تحمله على محمل الاحسان لانه ليس اصعب على من كان في نعمة أودى بها الدهر ان يرى نفسه مضطرّا الى احسان المحسنين. فلبت ربة الكوخ طلب الفتاة بعد ان اظهرت لها ان الكوخ على حقارته ليس في حاجة الى احسان لان سكانه اصبحوا يكتفون بالقليل وما هو دون القليل . وسافر بعض الرجال الى بلدة ماري فقضوا اياماً كثيرة حتى وصلوا اليه ورأوا دلائل النعمة بادية عليه ولكنه في حداد لاختطاف ماري وحزن كبير لاشراف ابيها على الموت . أما أبوها هذا فكان قد وصل منزله بعد تلك الواقعة الاخيرة وهو على آخر رمق من الحياة لان الرجال الذين جاءوا أخيراً واقتتلوا مع عصابة رالي كانوا قد انتصروا على تلك العصابة بعد وصول نجدة كبيرة اليهم ثم حملوه وهو مثخن بالجراح وفي حزن شديد على اختطاف ماري

أما رالي فقد دبرت له الاقدار ما اقعده عن السير في طلب الفتاة لانه لما رأى رجاله وقد دحروا أمام اعدائهم وكادوا يفنون ثارت حمية الشبان في رأسه الى حد أنساه ماري واشتبك في القتال فما زال يقاتل مقاتلة الابطال حتى اصيب بجرح بليغ ألقاه على الارض يتخبط في الدماء . ولم يكن الجرح على هوله قاتلا فحمله الذين بقوا من رجاله الى حيث كان قبل القتال وهم يتوقعون له الموت من حين الى حين

* * *

عرف ساكنو الكوخ ان والد ماري في ضعف شديد فرأوا ان لا يفاجئوه بخبر وجودها حية بعيدة عن طغمة الاشرار لانهم كانوا يعلمون ان تأثير الفرح الشديد لا يقل هولا عن تأثير الحزن الشديد. فما زالوا يدخلون الخبر الى مسمعه بالتدريج حتى علم أن ابنته لا تزال على قيد الحياة مصونة الشرف الرفيع فطابت نفسه ونسي الضعف الذي هو فيه وأسرع فأمر الخدام باعداد ركب كبير يسير مع هؤلاء الرجال لاحضارها على ان يكثروا من معدات الدفاع تلافياً لطوارئ الحدثان . والتفت الى اولئك الرجل فأكرم مثواهم أي اكرام وحملهم من الهدايا النفسية ما أعاد اليهم بعض الشيء من عزمهم القديم . ثم قاموا يتبعهم عدد كبير من الرجال الاشداء مدججين بالعدة الكاملة حتى وصلوا الكوخ فرأوا الفتاة سالمة الامن بعض نوب عصبية تفاجئها من يوم الى يوم فتنطقها بما يظنه السامع عن جنون . وكانت عائلة الكوخ تظن هذه النوب عن فعل شيطاني كما يظن كثيرون وفيها افراد يدعون المقدرة على محاربة الشياطين وطردها من الاجسام فرأوا ان يتمموا هذه المروءة بمحاولة اخراج الشيطان من جسم ماري وطاوعهم في هذا كل الرجال الذين جاءوا من عند أبيها فضربوا بعض الخيام الى ما جاور الكوخ وقعدوا ينتظرون شفاءها

* * *

وكانوا قد علموا ان مولي خاطف الفتاة اصبح سجين اهل الكوخ فذهب بعضهم اليه لينتقموا منه على ما عمل فخافهم خوفاً شديداً ولكنه كان واثقاً من أنهم يعفون عنه اذا أظهر لهم حقيقة أمره وما كان مدفوعاً اليه من صديقه رالي . فأخذ يقص عليهم الامر منذ ذهب مع رالي الى ذلك الحاكم لانقاذ يوسف وكيف ان صديقه هام في حب ماري واراد الانتقام من أبيها لانه لم يشأ تزويجها اياه حتى جمع عدداً كبيراً من رجاله وكان ما كان من جرح أبيها واختطاف ماري ووصوله الى ذلك الكوخ .

الفصل العاشر

بحث في الرحمة والعدل

وهم بعضهم بعد سماع هذا الدفاع الى الانتقام من مولي فاعترضهم واحدمنهم اسمه مخالي قائلا ان للرجل عذرًا لا يقبل اللوم فضلاً عن الانتقام . فان ضعف ارادته ظاهر على محياه بدليل اصفرار وجهه ولين اعصابه ومن كان هذا شأنه كان سهل الانقياد ولو الى ما يؤذيه . والواجب في مثل هذا الحال ان تحفظ الدينونة لمن حرضه وأما هذا فيكفي لتأديبه شعوره بخطأه والذل الذي بات فيه

فاجاب احدالسامعين وكان اسمه ابروني قائلا ان اكثر ما يشاهدمن مصائب الناس ناتج عن سهولة الانقياد واتباع المحرضين في تحريضهم ولو لم يجد هؤلاء المحرضون قوماً ينقادون اليهم ما استطاعوا الاضرار بالناس على مثل ما نشاهد اليوم . فاذا حق القصاص على المحرضين لانهم كانوا المبتكرين للشر حق ايضاً على المنقادين اليهم لانهم كانوا واسطة التنفيذ ولولاهم ما نفذ ذلك الشر . وهذا امر واضح مما نحن فيه لانه لو لم يجد رالي رجلاً سهل الانقياد مثل مولي لما استطاع تنفيذ مأربه في هذه الفتاة ولما رأيتموها اليوم في هذا الكوخ . وعليه فالذي اراه ان يعاقب هذا الرجل بما يستحق وان يكون عقابه على ايدينا اليوم لانه ليس لنا من حكومتنا ما يضمن تأدية العقاب . ولئن تركناه حرًا اخطأنا ضده نفسه وضد الهيئة الاجتماعية خطأ لا يقبل الغفران ذلك لان رجلاً مثله شب في ما نرى من المفاسد والشرور بعيد عليه ان يتأثر الا من عقاب بدني يعيد اليه ذكرى ما فعل من حين الى حين . ولئن ترك حرًا لم يجد في تاريخ حياته وجزاء اعماله ما يردعه عن مثل ما عمل فيسيء الى نفسه والى المجتمع الذي هو فيه

وكان مخالي يريد انقاذه من القصاص لانه رأى منه حرية في النطق بما صار وشاهد شدة ندمه وتأثره الى حد ظنه عن توبة حقيقية واستغفار فقال لطالب القصاص ان الحرية التي رأيتها في مولي يجب ان تقوم شفيعاً لديه لانه اظهر لنا

Digitized by Google Original from HARVARD UNIVERSITY

خبئات كثيرة لم نكن نعلمها وبها استطعنا الوقوف على المرض الاصلي الذي يستحق العقاب . ثم ان ندمه الظاهر على محياه دليل على انه قاصص نفسه بنفسه ولقي من ضميره تأنيباً يزيد هوله عن كل قصاص . وهب انه لم يندم ولم يتب فان الرفق به واجب لما نرى في ملامحه من ضعف الارادة على ما تقدم وفي عينيه الواسعتين من البساطة والميل الى الاخلاص . واذا كان الله جل جلاله قد جعل الرحمة فوق العدل وعلى هذا جرى مع خلائقه الضعفاء فأحر بهذه الخلائق ان ترفق بعضها ببعض وتجعل للتسامح محلا كبيرا ولا سيما عند التوبة والاستغفار . وعليه فما زلت ارجو لهذا الرجل خلاصاً من ايدينا على ان يتعهد بعدم العود الى مثل ما عمل فاني اراه وقد زاد به الخوف من الانتقام الى حد اشرف به على الهلاك

فأجابه أبروني لقد وصفت الرجل بالبساطة والميل الى الاخلاص لا لانه بسيط ومخلص ولكن لانك انت كذلك . ولئن اوتيت محاكم الارض قضاة يشبهونك في سرعة الحكم على الناس بمجرد ظواهرهم لتزايد شر الناس وتعاظم الى حد يصير الارض جهنماً لا تطاق . هم يضربون بالحية مثلاً في الحيلة والمكر وبالثعلب في الخداع والروغان وأحر بالمثلين ان ينطبقا على الانسان لانه اشد من الحيلة مكراً وخبثاً ومن الثعلب خداعاً وروغاناً . فانه مهما يكن من دهاء الحيوانات فهو الى حد محدود بعيد عن التفنن والابتكار واما الانسان فقد اوتي من القوى العقلية المبتكرة والقلب النجس الخداع ما لا يجاريه فيه مخلوق آخر . وما ادرانا ان يكون الرجل متظاهراً بالتوبة والندم وفي قلبه من الميل الى الشر ما فيه . وهب انه في ندم حقيقي فان ذلك لا يمنع من امكان رجوعه الى مثل ما عمل . وعندي ان الظواهر التي بدت على الرجل واتخذتها دليلا على وجوب الرفق به يجب ان نتخذها دليلا على وجوب الاقتصاص منه بقدر ما يستطاع . فهو على ما تقول اظهر حرية وندماً وتأثراً يدل على ان له ضميراً انبه وقام مقامنا في تأديبه وان في طبعه ضعفاً يجعل عواطفه متسلطة على عقله فيستسلم لدواعي الشرور . وقد تكون هذه الظواهر ادلة على مثل ما ظننت ولكني

لا اراها كذلك في هذا الرجل . فان حريته التي ابداها باظهاره مخبئات المسألة وارشاده الى الذي حرضه على خطف ماري لم يكن عن شجاعة أدبية يجب ان يكافأ صاحبها بالعفو كما ظننت بل كان عن جبن ونذالة وميل الى نكث العهود . ولو انه قال ما قال بعد الحاحنا عليه وتهديدنا له لكان افشاؤه السر محتملا واما وهو الذي ابتدرنا بافشائه واظهر من الجبن ما لا يظهره غير الانذال لم يصدق عليه ما ظننت من الشجاعة الادبية . ومن كان هذا طبعه عاد الى شره عند ارتفاع الضغط عنه ووجوده في مأمن مما يوجب الخوف لان الجبان شديد الوطأة اذا صار حرًّا مقتدرا وبالعكس الشجاع

قال وقد كانت سرعة ندمه وتأثره مما صار دليلا عندي على استعداده الفطري لسرعة الرجوع الى الشر وبالتالي على وجوب تأديبه لا كما ظننت من انه دليل على توبته الحقيقية ووجوب اعفائه من القصاص . ذلك لان الذي يندم عن الشر سريعًا يعود الى الشر سريعًا كما ان الذي يفهم سريعا ينسى سريعًا على الغالب والذي يفهم بطء لا ينسى ما فهمه الا بعد زمان طويل . وهي سنة طبيعية قلما تخطيء يؤيدها ما يشاهد من رد الفعل وصدق مبادئه . فان الكرة التي تضربها بقوة تعود اليك بمثل هذه القوة والتي تقذفها بضعف تعود اليك بمثل هذا الضعف والصوت الذي يخرج من فيك يعود اليك صداه بمثل ما خرج سواء بسواء . فاذا كان رد الفعل صادقًا في المشاهد الطبيعية والاعمال فاحر به ان يصدق على ظواهر العواطف والاميال . فان الميل ليس الا نتيجة فعل داخلي يعود عكسه الى الانسان بنفس القوة التي صدر بها . ومرادي من هذا كله واضح وهو انه اذا كان الرجل قد ندم بسرعة واظهر شدة التأثير فهو سيعود الى شره بمثل هذه السرعة او بما هو اعظم منها متى اطلق من عقاله ويكون اقدامه على الشر شديدًا يشبه شدة تأثيره او يزيد

ثم اني اوافقك على ما وصفته به من البساطة والميل الى الاخلاص لاني ارى في سعة عينية وانبساط محياه دليلاً على ذلك . ولكن بساطته هذه هي التي تقوده

الى الشر بسرعة وبدون ترو ما دام على تربيته الناقصة . كذلك ميله الى الاخلاص فانه موقت ليس دائماً ولا يبعد ان يكون في ضيقته الان مخلصاً اخلاصاً حقيقياً عازماً على عدم الرجوع الى الشر بكل قلبه بل ان ذلك كثير الاحتمال جداً . ولكن ظروفه التي شرحتها من ضعف ارادة وتسرع ونحوهما لا تدع له فرصة للثبات . ولو كانت هذه البساطة القلبية في شخص غيره ربي تربية حقة لكان رجوعه الى الشر بعيداً واما وهو على ما ترى من التربية الناقصة والعيش في وسط دنيء فلا وجه يدلنا على انه في توبة حقيقية وما قيل في هذا يقال في ضعف ارادته . فانه اذا كان له عذر من نفسه بسبب هذا الضعف الذي هو فيه فليس له مثل ذلك العذر لدى الهيئة الاجتماعية . اذ هذه الهيئة لا تنظر الا الى الفعل ونتائجه لا الى اسبابه الا اذا كانت قهرية كما لو صدرت عن جنون . نعم ان كل ميال الى الجرائم عنده ضرب من ضروب الجنون لان الجريمة لا تصدر الا عن عقل ناقص فالرجل على هذا مصاب بضرب من تلك الضروب . ولكن من الجنون ما ليس له دواء وما لا ينفع فيه قصاص وهذا ما لا حيلة لنا فيه ومنه ما يقبل الشفاء وما شفاؤه الا بالقصاص كالذي بين ايدينا اليوم . ولو اننا اطلقناه حراً بعد الذي اتاه كنا كمن أطلق حية بعد ان تلدغ وأساء الناس

هذا ولم يكن ذلك التأثير الذي شاهدته عن ضمير حي كما زعمت فان ضميره في سبات يقرب من الموت . والدليل على هذا تماديه في اتيان ما اتى من اول عهده بصديقه رالي وبالفتاه . فانه لو كان ذا ضمير حي او شبه حي لرجع من ربع الطريق او نصفه او ثلاثة ارباعه . او كان كذلك لارتد عن غيه بعد مسألة او مسألتين او ثلاث . ولكنه شب على ما ترى وكاد يشيب فاصلاحه بدون قصاص بعيد عن الامكان وان له في هذا القصاص حياة

اما كون الله سبحانه جعل الرحمة فوق العدل فصحيح ولكن ليس الى حد علم الله يصل الانسان فان الله جل جلاله يعلم خفايا القلوب وعلى مقتضاها يعامل الناس بحكمة تعرف وسائل الاصلاح وترمي اليها واما الانسان فليس له الا الظواهر وعلى مقتضاها يجب ان يسير . وقد يعامله الله بالرحمة لانه يرى الرحمة انفع لاصلاحه

ولانه يرى من مستقبله ما لا ينفع فيه غير الرحمة. وأما نحن فقد عرفنا بالاختبار ان كل من اتى ذنباً عن عمد وكان مدركا لما عمل وجب ان يقع تحت طائلة العدل لاصلاحه ولان في ذلك رحمة لغيره من الناس. ولئن رحمناه كانت الرحمة ناقصة لاننا لا نكون حينئذ قد رحمنا الناس. وخير لنا ان نعدل معه ونرحم الناس من ان نرحمه ونظلمهم لان الجماعة خير من الفرد. وما كان هذا عن قساوة مني على ذلك الرجل ولكن عن شفقة على غيره ممن يتعرضون لاضراره

قال هذا فأمن الحاضرون على اقواله وحفظوا دينونته حتى ينتهوا من أمر الفتاة. وقد تقدم القول ان بعض ساكني الكوخ ظن النوب التي كانت تنتاب ماري ناتجة عن فعل شيطاني كما يظن كثيرون وانه كان يدعي القدرة على محاربة الشياطين وطردها من اجسام الناس فأخذ يبذل ما في الوسع لتحقيق هذه الامنية وطاوعه في هذا كل الرجال الذين حضروا لجلبها الى بيت أبيها

الفصل الحادي عشر

« حديث عن الشياطين وأجسام الناس

هل في الارض شياطين حقيقية

وهل لها قدرة على الاضرار بالناس »

بدأ واحد من ساكني الكوخ واسمه سانتي يتمتم ويدمندم ويقرأ الاوراد والارصاد محاولاً اخراج الشيطان من جسم ماري وظل على هذا يومين كاملين فاستعصى الشيطان على قوله ولم يشأ الابتعاد عن ذلك الجسم الرقيق. فقال سانتي ان الذي كتب لها وتعمد أذاها أحكم التدبير في كتابته حتى تعذر حلها ولطالما أخرجت الشياطين من أجسام الناس فما رأيت شيطاناً أقوى على مقاومة التعزيم من هذا الشيطان الخبيث. ثم تناول جريدة

Digitized by Google
Original from HARVARD UNIVERSITY

من جريد النخل وكتب عليها بدم أخرجه من عروقه لتعذر وجود الحبر هناك وظل يقرأ عليها ويتمتم ساعات كثيرة في قاعة مظلمة والناس من وراء القاعة ينتظرون النتيجة . وخرج بعد هذا وأخذ يضرب الفتاة بتلك الجريدة المكتوبة وكان الضرب شديداً فخرجت منها أصوات تختلف عن المألوف من صوتها كأن الجسم الذي يضرب ليس جسمها . ولما اشتد الضرب سمع الحاضرون كلاماً خارجاً عن فم الفتاة ولكنه كلام مضطرب قال سانتي انه صادر عن ذلك الشيطان لا عنها مستبشراً بانه بدأ يحس ويتألم ويحاول الخروج . على انه عاد فاستعصى ولم يخرج فأشفق أبروني على الفتاة ان يؤذيها الضرب المبرح وكان ممن لا يعتقدون بالارواح النجسة أو الشياطين فتقدم اليه وطلب ان يكف عما يعمل ولا يتمادى في تعذيب الفتاة قائلاً ان بها مرضاً عصبياً لا دخل للشيطان فيه . فقال سانتي وقد أخذت منه الحدة مأخذها اذن لا عشت ولا عاش الذين أخذت عنهم هذا العلم القديم . سل ساكني الكوخ كم مرة أخرجت الشياطين من أجسام الناس وكم مرة سمعوا صراخها وهي خارجة من تلك الاجسام . وما كان هذا عن وهم أو جهل بل هو حق طالما أيدته الحواس . وهل كنت وحدك في هدى وملايين البشر الذين يعتقدون هذا الاعتقاد في ضلال مبين

فقال ابروني ما كنت لأريد ان أدخل معك في جدال يتعلق بهذا الشأن ولكني أرى الآن انه لا بد من اقلاعك عن هذه العادة رحمة بالناس الذين يصيبهم ما رأيت الآن من التعذيب الشديد وضرب الجريد. واعلم ان كل ما تشاهده من فعال الفتاة وأمثالها انما هو ناتج عن نوب عصبية تخرج

Digitized by Google Original from HARVARD UNIVERSITY

صاحبها عن طور التعقل والادراك فينطق بما يظنه السامع خطأ انه صادر عن هاتيك الارواح . ولا وجود للشياطين في الارض بل هي أوهام تتسلط على عقول البسطاء من الناس وطالما كانت سبباً في كثير من ضلالات الشعوذة والسحر وهاتيك الخرافات . وأفضل من هذا كله ان تترك الفتاة مستريحة أياماً كثيرة بحيث لا يزعجها أحد بعمل أو كلام حتى اذا جاءتها النوبة العصبية قام واحد منا عنده آلة موسيقية ولعب أدوارا مؤثرة فتتأثر أعصابها وتسكن بعد الهياج . فقد جاء في التوراة ان شاؤول ملك اسرائيل كان كلما جاءه الروح النجس استدعى داود فلعب امامه على آلته الموسيقية أدواراً تشجيه فتطرد ذلك الروح الشرير . وقد جربت هذا الامر كثيراً بين قوم اصيبوا بهذا الداء فنجحت نجاحا باهراً حتى خيل للبسطاء اني اتيت قوة علوية اطرد بها الشياطين وما كانت هذه القوة الا صادرة عن الاوتار والنغمات

فقال سانتي كيف تصادق على ما جاء في التوراة من ذكر هذا الروح الشرير ثم تدعوه فعلا عصبياً . ترى هل كانت النوب التي تنتاب شاؤول عن افعال عصبية أوعن ارواح شريرة سفلية . وهل كانت الارواح الشريرة التي جاء ذكرها في الانجيل ودخولها أجسام الناس من قبيل الافعال العصبية وهي التي جاء الكلام عنها صريحاً لا يقبل التأويل ؟؟

فقال ابروني اني مثلك في تصديق التوراة والانجيل ولكن الذي ذكرته عن هذا الامر يحتمل التأويل . فان الكتاب المقدس مملوء بانواع المجاز والاستعارات وفي ظني ان كل ماجاء فيه عن الارواح النجسة والشياطين انما

هو مجاز اطلق على بعض الامراض الجسدية والعقلية الشديده الفعل والتأثير

فقال سانتي ما كنت اظن رجلا مثلك يقبل تأويلا في شأن كهذا صريح. فقد جاء في الانجيل الذي تصدقه تمييز واضح بين الامراض الاعتيادية وفعل الشياطين. والدليل على هذا قوله في انجيل متى (الاصحاح العاشر والعدد الثامن) « ولما أرسل يسوع تلاميذه قال لهم اشفوا مرضى. طهروا برصاً. اقيموا موتى. أخرجوا شياطين » ألا ترى انه بذلك ميز بين المرضى الاعتياديين وبين المصابين بافعال الشياطين. خذ ايضاً قوله في ذلك الانجيل (انظر مت ٤: ٢٤ و٨: ١٦) « ولما صار المساء قدموا اليه مجانين كثيرين فأخرج الارواح بالكلمة وجميع المرضى شفاهم » ألا ترى من هذا نصاً صريحاً يميز بين الامراض المألوفة وفعل الارواح ؟؟. وهنالك ادلة اخرى تدل على ان الشياطين التي ذكرت في الانجيل انما كانت حقيقية لا مجازية. فقد جاء في انجيل مرقس (ص ١: ٢٤) ان الارواح عرفت يسوع معرفة حقيقية حتى قال احدها « انا اعرفك من انت قدوس الله ». وهو نطق صريح لا يصدر عن امراض. وجاء ايضاً انها عاتبته وحاجته قائلة « أجئت الى هنا قبل الوقت لتعذبنا ». (مت ٨: ٢٩). وان هذه الارواح نطقت نطقاً واضحاً طالبة من المسيح ان يخرجها من اجسام الناس ويدخلها اجسام الخنازير (مت ٨: ٣١). وانه كان ينتهرها انتهاراً (لو ٤: ٤١). أفبعد هذا كله تجد سبيلا الى المجاز وكله حقائق واضحة تدل على ان الشياطين كائنات حقيقية تتكلم وتتحرك وتفعل وتدرك ما قد لا يدركه الناس ؟؟

Digitized by Google Original from HARVARD UNIVERSITY

فأفحم اوبريني بهذه الحجج ولكنه عاد فقال اني اصادق معك على ما قلت ولكن ما الذي يمنعنا عن القول ان هذا الاعتقاد كان شائعاً عند الاسرائيليين وسواهم في ذلك العصر فوافقهم المسيح على اعتقاده من سبيل المجاراة . ألا ترى انه ربما كان يجاريهم فقط في هذا الاعتقاد ولكنه لم يكن يعتقد بصحته

فاجاب سانتي وهذا محال لان المسيح الذي غير اعتقادات اولئك القوم وقلبها رأساً على عقب مظهراً منتهى الشجاعة الادبية لم يكن ليوافقهم على اعتقاد كهذا يعلم انه خرافة ويقودهم الى زيادة التصديق بما ليس حقاً

فقال اوبريني ليكن ما قلته صحيحاً ولكن اذا سلمنا جدلاً بأن الشياطين كانت موجودة في ذلك العصر أفليس محالاً ان يقام برهان معقول يدل على انها لا تزال موجودة او انها تدخل اجسام الناس وغير الناس او انها تظهر على اشكال والوان على ما يعتقد العوام . وهب انها موجودة وان لها ذلك الاقتدار فمن ذا الذي يستطيع اقامة البرهان على ان بين البشر من يقدر على معرفة مكامنها ومقاومتها كما تزعم ويزعمون

فاجاب سانتي اذا سلمت معي بانها كانت موجودة في ذلك العصر فلماذا لا تسلم بانها لا تزال موجودة الى هذا الحين . أ عندك ما يدل على ان الله اباد تلك الخليقة الروحانية بعد ان عمرت في الدنيا زماناً طويلاً ؟ . فاذا لم يكن عندك هذا الدليل وهو ليس عندك بلا ريب فلنبق على اعتقادنا الاول حتى نجد ما ينفيه . واكبر ظني اننا لا نجد هذا ولو صبرنا الى آخر العمر بل الى آخر الدهر لانه فضلاً عما جاء في ذلك الكتاب الذي تؤمن بصحته من ان ذلك الجنس سيدان كما يدان جنس البشر ولا تكون الدينونة الا في منتهى الايام فان شرور الآدميين ادلة ناطقة بوجود اولئك الطغاة وتمكنهم من الاغواء والتضليل ـ ان ابن آدم شرير من يومه ومن طبعه وذو عقل مبتكر متفنن في الشر وفي غير الشر ولكن مهما يكن من ذلك كله فانه أسمى منبتاً من ان يقدم على شروره الهائلة التي دنست الارض وكادت تقفل باب السماء وان يتفنن فيها تفنناً طالما فاق المألوف عن طور العقول البشرية الا

Digitized by Google
Original from HARVARD UNIVERSITY

ان تكون الخلائق الطاغية عاملة على اطفائه وتلقينه الشر من حين الى حين .
وستدوم تلك الخليقة على ما هي فيه من الاغراء حتى تقيد ذلك القيد المنصوص عليه في
كتب الوحي او يقوى البشر على مقاومتها بارتقائهم في الاداب السامية والدين الحق
لانها كالدود لا يدب الا حيث وجد الفساد فاذا ظهر الفاسد لم يكن وجود لذلك
الدود . انها خليقة غير منظورة وكم كان غير المنظور اشد عداء للانسان واكثر
وبلاً عليه وا شر عملاً من الجسم المنظور

على انها مع هذه القوة والكثرة تراها منحصرة ضمن حدود لا تتعداها رحمة بالناس
وأخص تلك الحدود انها ليست مطلقة الحرية في ما تشاء تيانه بل هي لا تعمل
الا بسماح من خالقها وانها لا تبطل الحرية الانسانية ولا تجري على خلاف النواميس
الطبيعية . ولولا هذا لخلت الارض من كل صالح حسن وكانت جهنماً لا تطاق .
ولعلك ادركت بعد قولي « انها لا تجري على خلاف النواميس الطبيعية » انني
لست ممن يذهبون الى انها تظهر على اشكال والوان كما يتوهم البعض . فهي في
اعتقادي لا تتشكل بشكل آدمي او حيواني ولا تظهر نورًا ولا نارًا ولا شيئاً
آخر ينظره الناس فينزعجون والا كانت معالم الارض مجموع مخاوف دائمة
ومناظر مزعجة واهوال . على انها فضلاً عن اغرائها الناس اغراء غير منظور كما
تقدم القول قد تحل احيانًا قليلة جدًا في بعض الاجسام فتخرجها عن طورها
البشري وتدفعها الى اظهار امور كثيرة لا يصدر مثلها عن فعل الاعصاب ولا عن
غيرها كما كنت تظن وكما يظن الكثيرون . وبهذه الظواهر يستطيع الناقد ان يعرف
مكامنها من الاجسام . فان الفعل العصبي قد يدفع صاحبه الى الخروج عن المألوف
من اعماله الجسمية وقد يمس عقله بجنون وقتي او دائم فيأتي اعمالا مختلة ويتكلم
باقوال ليست متناسبة . واما الفعل الشيطاني فيوجد في الانسان الخاضع له
قوة جديدة تقدره على العلم بما لا يعلم الناس ولا هو ايضاً وهو في حالة الصحة .
الا ترى ان الذين كانوا يقعون تحت سلطة الشيطان ايام المسيح طالما نطقوا
بامور كانوا يجهلونها وهم في حالة الصحو ؟؟ فتهم على ما رأيت في امثلة الانجيل

Digitized by Google Original from HARVARD UNIVERSITY

التي قدمتها لك سابقاً كانوا بعد ان يمسهم الشيطان يقولون للمسيح « نحن نعرف من انت » والواقع انهم لم يكونوا يعرفونه من قبل . وطالما قال المصابون بهذه الارواح النجسة اقوالا وهم في حالة الغيبوبة يعبرون بها عن امور ماضية او مستقبلة مجهولة تعبيرا صحيحاً حتى لقد رأيت احدهم يوماً يقول للملتفين حوله اني ارى والدي حاضرا فكانوا يستغربون ذلك او يحسبونه جنوناً لانهم يعلمون ان والده غائب في بلاد بعيدة حتى اذا اقترب من البلدة قال لقد اقترب او دخل المنزل قال لقد جاء ألا ترونه فيلتفتون ولا يجدونه ثم يصبرون قليلا فيكون بينهم وعليه فان الروح الشيطانية هي التي تسمع وتنظر وتدفع الخاضع لها الى النطق بالغيب وليس هذا بالامر الغريب لانها ككل روح اخرى تعرف ما تجهله وهي في الاجسام . وطالما سمعنا ان بعض الذين حسبوا « مختلين عقلاً » كانوا ينبئون بلادهم بمستقبلها القريب فتتم نبوءاتهم حرفاً بحرف . فقد سمعت بعض الذين يقرأون تاريخ هيرودوتس ان رجلاً عرف في زمانه بالجنون ظل قبل ان تسقط اورشليم ويحرق هيكلها العظيم ينادي اهلها بالثبور وعظائم الامور وينبئهم بما سيحل بهم بعد قليل فتم لهم ما قال حرفاً بحرف كأنه كان مع تيطس الفاتح يدبر خطته الحربية او كأنه يعلم ما كان يجهله ذلك القائد نفسه

ولا اطيل عليك الحديث فان الفتاة المعذبة امامنا الان تحتاج الى عناية منا والتفات وقد ترى من نتائج عملي ما يغنيني عن اقامة البراهين . ولكني ازيد على ما قلت ان هذه الفتاة علمت بقرب حضوركم قبل ان تصلوا هذا الكوخ بمدة قصيرة حتى انها وهي في حالة الغيبوبة كانت تذكر عددكم وبعض اسمائكم مع ان بينكم وبينها اميالاً طويلة ولم تكن عالمة بانكم حاضرون . ولكنها في حالة الصحو لا تذكر شيئاً من هذا كله لانها تكون انساناً عاجزاً عن ادراك غير المنظور . وفي هذا دليل ظاهر على ان حالتها التي تراها الآن صادرة عن فعل شيطاني لا عن فعل عصبي

واما كيفية مقاومة هذه الشياطين وهي في اجسام الناس فلا أدركها وان

Digitized by Google Original from HARVARD UNIVERSITY

كنت استطيعها . فقد تلقيت هذا العلم خلفاً عن سلف قديم ولا ادري معنى لما اتمتم به وادمدم ولا كيف ينتفع المريض بضربه

فقال ابروني لا ريب ان من كلامك ماهو مقبول عقلاً ولكنه لا ينطبق على الواقع عملاً . وهب ان هذه الافعال التي تصدر عن الفتاة خارجة عن تأثير شيطاني لا عن تأثير عصبي فكيف يعقل ان الشيطان وهو روح يتأثر من الضرب مع ان الروح ليست مادية حتى تخضع للتأثيرات المادية . ومتى كان الهواء او الخيال قابلاً للتألم والتأثر من الضرب ؟؟ ألا ترى ان قولا كهذا خرافة لا تجوز وان هذا الضرب المبرح لا يقع الا على هذا الجسم المسكين ؟

فاجاب سانتي قلت لك واقول اني لا ادرك شيئاً من هذا كله وانما اعرف امراً واحداً وهو اني طالما اخرجت الشياطين من الاجسام بمثل هذا الفعل وطالما اخرجها غيري بمثله و ليك ان تنظر النتيجة وليس لك ان تنكرها اذا صحت وان جهلت أسبابهـا

طال هذا الحديث وكانت الفتاة قد قل هياجها فتركوها قليلا ثم عادت الى ماكانت عليه من الهياج فعادوا اليها وأخذ يتمتم ويدمدم ويقرأ علوم الاولين والآخرين ثم يتقدم اليها ويضربها بلا شفقة فما سمع غير اصوات متقطعة وأنات لا ينطق بها . فقال ابروني لقد عدم صبري ايها الانسان ومهما يكن من صدق قولك فاريد الآن ان تمتنع عن هذا الفعل الوحشي او ماتت الفتاة بين ايدينا ونحن لا ندري . واعلم ان الشياطين التي جاء ذكرها في تلك الكتب واعتمدت على ماجاء عنها لم تكن لتخرج الا « بالكلمة » لا بمثل هذا الضرب والوخز . فاذا صدقنا على تشخيص الداء وجب علينا التصديق على وصف الدواء . واذا جهلنا هذا الدواء وجب ان لا نتخبط في وصف غيره لئلا يخلق داء آخر يجلب الويل ويلين والمعقول عندي انه اذا كانت الشياطين ارواحا فهي لا تتأثر الا بالروحيات كما ان الامراض المادية لا تشفى الا بالادوية المحسوسة . ولا ازال متردداً في المصادقة معك على ان الذي يهيج الفتاة هو فعل شيطاني لان الشياطين اذا صح وجودها لم

Digitized by Google Original from HARVARD UNIVERSITY

تكن لتظهر ايام المسيح الا ليظهر اقتداره ويؤيد دعوته وأما الان فقد صارت الادلة على ذلك اكثر من ان تحتاج الى المزيد . واذا قلت ان سمة علم الفتاة في حالة الهياج دليل على ان الساكن فيها شيطان يعرف مالا يعرف الانسان قلت وان من الحالات الانسانية ما تظهر فيها هذه القوة أوضح ظهور . ألا ترى ان الانسان في حالة نومه قد يعرف المستقبل احيانا كثيرة فتنطبق احلامه على الواقع والمنتظر وهو لا يدرك ولا يرى ؟؟ أولم تسمع عن شخص عجز وهو في صحوه عن ادراك مسألة او ايجاد مفقود حتى اذا نام وتخلصت روحه من جسمه بعض التخلص عرفت سر المجهول ومكان المفقود . او لم يأتك انه كثيراً ما يأتي الانسان في نومه اعمالاً يعجز عنها في صحوه فيعوم في الماء فضلا وهو نائم فضلا عن كونه جاهلا لفن العوم ويسير على ادق الاسوار وهو يرهب مجرد النظر اليها في حالة اليقظة ؟؟ فاذا كان ذلك كله ممكنا وموجوداً وهو في الواقع ممكن وموجود أفهل تحسب كل هذه الافعال صادرة عن ارواح شيطانية ساكنة في اولئك الناس ؟ . ان في الانسان جوهرة يحجب الجسم نورها وقلما تحررت من ذلك الجسم الا ابدت من غرائب الاعمال والمدركات ما لا تقاس به اعمال هذه الفتاة فلا دليل من حالتها هذه يدل على ان فيها شيطانا يوحي اليها ما نسمع منها أو ينطق عنها بما تقول . وان استخدامك الضرب في هذه الحالة دليل على ان المرض مادي عصبي لا يشفى الا بتأثير مادي محسوس واما الارواح النجسة وغير النجسة فلن ينفع فيها غير الروحيات

فاجاب سانتي لست ارى داعيا الى اطالة الكلام في شأن كهذا ليس لي ولا لك ولا لواحد آخر من الناس كلهم ان يأتي ببرهان قاطع مانع في وجه من وجهيه المختفيين . ولكني ارى اقوالك الاخيرة مخدوشة من عدة وجوه يحسن بي اظهارها تأييداً للممكن المعقول . منها قولك انه اذا كان وجود الشياطين لازماً ايام المسيح لاظهار قوته فهو ليس كذلك الان . فانه فضلا عن عدم وجود دليل على ذلك من الكتب نفسها ترى العالم وهو لا يزال في حاجة الى اظهار هذه القوة لان الذين يعرفونها فيه قليلون بالنسبة الى المجموع . واعلم اننا لا نزال نشهد معجزات كثيرة

فزمن المعجزات لم ينته بعد . واذا كانت الامراض الناشئة عن تلك الارواح النجسة لا ينفع فيها غير الروحيات كما تقول فنحن انما نستخدم في شفائها الروحيات ايضاً لانا لا نكتفي بالضرب بل نضيف اليه ما تسمع من قراءة وصلوات . وربما كان النفع من الضرب راجعا الى هذا وهو انه يهيج الفتاة هياجا يزيد عن هياجها الناشيء عن فعل الشيطان فيغطي عليه ويساعد في ازالته . فقال ابروني قد يكون هذا هو هو الصحيح اذا كان الضرب مفيداً حقيقة وهو انه ينبه الاعصاب تنبيها شديداً يساعد في ازالة ما بها من المرض . فقد قيل ان المرض الناشيء عن الخوف لا يزول الا بالتخويف الشديد والناشيء عن البرد القارس لا يزول الا بالماء البارد على أقصى درجاته . فاذا كان مرض الفتاة عصبياً وهو الذي ارجحه الى الان بالرغم عما قلت كان فعل الضرب مقاوما فعله وفي هذا يقوم نفعه

قال ابروني هذا وعادت النوبة الى الفتاة فاعاد سانتي فعله ثم تناول سكينا وجرح اصبعاً من اصابع قدمها اليسرى فنزف دما غزيراً افاقت من بعده وتنهدت الصعداء . فقال سانتي انظر لقد خرج الشيطان من هذا الاصبع مع الدم وسترى ان الفتاة استراحت بعد ذلك وقلت من نطقها المبهم . قال ابروني ليكن انتظارك في محله ولا عجب اذاً لأن الفصد كثيراً ما يزيل آلاماً تستعصي على احسن الادوية واشهر الاطباء . فقال سانتي قل ما شئت عن الفصد او عن سواه ولكن احذر من ان تزيد تهكما بالشيطان وافعاله فلا شيء يغضبه ويحمله على الايذاء الا التهكم به والازدراء . فقال وماذا تعني بهذا أتعني انه قد ينتقل من جسم الفتاة الى جسمي فليكن لك ما تقول وليكن له ما يشاء . قال هذا متجرءا ولكنه كان شديد الخوف والوهم فلم يمض عليه قليل من الزمن حتى ارتعشت اعضاؤه وتغير كلامه ووقع في ما يشبه الحالة التي وقعت فيها الفتاة . والتفت سانتي الى من حوله وقال انظروا كيف اذى الرجل نفسه . فقال أحدهم لم يكن هذا عن فعل الشيطان ولكنه اشتد به الوهم فأضر به وقد يفعل الوهم ما يعجز عنه الواقع الحقيقي فلا تأت معه ما أتيت مع الفتاة فانا نعرف كيف نخرج شيطانه . ثم طلب ماء كثيراً فاحضر له ونزع

Digitized by Google Original from HARVARD UNIVERSITY

ملابس ابروني المريض وانزله الى الماء وكان شديد البرودة فعظم ارتعاشه وصرخ صرخات متواليات وخرج بقوة منتفضاً فالقوا عليه غطاء ثقيلاً وفركوا جسمه فركا شديداً ولم يمض يوم حتى افاق وعاد الى صحته الاولى . وهي طريقة كان السريون يلجأون اليها في كثير من الامراض العصبية فضلا عن الحيات الحبيثة بانواعها وكثيراً ما تنجح لانها مبنية على مبدأ رد الفعل

وانتهى هذا الدور من الحديث ولم يقتنع واحد من الجانبين بما يعتقد الآخر لانه كان لكل منهم ادلة مقنعة ليس فى الادلة الاخرى ماينا قضها وهذا شأن اكثر المباحث المتعلقة بالامور النفسية الغير المنظورة تظل مبهمة حتى يقام منها دليل محسوس لايقبل الريب ولكن لكل من الباحثين ان يعتقد بما يظن ادلته راجحة على ادلة غيره

الفصل الثاني عشر

ماري بين يدي والدها

أفاقت ماري بعد ذلك الدواء الخفي وعرف اهلها الذين قدموا الكوخ لاحضارها هذه المبرة فاغدقوا نعمهم على سكانه واقاموا بضعة ايام ريثما تقوت الفتاة قليلاً ثم نزعوا خيامهم وأخذوها واخذوا مولي معهم لينتقموا منه على ما أتى . وما زالوا سائرين حتى وصلوا المنزل مطمئنين فوجدوا والد الفتاة على اخر رمق من الحياة لانه لما انتظرهم طويلا ولم يحضروا خاف ان يكون حاق بهم مكروه شأن كل قلب ألف المصائب والاحزان . على انه لم يبلغه خبر قدومها حتى ردت روحه اليه وأفاق من غيبوبته ثم تجلد فقام الى خارج الباب لينتظرها . وما كانت هذه اول مرة أشفقت الروح بالجسم الساكنة فيه واجابته الى ما يشتهي ولو قليلا فانه كثيراً ما يكون المرء في الاحتضار ويطول احتضاره اذا غاب عنه عزيز يريد مشاهدته قبل مفارقة الحياة . وقد تبلغ الروح حلقومه حتى اذا جاء هذا العزيز عادت فدبت

في جسمه كله كانه تناول أقوى المنعشات . فاذا تمتع به قليلا ونال رغبته من رؤياه انطلقت روحه بسلام وقد يكون هذا من قبيل التنبه الشديد الذي يصحب المحتضر غالباً قبل مفارقة الحياة كالشمعة يزيد لهيبها ارتفاعا ونورها ضياء كلما قربت الى الزوال

هكذا كان شأن والد الفتاة رآها عن بعد فعادت روحه الى جسمه اكراما لشيبته ورفقا بضعفه بعد تلك الشدائد والاهوال . وأقتربت منه فتحول ضعفه قوة وموته حياة وضمها الى صدره واخذ يعانقها وهو لا يدري أفي يقظة هو أو في منام . ولم يتحكم القوم في ابلاغه هذا الخبر حيث أبلغوه اياه بغتة فكان تأثيره أشد من تأثير الحزن المبرح وما زال مقيما على معانقتها وهي متعلقة به حتى فرق القوم بينهما بالقوة وكان هذا التفريق ابدياً لانهم لم يلبثوا أن ابعدوا يديه عنها حتى بعدت روحه عنه وسقط بين أيديهم سقوطاً لم يعقبه قيام . ورأى القوم ذلك فاخفوا الأمر عن الفتاة لئلا تلحق به وأبعدوها عنه في الحال والتفتوا اليها فانعشوها بالمنعشات وما زالوا على هذا حتى افاقت وملكت وجدانها فعرفت اين كانت والى اين آلت . فكان اول قول قالته أن اين والدي وما الذي أبعده عني في هذا الحين . ورأت سكان المنزل في حركة غير اعتيادية وقد قل اهتمامهم بقدومها بعد هذا الغياب الطويل فخامرتها ظنون كثيرة اتجه معظمها الى ابيها وما عسى ان يكون حل به بعد هذا اللقاء . وحاولت بعد هذا ان تخرج من غرفتها فخانتها قوتها ومنعها القوم عن الاهتمام بغير ما أصبحت فيه من الضعف الشديد . على انها لما رأت ان أباها طال غيابه عنها لم يبق عندها ريب في انه حل به مكروه والتفتت الى من حولها وقالت خبروني ما الذي جرى لوالدي فاذا كان قدمات فكلنا لها والا فلماذا لم يأت الان ولم يهتم لقدومي بعد غياب كهذا كله مصائب واهوال . فأنكر عليها الحاضرون موته قائلين انه خرج لاعداد معالم الافراح سروراً بقدومك وشفائك . فقالت لهم ويحكم لا تخدعوني في حياته فاني ارى كل الظواهر تدل على غير هذا وقد بلغ الضعف مني مبلغاً لا يحتمل مثل ذلك الانتظار

ماري تندب والدها

وعلمت بعد هذا بموت ابيها فحزنت عليه حزنًا عميقًا ولا سيما لأنها كانت تظن انه لم يمرض مرضه الاخير الا في سبيل الدفاع عنها . و قامت واخوتها مناحة عظيمة عليه دامت ٤٠ يومًا حسب عادة السربيين في تلك الايام . وكان المنتظر يومئذ ان يكون يوسف اول المعزين والناحين فلما لم يحضر علموا انه لا يزال واقعًا في مصائد الحكام الظالمين . ولكنهم كانوا سمعوا من مولي الذي أصبح اسيرهم انه كان معه وصديقه رالي قبل حدوث الحوادث الاخيرة بمدة قصيرة فذهبوا اليه وسألوه عن الموضع الذي تركاه فيه فخاف الافصاح لئلا يتزايد جرمه و يضيع كل أمل له في النجاة . ثم رأى ان ينبئهم قبل ان يضيق ذرعهم فأنبأهم بذلك الموضع ولكنه اعقب ذلك بقوله اني أظنه الآن بين ايدي الحكام لأنهم كانوا يبثون عليه العيون والارصاد ولم يكن في اقتداره ان يمكث طويلا في الموضع الذي ترك فيه . والبلايا اذا تراكمت خففت بعضها بعضًا ولا سيما اذا اصابت حيًا بعد ميت لان الحي افضل من الميت . فانه لما زاد خوف الفتاة ماري على يوسف وكذلك كان خوف عائلتها عليه خففت من احزانها لموت كبيرها وتزايدت الانشغالات في عقولها حتى لم يوجد محل لغيرها من الاحزان . وما كان الحزن الا عملا ينشأ عن الفكر فاذا اشتغل ذلك الفكر بشاغل آخر أعرض عن هذا الحزن و بلواه

الفصل الثالث عشر

السعي الى انقاذ يوسف

الرشوة

رأى مولي ان العيون كلها موجهة الى الانتقام منه فظن انه اذا أفصح عن كل ما في الضمير غفروا له ما تقدم من ذنبه وان لم يغفروا ما تأخر فزادهم ايضاحًا عن موضع يوسف وعلاقته بذلك الحاكم الظالم وكيف انه اختطف من بين يديه اختطافًا وذهب به مع صديقه رالي الى حيث لا يراه انسان . فرأت الفتاة ان ترسل بعضًا

Digitized by Google Original from HARVARD UNIVERSITY

من الاشداء الى حيث يكشفون الغطاء عن موضعه فكان لها ما رأت وتسلح عشرة من التابعين والمقربين وذهبوا مستكشفين فما زالوا على هذا الحال حتى علموا انه سجين اهل الظلم وانه مكبل بالحديد وقد صدر الامر باعدامه بعد خمسة ايام . فاستعظموا الامر استعظاماً وكانوا ممن يعرفون فضل هذا السجين فأقسموا بعضهم امام بعض بأنهم يبذلون ما في الوسع الى آخر نقطة من دمائهم حتى ينقذوه من الظالمين . ولكن كيف يكون ذلك وهو في حرز مكين ومن حوله الجنود بالعشرات وكلهم عارف بانه ذو عائلة كبيرة لا تلبث ان تعرف موضعه حتى تسعى الى انقاذه بما في الامكان . وكان الحاكم قد شدد في المحافظة عليه وتعذيبه قبل ان يقتل فكان الجنود يذيقونه العذاب على كل شكل ولون كانوا يطعمونه أخشن الاطعمة و يجلدونه جلداً مميتاً و يطلقون عليه الحيات تخويفاً له فيموت في كل يوم عدة ميتات وسمع حاسده معبر الاحلام بذلك فكان يأتيه في كل يوم و يظهر الشماتة به قائلا الا فانبئنا الآن يا يوسف بما سيحل بك بعد ايام . فكانت العذابات الاخرى في جانب وهذه الشماتة في جانب لأنها كانت تؤلمه اي ايلام فيتمنى الموت ولا يموت

وكان اذا خلا الجو ليوسف بضع دقائق واستراح قليلا من التعذيب اطلق العنان لتصوراته ومد بنظره الى مستقبل تلك البلاد فكان يراه ظلاماً في ظلام و ينادي نفسه بان يا سعدك يا يوسف اذا كنت أول حجر يبنى عليه اساس الاصلاح ذلك لانه كان يعلم ان كثيرين أصبحوا عارفين بقصته والسبب الذي دعا الحاكم الى ظلمه وامتهانه وأنهم سمعوا بالفاظ الظلم والعدل والاستقلال والاستعباد وعرفوا الفرق بين كل منها فلا يلبثون حتى يسعوا الى ما يفضل عن الآخر وتصطلح البلاد . وكان بين الجنود المقيمين على حراسته ثلاثة ممن يعرفون فضل الحرية والظلم الذي اخذ به يوسف فكانوا يشفقون عليه أي اشفاق و يحاولون تخفيف و يلاته مخفين هذه الاميال . وانفردوا به ساعة فقص عليهم امره وطلب اليهم ان يذيعوا مظلمته في عرض البلاد و يهيئوا الافكار للاستقلال المنتظر و يعملوا بعقولهم قبل سيوفهم لتحقيق ذلك الانتظار

Digitized by Google Original from HARVARD UNIVERSITY

وكانوا بسطاء لا يعرفون الفرق بين الاستعباد والاستقلال فابان لهم ذلك بافصح عبارة قائلا يكفي ما ترونه الان من ان صاحب الثروة لا يأمن الغدر وصاحب الفكر لا يأمن اظهار فكره وان البلاد عبارة عن نار تأكل بعضها بعضا. فتغيرت افكارهم وأحلوا الرجل محل الاحترام واخذوا من ذلك الحين يعرفون الفرق بين حالة بلادهم والبلاد الاخرى الراتعة في بحابح العدل والنور. ولكنهم كانوا فقراء اذا خرجوا من الخدمة التي هم فيها لم يأمنوا مغبة الجوع والعري فتنازعتهم افكار كثيرة بين ان يهربوا و يؤلفوا حزبًا يسعى اولا في انقاذ يوسف ثم يدبر طريقة لتحرير البلاد و بين ان يبقوا قانعين بما هم فيه تاركين الامور تجري مجراها. وما زالوا على هذا الحال كاتمين كل فكر يدور في عقولهم حتى كان يوم رأوا فيه رجلا غريبًا بينهم استخدمه ذلك الحاكم ليزيد في حراسة يوسف. وكان ذلك الغريب من أولئك العشرة الذين أرسلتهم الفتاة ماري وقد تمكن من الدخول بأن رشا بعض المقربين الى الحاكم ليدخله في خدمته والرشوة قادرة على فتح أمنع الابواب. وجعل موعدًا بينه و بين أصدقائه بعد ان يدرس الحالة الداخلية و يدبر أمرًا يتمكن به من انقاذ السجين. وكان الرجل شديد النقد نقي العقل فاستطاع ادراك الحالة بعد وقت قليل وأصبح عالمًا بشيء من النيات التي تدور في عقول أولئك الثلاثة المحبين ليوسف فكاشفهم بالامر بعد الحذر الشديد واتفق واياهم على اخراجه بالحيلة لان القوة لا تفيد في مثل هذه الاحوال. ولما اطمأن باله خرج يومًا وكاشف اخوانه بما صار وطلب اليهم ان يكونوا على مقربة من موضعه ومدججين بالسلاح حتى اذا رأوا اشارة منه اشتركوا معه ومع أولئك الثلاثة في انقاذ يوسف على انه رأى قبل ذلك كله ان يستخدم الذهب الوضاح في نيل أمنيته وكان يعلم ان الحراس كلهم يبيعون دينهم ودنياهم من أجل بارة فأغدق عليهم باحسانه حتى استعبد قلوبهم وطالما استعبد الانسان احسان. ولما مهد السبيل على هذا النسق تقدم الى يوسف وكاشفه الامر قائلاً انه لم يبق على اعدامك غير يومين وقد جئنا لانقاذك ومن ورائنا تسعة رجال أشداء يقوم الفرد منهم بعشرة في

ساعات النزال وسمع يوسف هذا فخاف عاقبة الامر بالقياس على ماحدث له في المرة الماضية فقال له دعني أموت مستريحًا هذه المرة فلست أظنكم قادرين على انقاذي وورائي الحراس بالعشرات والمئات وقد وضعت على مراقبة خصوصية شديدة ولئن حاولتم أخذي بالقوة سفكتم دماءكم وأنتم شبان في مقتبل العمر من أجل رجل مثلي أصبح على حافة القبر . فقال الرجل وكان اسمه سدني انما نريد انقاذك بالحيلة لا بالقوة ولكننا احتطنا للامر فرأينا ان تبقى هذه القوة لطوارئ ليست منتظرة بعد الهروب فسأل يوسف وما ترى تكون هذه الحيلة ونحن بين ثعالب وحيات وهل هنالك حيلة بشرية تفوق حيلة الثعلب والحية . فأجاب سدني لقد كنت أنت الممهد لهذه الحيلة بمبادئك الطيبة وحسن سريرتك لانني حين دخلت هذا المكان وجدت ان بين حراسك ثلاثة جذبتهم بلطفك وطيب أخلاقك وسمو آمالك فأخلصوا لك الولاء . ولا أظنني سائرًا على خلاف ماتقضي به المبادئ السليمة اذا حاولت انقاذ نفسك بارتكاب جريمة الرشوة لان الغاية هنا على ما أرى تبرر الواسطة . فقال يوسف لاريب عندي في أنها تبررها لانك لا تحاول بذلك انقاذ مجرم من قصاص واجب ولا تغيير حق بل تحاول انقاذ نفس بريئة لا يمكن انقاذها بغير واسطة كهذه صارت مألوفة في هذه الايام . وعندي ان تلك الرشوة خير من تعريض انفس كثيرة للقتل اذا لم يكن بد من انقاذي والتجائم الى السلاح . فافعل ما انت فاعل ولكن كن على حذر شديد فان الرقباء مبثوثون في كل مكان . وما كنت على ماترى من الرغبة في الحياة لولا انني رأيت شر القوم تزايد تزايدا هائلا وان على مثلي ملافاته رحمة بالناس . وقد قص عليه سدني ما اتفق حدوثه لابنة عمه ماري فقال احسن الله عاقبتي كما احسن عاقبتها . ولا ريب ان ماحدث لها من الشدائد والاهوال لهو على شدته اخف بكثير مما كانت تلقاه اذا تزوجت بذلك الشاب الشرير . فانه مهما يكن من تلك الحوادث فقد مرت بمرور الايام واما ذلك الاقتران فقد كان يمرر عيشها الى آخر العمر ويقضي على هناء اهلها كلهم قضاء لا مرد له . وقد كنت السبب في منع ذلك الشاب عن الاقتران بها فكأنني سببت لها هذا الشقاء ولا سيما

المرض والموت ولكني مع هذا لا ارى من ضميري تأنيباً وتوبيخاً لانني فضلاً عن ان ما عملته هو الواجب حسبما كنت اعتقد فقد انقذت اهلها من ويلات مرة ونفسها من شقاء مقيم . ورحم الله عمي فقد كان نعم الرجل لم يؤخذ بثروة رالي ولا بنفوذه بين اخوانه الاشرار فأعرض عن مطالبه اعراض العقلاء المترفعين

وانتهز سدني فرصة نوم الحراس وكانت النوبة على الحراس الثلاثة الذين احبوا يوسف وهذا الرابع فحلوه من قيوده واخرجوه امام الحراس الخارجين بعدان ملأوا جيوبهم بالذهب الكثير. وكان يوسف شيخاً ضعيفاً فحمله بعضهم واخذوا يركضون في عرض الطريق حتى صاروا خارج البلدة واصبحوا في مأمن من غدرات المراقبين. وتظاهر الحراس الخارجون بعد ذلك بخروج يوسف مع بعض الحراس الداخلين بالقوة فصاحوا على بقية اولئك الحراس وايقظوهم ثم اظهروا لهم جراحاً اوجدوها في اجسامهم بانفسهم ليظهروا لهم أنهم قاوموا مقاومة شديدة اصيبوا في اثنائها بتلك الجروح فارتبك الحراس في امرهم ولم يدروا الى اية جهة يتوجهون ولكن الحراس الخارجين ضللوا بهم فذهبوا واياهم الى حيث لا يخشون القبض على يوسف فما زالوا يركضون بالخيول حتى كلت وكلهم خوفاً من ان يسمع الحاكم بذلك فيصب عليهم جامات غضبه ولما يئسوا من وجوده عادوا الى الحاكم واخذوا يتداولون في كيفية ابلاغه الخبر فتعرض الحراس الخارجون وقد قوى المال قلوبهم وقالوا نحن الذين نبلغه اياه اذ ماذا عساه ان يعمل وقد كان الامر فوق طاقتنا وخانه حراسه الداخلون. فذهبوا اليه والدماء تهطل منهم وابلغوه الخبر قائلين لقد اتفق اربعة من حراس يوسف الداخلين على اختطافه وانقاذه من الاعدام وانتهزوا فرصة نام فيها باقي اخوانهم وخرجوا مدججين بالسلاح وساعدهم تسعة رجال غيرهم يظهر انه كان عندهم موعد في هذه الساعة المشؤومة فتقدموا الينا شاهرين السيوف وحملوا يوسف وقاتلونا فقاتلناهم بقلوب لا تهاب الموت حتى تغلبوا علينا لكثرتهم وتركونا نتدرج في دمائنا كما ترى. وقد ايقظنا بقية الحراس واخذنا نعدو وراءهم حتى كلت خيولنا فلم نقف لهم على أثر. فلما سمع الحاكم ذلك اسودت الدنيا امام عينيه وقال ما عسى ان يكون هذا الشيطان

Digitized by Google Original from HARVARD UNIVERSITY

لقد نجا قبل هذه المرة وكانت نجاته على مثل ما ارى الآن فلا بد من ان في الامر سرًا لست ادريه وهل يعقل ان رجلاً كهذا تطارده الحكومة عدة اشهر وتقبض عليه ثم ينجو من كفها مرتين اذا لم يكن هنالك مثل ذلك السر . اذن فلا كانت الحكومة ولا كانت رجالها اذا لم اقلب الارض رأسًا على عقب حتى اظهره وينفذ عليه حكم الاعدام

وقد فات هذا الحاكم الظالم ان الظلم الذي اسس عليه بنيان احكامه كان السبب في ما رآه الآن وانه اذا كان هو وامثاله من الكبراء لا يرون من نفوسهم رادعًا يردعهم عن بسط ايديهم الدنسة لاخذ الرشوة لم يكن ثمت ما يردع الاصاغر الذين تحت ايديهم عن اتيان ذلك المنكر فتختل الاحكام وتسقط اوامر اولئك الرؤساء . واذا كان اولئك الكبراء يرون انفسهم في حاجة الى قبول الرشوة فأحر باولئك الاصاغر المساكين ان يروها كذلك لأنهم معوزون . وكيف لا يكون اولئك الحراس معرضين لهذه الجريمة وهم لا يقبضون مرتباتهم من يد ذلك الحاكم الا بعد كل نفس ذائقة الموت وقد تمر شهور كثيرة لا يرون فيها بارة من رواتبهم !! لا ريب ان ذلك الحاكم اذا لم يكن منتظرًا تعرضهم لذلك الداء وهو عارف بتأخر تلك الرواتب فضلا عن الفقر فهو لا يعرف شيئًا في الوجود او هو يعرف ويتماهى تعامي المضللين بانفسهم والذين لا يطمعون في غير الربح الحرام

على ان ذلك الحاكم لم يلبث ان عرف سر الامر لان أولئك الحراس الخارجين الذين ملأوا جيوبهم بتلك الرشوة اختلفوا في قسمة ما أصابهم فاضطر الذي ظن نفسه مغبونًا بينهم الى ابلاغه ماصار والسبب في هذا ان واحدًا من أولئك الحراس كان قائمًا مقام رئيس عليهم وكان ينتظر ان يكون نصيبه من تلك الرشوة أوفر نصيب فلما انقضى ذلك الهرج والمرج وقعد يتحاسب واياهم رآهم يحسبونه مثلهم فطلب اليهم ان يعطوه اكثر مما نال كل منهم ثم اشتد بينهم الخصام اشتدادًا دعاه الى التظاهر بأنه بريء من ذلك كله وأنهم انما اتحدوا معًا وتغلبوا عليه بالقوة بعد ان أخذوا هذه الرشوة فلم يسعه الا الرضى بما صار خوفًا على حياته منهم . وعليه

توجه الى الحاكم وقص له الامر على هذا النسق فاستشاط غيظاً على غيظ واقسم بانه لا ينام الليل حتى يرام مكبلين بأثقل اثقال الحديد

غير ان ذلك الرئيس كان عالماً باخلاق صاحبه الحاكم فقصد ان يخاطبه بما ينطبق على امياله لتنتهي المسألة على ما فيه صالح الطرفين . فخاطبه قائلا ترى أليس مثلك أحق بما أخذ اولئك اللئام الخوان . فاجابه الحاكم لا تخاطبني في شأن كهذا الان فاني كما تعلم لم اشتهر بشيءٌ من ذلك وليس بين الادواء ما هو اشر من ذلك الداء . فقال الرئيس ولكني لا اخاطبك في هذا الشأن كي يستفزك لاخذ هذه الرشوة فانت على ما أعلم من انزه الناس واخلصهم للملة والدين . انما اردت بذلك ان لا يتمتع اولئك الخونة بما أخذوا فتردون منهم المبلغ وتضيفونه الى جانب الحكومة وعند ذلك تتصرفون فيه مع (الحكومة) كما تشاؤون . فابرقت اسرة الحاكم وقال في نفسه لا ارى بأساً من أخذ هذه الاموال ما دام ان هذا الرجل وغيره سيظنون أنها من حقوق الحكومة وستضاف اليها ولا يخامرهم الفكر بأنها ستضاف الى خزينتي الخصوصية . فبعد ان اطرق هنيهة ارتأى فيها هذا الرأي الخبيث التفت الى الرجل التفات الثعلب المتظاهر بالزهد عن لحوم الدجاج وقال له لقد احسنت في قولك ان اموالا كهذه يجب ان تكون من حقوق الحكومة لا من حقوق فرد من الافراد لان الراشي والمرتشي كلاهما مخطىء خارج عن حدود القانون فلا يحق للمرتشي التمتع بما أخذ ولا للراشي استرجاع امواله وان استطاعت الحكومة الوصول اليها . والحكومة اذا قبضت مالا كهذا كان شأنها معه شأنها مع المهربات الممتنعة تستولي عليها اذا قدرت وتضيفها الى خزينتها فتنتفع بها الامة كلها وتتحول من صفة الحرام الى الحلال

وكان قول الحاكم معقولا لا يخرج عن العدل الا اذا لم تستثن منه بعض الاحوال . غير انه لم ينطق بهذا وهو منتظر ارجاع تلك النقود الى خزينة الحكومة العمومية بل الى خزينته الشخصية . وقد فطن رئيس الحراس لذلك وخاف ان هو سعى لاسترجاع الاموال لم ينله غير خسارة اصحابه واستولى عليها الحاكم كلها فعاد الى التظاهر بصعوبة الحصول عليها قائلا اني اظن الذين أخذوها هربوا الان فلابد

من بذل التعب في سبيل الوصول اليهم . فقال الحاكم ولكن ذلك لا يمكن لغيرك لانك أصبحت عارفاً بمراميهم . فاجاب الرئيس ولكني ساعرض نفسي لخطر القتل اذا سعيت وراءهم ولا سيما لأنهم حانقون علي لافشاء السر ويريدون الانتقام مني على اي سبيل . فقال الحاكم انما انت رئيسهم وعلى الرئيس اصلاح ما افسد المرؤوسون ولا سيما اذا كان افسادهم امام عينيه . فاجاب الرئيس ما كلف الله نفساً فوق طاقتها فقد كان ذلك بالرغم عني لانه اتى قهراً وقوة واذا كان للحكومة ان تستولي على المهربات المحرمة فلمن يرشد اليها او يقاوم في سبيلها ان يستولي على جزء منها اذا لم يكن على اكثر اجزائها لانه كان واسطة في مقاومة جريمة التهريب

فأطرق الحاكم قليلا وقدنسي كل ما كان يدور في خاطره عن يوسف ولم يعد يفكر في غير ذلك الذهب المحبوب . ولكنه اخذ يدبر طريقة يتخلص بها من رئيس الحراس ليستولي على الذهب كله . ثم عاد فناجى نفسه قائلا ولكن ما ضرني لو اعطيته جزءاً من هذا المال واتفقت معه على السعي في جلب اموال كهذه من يوم الى يوم آخذ منها ما آخذ واعطيه منه الشيء القليل . والامر في يدي لأني استطيع التغاضي عما يدبره من اخراج المسجونين وان يكونوا من المجرمين واتيان غير هذا مما يدعو الواقعين تحت احكامنا الى افراغ جيوبهم في خزائننا

قال هذا في نفسه ثم التفت الى الرئيس فسأله هل لك ان تكون عوناً معي على اظهار مثل هذه المخبئات في مستقبل الايام واضافة ما يظهر من اموالها الى خزينة الحكومة . وهل عندك مسجونون كثيرون اذا تغاضينا عما يحاولونه من الخروج كان للحكومة من اموالهم خير جزيل

فابتهج قلب الرئيس من هذه السؤالات لانه لم يكن اقل خبثاً من الحاكم ولا اقل منه ميلا الى ظلم الناس وسلب اموالهم ورأى انه اصبح ثقة عند حاكمه وصار واسطة بينه وبين الناس في تعمير خزينته فيصيبه من هذا مال كثير . وعليه اجابه باني لست الا عبدك افعل ما توصيني به ولو على سبيل الاشارة الخفية . واعلم ان (الحكومة) سيكون لها من اظهار تلك المخبئات ايراد هائل تصلح به احوالها . وستعلم انك لم تعتمد

الا على رجل يعرف كيف يضع الامور مواضعها و يحكم التدبير . وقد اعتمد عليّ الحاكم الذي كان قبلك فأغنيت الحكومة على يديه غنى جزيلا لم تعرفه من قبل حتى أغاظ واحداً لم ينل منه ما كان ينتظر من المكافأة فوشى به وشاية ابعدته عن منصبه وحرمته لذة الكسب الكثير . فلما حضرت خلفاً له رأيت منك اعراضاً كثيراً أظنه نتيجة سعي الذين اتقدت قلوبهم حسداً فصرت واياك على ما ترى من الكسب القليل

قال الرئيس هذا فأدرك الحاكم ان ذلك « الواحد » الذي وشى بسابقه هو هو نفسه وانه انما وشى بهلانه لم يستطع اقتسام الرشوة معه فالتفت اليه لفتة الذي أدرك المعنى وقال له ان مثل ذلك الواحد لا يجد مع مثلي ما يدعوه الى وشاية كتلك الوشاية لاني ممن يقدرون اتعاب الناس قدرها وسترى كيف تكون المكافآت اذا أحضرت تلك الاموال المأخوذة من رجال يوسف فاسع الى ارجاعها منهم قبل ان ينفقوها ثم نلتفت بعد الى يوسف لنرى أين سار

وخرج الرئيس بعد هذا وقد علل النفس بامال كبيرة بنى عليها شيئاً كثيراً من القصور العالية واخذ يدبر طريقة لارجاع الرشوة من مرؤوسيه فعمد اولاً الى الايقاع بينهم حتى تتملك الشحناء قلوبهم و ينفرط عقد اتحادهم فيقوى على كل واحد منهم بمفرده وهكذا صار . واستأجر جماعة ذهب كل ثلاثة منهم الى واحد من هؤلاء الحراس وهو في منزله فارغموه بالقوة على تسليمهم النقود مدعين بانهم جاءوا اليه من قبل الحاكم فسلموا كلهم ما عندهم خوفاً من شر هؤلاء المستأجرين الا واحداً منهم فانه قاومهم فذبحوه امام عيون امرأته واولاده ولم يخرجوا حتى نالوا ما يشتهون . وعادوا الى رئيس الحراس فسلموه النقود وهذا أخذ منها ما أخذ وذهب بالباقي الى الحاكم فاستقبله مرحباً به أحسن ترحيب . وسأله عما صار فقال لاشيء غير ان واحداً من الحراس قاوم الذين ارسلتهم وحاول قتلهم فقتلوه لتبقى هيبة الحكومة في القلوب . فاجاب الحاكم حسناً صنعوا لانه اذا سمع الناس بان فرداً قاوم رسل الحكومة ولم يحل به مكروه لم نامن مغبة الانخذال في كل مشروع . ثم قعد ساكتاً

Digitized by Google
Original from
HARVARD UNIVERSITY

ليعطي فرصة للرئيس حتى ينقده النقود فنقده اياها وتناول منه مكافأة طيبة حتى يتجرأ على العودة الى النهب والسلب واخلال الاحكام

ورأى رئيس الحراس بعد ذلك ان الحاكم معه وانه ليس من يشرف على اعماله فكان يرسل قوماً من قبله يسحبون الناس من الطرق متظاهرين بانهم رأوهم يعملون ذنوباً تستدعي السجن فمن كان مستعداً بنقود في جيبه تمكن من الخلاص او سجن ولم يخرج حتى يرسل الى منزله ويحضر ما يسد المطامع من النقود ولو بالاستدانة من الناس . وفاز الاغنياء بمرادهم في ذلك العهد فكانوا ينتقمون من اعدائهم شر انتقام ويجرون المفاسد وينتهكون المحرمات لانهم قادرون على التخلص من العقاب باموالهم . وساءت حال الفقراء والمتوسطين كل السوء فلم يأمن احدهم على نفسه وماله وشرفه بل كان ينتظر العبث به في كل حين . وتوارى الاغنياء الذين لا نفوذ في أيديهم لانهم صاروا مطمعاً لانظار الحاكم واعوانه . وكثرت عصابات الاشقياء لانهم رأوا ان الحكومة في شغل شاغل عنهم فعاثوا في البلاد فساداً وجعلوها شعلة من نار . وكثر الظلم في كل دائرة من دوائر الحكومة والاهالي فساد الفساد وشبع سوس الخراب من جسم البلاد . وكان اكبر ما يهتم له الاهالي ان لا تكون لهم علاقة بالحكومة وموظفيها خوفاً من مظالمهم فصاروا يتنصلون من امتلاك الاطيان ابتعاداً عن شر جباة الضرائب ولانه ليس من يتولى اصلاحها وخافوا التجارة ايضاً لانها تحتاج الى تنقل وتعرضهم للاخطار فحولوا انظارهم الى الصنائع الحقيرة لان صناعها يتممون اعمالهم غالباً بين جدران المنازل آمنين ارتياد الرواد فضلا عن انهم من ابعد الناس عن العلاقة بالحكومة وعمالها الظالمين

* * *

تنبه الحاكم بعد ان أخذ ذلك المبلغ من رئيس الحراس وهاجت فيه عواطف الانتقام من يوسف فرأى ان يرسل رجالا كثيرين للتفتيش عنه واحضاره مكبلا بالحديد ففعل هذا واستدعى عشرين رجلا وجعل عليهم ذلك الرئيس رئيساً . ولكن هذا الرئيس الكريم رأى ان ابتعاده عن مركزه هو ابتعاد عن مواطن الكسب

الكثير وان كل يوم يغيبه مما ينقص من ايراده شيئاً يذكر فلم يلبث ان قضى بضعة ايام حتى رأى ان يعود فعاد وقابل الحاكم قائلا لقد افرغنا ما في الجهد للتفتيش عنه فما وجدناه ولا نظننا نجده يوماً لان الذي هرب من يد الحكومة مرتين بعيد عليه ان يمكث في محل معرض للانظار . فهاج غضب الحاكم عليه ولكنه لم يستطع مجازاته لعلمه بانه عارف بدخائله وفي امكانه الوشاية به وابعاده عن مركزه في الحال . وقد تعاقدا معاً على اجراء كل ما يوسع ثروتهما وان خربت البلاد وفسدت الاحكام واضافا اليهما اعواناً كثيرين برعوا بعد ذلك في طرق السلب والنهب فصيروا البلاد جهنما لا تطاق

الفصل الرابع عشر

التقاء يوسف بماري

الاستعداد للثورة

خرج مندو بو ماري من سجن يوسف بعد انقاذه وهم لا يلوون على شيء وكانوا يتوقعون ان الحاكم لا يهدأ عن تعقبهم فساروا في طرق متعرجة وكان معظم سيرهم في الليل فكان الظلام حائلا بينهم وبين ظلم الظالمين . وما زالوا مجدين في سيرهم حتى وصلوا منزل ماري فاستقبلوا استقبالا باهراً تخلله تذكار الحوادث الماضية فجعله هادئاً ومهيباً . وكان يوسف أشد من النساء احساساً فلم يتمالك عن البكاء الشديد حين نظر الى ماري فوجدها على غير ما ألف من الشباب الغض والثغر البسام والمحيا الذي لا يعرف التقطيب

ورآها يوسف كثيرة التجلد والصبر فقال في نفسه ليتها لم تكن كذلك وكانت بكاءة في النائبات اذن لأفرجت دموعها عن اكتئابها القلبي وتناست بسرعة دواعي الاحزان فلم تصبح على ما أرى الان . فان المرء الشديد التأثر حين وقوع النوازل والذي يفرج بدموعه ما حل بباطنه من الحزن العميق يغلب ان يكون سريع النسيان

Digitized by Google Original from HARVARD UNIVERSITY

فلا يلبث حتى ينسى الاحزان . ولكن هذه الفتاة المسكينة ليست كذلك بل هي خالفت المألوف عن النساء من انهن مسرعات الى التأثر في ساعة الحزن كما انهن مسرعات الى نسيان التأثير كثيرات البكاء فليس للاحزان متسع كبير في قلوبهن . ولولا هذا لكان بكاؤهن لاقل سبب وكثرة احزانهن ونحو هذا من علائم الاحساس الشديد داعياً الى فنائهن من عالم الاحياء

ورآه رجل بجواره مستغرقاً في البكاء وترديد الافكار فطلب اليه ان يهدأ ويتجلد قائلاً ان ليس هكذا شأن الرجال . فاجاب يوسف ليت كان هذا شأنهم اذن لافرجوا عن نفوسهم ساعة الاحزان . ولو لم اكن على ما ترى من شدة التأثر والاستعانة بالدموع في النازلات لهويت الى القبر من زمان طويل بل من اليوم الذي فيه عند اولئك الظالمين . وعبثاً يحاول النصوح ان يغيرما في طبع الانسان من هذا القبيل لانه طبيعي فيه فهو يأتيه ابتداء في النفس لا عن تكلف او استئذان . وما رأيت باكياً في يومي ونصحته بالسكوت الا في بعض الظروف لاني أرى دموع العيون كفتحات يخرج بها ما كمن في القلب من الحزن العميق . فاذا سدت هذه الفتحات كتم الحزن في القلب ففعل فيه فعله المعروف . ولهذا كان الحزن اشد ضرراً على الرجال منه على النساء لان اولئك يكتمونه فيدوم تأثيره زماناً طويلاً واما هؤلاء فيفرجونه بالدموع فلا يلبث حتى يزول . ولعلك لا تجهل ما وقعت فيه ماري من المصائب والاهوال وكيف انها اظهرت في ذلك كله مراس الرجال . فلو كانت كبنات جنسها قليلة التجلد سريعة التأثير لمرت عليها هاتيك الاحزان مرور الغيوم ايام الصيف لانها كانت تستعين على تفريج همومها بالدموع فلا يكمن حزنها بين الضلوع . ولكنها كانت تتجلد ذلك التجلد العجيب وتعارك الدهر معاركة الابطال خارجة بذلك عن المألوف من بنات حواء فاصبحت وتكاد تكون عظماً بالياً بعد ان كانت زهرة السرب ومصباحه الوهاج

ولم يلبث يوسف حتى فتت بدموعه صخور احزانه فالتفت الى ماري وقال لها انه ليعجبني منك تجلدك في النائبات ولكني انتظر من مثلك نسيانها ايضاً والاهتمام

Digitized by Google Original from HARVARD UNIVERSITY

بالآتيات. فاجابت اذا نسيت ما لقيت من اولئك الفجار فكيف أنسى والدي وما جرى من دمائه في سبيل الدفاع عني بل كيف انسى اولئك الابطال الاقرباء الذين سفكت دماؤهم امام عيني وانا اناالا ضعيف . بل كيف انسى ما لقيته انت في سبيل تحريري من ذلك اللص الخبيث وما تبع هذا من الويلات على العائلة كلها . اني لا انسى شيئاً من ذلك كله ولكني قد اتناساه . وانما اتناساه لأني اراك حياً امامي بعد ان بطل كل امل في رجوعك سالماً فانت عزائي الوحيد في هذه الدنيا وعليك بعد الله نلقي اتكالنا في الملمات

قال يوسف لقد وجدت مني عزاء فهي لي منك عزاء ايضاً بتناسيك كل ما مضى . واعلمي ان مصاعب الدنيا لا تحط الا على الاقوياء الذين سموا بنفوسهم الى مقدمات الرجال كالغيم لا يحط الا على رؤوس الجبال . وقد يكون هذا احسن عزاء لنا وهو اننا مطمح انظار الناس ومحسودون منهم فهم ابداً في عراك معنا وصدام . وفي الارض الوف يتمنون ان يقعوا في صعوبات كهذه على ان يخرجوا منها كما خرجنا سالمين حتى يشعروا بلذة التغلب على مصاعب الدهر ومشكلات التنازع في البقاء . وانه ليلذ لي ان اعيد الى ذهني ما مضى من هذه النائبات وأعي في صدري تاريخاً شخصياً تكتب عنه الروايات . بل اني اكبر نفسي اكباراً وازيدها تعظماً وافتخاراً حين تعيد الى ذاكرتي ما قاست في سبيل مبدأين نبيلين وهما تحرير فرد من شقاء مقيم وتحرير امة من ظلم اليم . اما الفرد فهو انت لأني حين رددت رالي عما طلب من الاقتران بك عاد فتركني معرضاً لانظار الذين كانوا يسعون ورائي من عمال الحكومة . واما الامة فهي امتنا لان الحاكم لم يشدد النكير علي الا حين عرف ما يدور في خاطري من محو الظلم الذي منيت به ووجوب تحريرها . وقد فزت بالامر الاول وان نكن سفكنا في سبيله اعز الدماء وما ويحني الضمير يوماً على ذلك لأني كنت على يقين تام من ان اقترانك بذلك الرجل الشرير مما يقلب منهج العائلة كلها رأساً على عقب ويجعلها مضغة في الافواه فيضيع شرفها الذي اشتهرت به وتصبح منسوبة الى اكبر عصابات الاشقياء بعد ان كانت ولا تزال مثلاً في الفضيلة والمعروف

Digitized by Google Original from HARVARD UNIVERSITY

واما الامر الثاني فاراني وضعت اساساً متيناً لانجازه لاني رايت في البلاد كثيرين على ادراك ما اصبح الوطن فيه من الاضمحلال بسبب الظلم الذي هي فيه . وما رأيت قبل هذا الحين رجلاً يشعر بثقل وطأة الظالمين ولا يفكر في كيفية التخلص منها ولكني ارى الآن روحاً عامة تميل الى التخلص من هذه الحالة ولا سيا بعدان زادت مظالم الحاكم الحالي وكثر اعوانه المفسدون . واذا صدق ظني فان الحلم الذي حلمته احدى نساء الدرب وعبرته لها يوماً وكان تعبيره اصل هذا الشقاء بدأ يتم اليوم لانه لا بد لتحرير البلاد من مقدمات لا تخرج عن هذا القبيل . واظنك سمعتيه من قبل ومؤداه ان في بلادنا اليوم صبياً تهزه امه في سريره بيسارها وسيهز هو البلاد بيمينه بعدحين فيقلبها رأساً على عقب ويحررها من الظالمين . ولكن لا بد لاتمام هذا من ظواهر كالتي تبدو لنا الآن واخصها شعور الامة نفسها بوجوب تحريرها ووجود قوم من ابنائها قادرين على ابراز هذا الشعور الى حيز الظهور المنظور . واذا لم يكن من هؤلاء الرجال غير الذين جاءوا من قبلك في سبيل انقاذي واولئك الذين عرفتهم في السجن الاخير لكفى بهم لجنة تدير حركة كبرى تفيد البلاد

سمعت ماري من خالها يوسف هذا المقال فصارت كلها اذاناً لسماعه ولكنها عجبت من ان بين اضلاع هذا الشيخ الفاني قلباً يحوي مثل هذه الاقدام . فسألته وهل تظن ان البلاد في استعداد تام لهذا المشروع الخطير . اجاب انها ليست على تمام الاستعداد ولكن مهما يكن من ضعفها فانها لا تزال اقوى من الحكومة التي تحكمها . فالذي ينقصها من القوة يكمل من ضعف حكامها الظالمين . وقد علمت مما قلت انه لا بد لانجاز مشروع كهذا من شعور البلاد بالحالة التي هي فيها ووجود قوم من ابنائها قادرين على احياء هذه الشعور . واعلمي الآن ان قدرة هؤلاء الرجال تقوم باربعة امور : الاول وجود مال في ايديهم يكفي للثبات واعداد العدة وارضاء المقاتلين . والثاني توفر الجنود واغراء الضباط بانهم سينالون من الحكومة الجديدة ما يرفع مقاماتهم ويكثر ثروتهم . والثالث توفر النظام بين الصفوف المقاتلة والرابع توفر الحكمة في عقول الذين يديرون رحى الحرب . — وانت تعلمين انه لا

Digitized by Google Original from HARVARD UNIVERSITY

سبيل الى الانتفاع بالقوى الحيوية التي في يد الحكومة فالبلاد لا تقدر اليوم ان تنتفع بما في خزائنها من اموال الشعب لان مفاتيح الخزائن في ايدي الحكام ولا بجنودها الذين من ابنائها لان ضباطهم من اولئك الغرباء . وواضح بعد هذا انه لا بد من اعتماد البلاد على نفسها فتجمع من ابنائها اموالاً كثيرة بالاكتتاب على ان يكون ذلك سرًّا اذا أمكن او تظاهرا بمشروعات خيرية عمومية حتى لا تعارض الحكومة في الاكتتاب وأما الجنود فلا سبيل الى جمعهم بالسر ولكن لنا سبيلا آخر وهو اغراء الضباط الوطنيين بالاموال حتى اذا جاء الوقت المعين انقضوا على الغرباء وجذبوا وراءهم الجنود السرية . فاذا تم هذا اجتمع من اهل البلاد أنفسهم خلق كثير وعاونوا هؤلاء الجنود على مهمتهم . وعهدي بابناء السرب انهم بارعون من طبعهم في فنون القتال فالانتفاع بهم ممكن في ذلك الحين . وفي البلاد ايضاً عصابات كثيرة من الاشقياء اوجدها الفقر وفساد الاحكام وهؤلاء اذا جمعوا الفوا جيشاً كبيرًا لا يشق له غبار ولا يصطلى له بنار . ولا أرى صعوبة في جمع هؤلاء الرجال لان لعصاباتهم رؤساء يميلون من طبعهم الى القتال فضلاً عن انهم يبذلون ارواحهم لينالو شيئًا من الاموال التي ستجمع في هذا السبيل

قال ثم ان البلاد لا تخلو من رجال عقلاء كلهم اكفاء لادارة رحى الحرب . ومهما يكن من قلة كفاءتهم فانها اكثر من كفاءة اعدائهم . وكل ما اتمناه ان اعيش يا بنيتي الى اليوم الذي ارى فيه هذا الوطن المحبوب محررا من امثال ذلك الحاكم الظالم ليعيش ابناؤه كما يعيش ابناء الشعوب الاخرى في سلام واطمئنان

فأجابت ماري فهمت ما قلت وكله أدلة واضحة على شرف شعورك ونبالة مقصدك ولكن اسمح لي ان أبدي لك بعض ملاحظات عليه . فأول ما أقول ان الحكومة التي نطلب مناجزتها أقوى منا بأسًا وأوسع حولا وطولا واكثر عددًا وعددًا اذا فرغت منها خزينة ملئت خزائن أو مات منها جيش قامت جيوش . وأما نحن فمها يكن من قوتنا مالا ورجالا فاننا لا نلبث ان نقاتل شهرًا وشهرين حتى ينفذ ما عندنا من معدات القتال فتعود البلاد الى أشر مما كانت فيه . ذلك

لان اعداءها ينتبهون الى مقاصدها فيزيدون تضييقاً عليها وميلا الى الانتقام منها فتسد دونها كل ابواب الاستعداد . ثم ان من الحكمة ان يكون الحكام المنتظرون من ابناء البلاد اكثر رفقاً بها من الحكام الغرباء وأعظم كفاءة والا كان استقلالهم ماثناً لا يلبث ان يزول . وعبثاً يقال ان ظلم الوطنيين للوطنيين خير من ظلم الغرباء لهم لانه اذا كانت النتيجة ظلماً في الامرين فأحر بالظلم القديم ان يبقى حتى يمكن للبلاد ان تخرج رجالا لا يظلمون ولا تعرض نفسها للخراب على غير طائل . والذي أراه ان البلاد وان تكن في حالة سيئة جداً تستدعي الاسراع الى انقاذها منها ولكنها لا تزال بعيدة عن الاستعداد لمشروع كهذا خطير . والبلاد التي تتحرر على أيدي عصابات اللصوص كما تقول لا يحسب تحريرها تحريراً بل خروجاً من ظلم قاس الى ما هو أقسى . ولا أظنك تجهل ان رؤساء العصابات المشار اليها لا يقاتلون ويعرضون رجالهم وأنفسهم لخطر القتل الا اذا نالوا وعداً صريحاً بأنهم سيكونون رؤساء الحكومة المنتظرة . ويا تعس بلاد يحكمها امثال هؤلاء الرؤساء . فاذا لم ينالوا ما وعدوا به عادوا فقلبوا الحكومة الجديدة الى أشر مما كانت فيه أو نالوه وصيروها شعلة من لهب الجحيم . وهل يمكن لك ان تذكر اشخاصاً من الوطنيين جديرين بتولي الاحكام وايراد الاهالي ما تتمنى من موارد الخير والسلام

فأجاب يوسف ان كل ما تبدينه من الملاحظات في هذا الصدد عظيم الاهمية ودليل واضح على سمو مداركك وفوزك على كل بنات جنسك . وانه ليلذ لي ان اتناقش معك في أمر كهذا له اكبر شأن للوطن والوطنيين لان مثلي على حافة القبر ويهمني كثيراً ان أورثك شيئاً من المبادىء الوطنية التي تدور في خلدي . ومن كانت على هذا الفكر الراجح والعقل الراسخ لجديرة بان تتولى زمام الجماهير وتدير اكبر حركات البلاد .

ولكن لا بد من تذكيرك بأمر هنا وهو انه ما دامت البلاد على حالتها الحاضرة من الظلم والاستبداد فبعيد عليها ان تكون في مستقبل الايام أحسن مما هي الآن او اكثر استعداداً للقيام بتلك الحركة المرغوبة بل انها ستسير من رديء الى ارداء

فاذا كان الامر كذلك فمن الحكمة ان نسرع ونجرب امراً كهذا وان حاقت بنا هذه الصعوبات . وما قلته اولاً اقوله هنا ايضاً وهو ان الحكومة التي تحكمنا اليوم لا تزال اضعف منا حولاً وطولاً مهما يكن من سعة سلطانها الذي تذكرينه وضخامة جيشها . فان الفساد الذي ينتاب كثيرين من حكامها جعل جسمها الضخم ضئيلا فصارت كشجرة كبيرة مترامية الاطراف عرض لها ما جعلها عرضة للفساد فدب فيها السوس واخذ ينخر أعصابها ويتلف جذورها اتلافاً . ولا أراني في حاجة الى اقامة دليل حسي على أنه أصبح في الامكان أن يرشى كثيرون من قوادها ورؤساء قوادها وأصحاب الكلمة النافذة فيها فينجذبون الى سبيل الاعداء ويكونون عوناً معهم على حكومتهم . وأني ليمكنني أن أعرف من ذلك الحاكم الذي نلت على يديه الظالمتين ما نلت كل أسرار الحكومة التي يعلمها وذلك بقليل من المال. ومهما يكن من أهمية تلك الاسرار وتعلق حياة حكومته عليها فلست أظنه يمتنع عن افشائها اذا طنت أذناه برنين الرنان . فاذا كنا ضعفاء فان عدونا أضعف . أو كنا فقراء فانه أفقر . أو قليلين فانه أقل بما لا يقاس

وأعلمي يا بنيتي انني لست ممن يتمسكون بمبدأ الوطنية تمسكا أعمى ولكني أبنيه على أساس لا أظنك تخالفينني في صحته اذا نظرت اليه بامعان . ذلك أنني لا أريد التخلص من السيطرة الاجنبية الحاضرة لمجرد كونها سيطرة أجنبية بل لأنها فضلاً عن كونها أجنبية فهي فاسدة . ولا ريب في صحة ما تقولينه من ان معاشرنا لا تزال فاسدة لا تليق لان تحكم نفسها بنفسها ولكنها لن تخرج من حالتها هذه ما دامت على ظروفها السياسية الحاضرة. ولو كانت الحكومة التي نخضع لها أحسن منا سياسة وأميل الى العدل وأعرف بطرق الحكم والتدبير لكنت اول الذين ينادون بوجوب دوامها علينا حتى تستقيم احوالنا وننال منها ما يصلح شؤوننا : بل ان الوطنية الحقة تقضي على كل ذي ضمير حي بان يتمنى لبلاده مثل هذه السيطرة الاجنبية اذا كانت أفضل من السيطرة الوطنية لان في ذلك نفعاً للبلاد واصلاحاً لاحوالها . ولا أظنك تجهلين ما اشتهر عن ميلي الى جلب الصناع الاجانب حين اظهرت البلاد

Digitized by Google Original from HARVARD UNIVERSITY

شدة الافتقار الى مجاراة الغير في صنائعهم لعلمي ان الاجنبي يجب ان لا يكره لانه مجرد اجنبي بل لانه يملك من مصالح الوطنيين ما يمكن لهم ان يحسنوا امتلاكه بانفسهم أو انه يحكمهم بظلم واعتساف . ولكنك ترين الان من الحالة الحاضرة ان السيطرة الاجنبية لا تنطبق على ذلك الوصف بل انها ظالمة تملك من مصالحنا ما لا نعجز عن ادارته باحسن منها وتحكمنا حكماً معتسفاً لا يرضى به غير الذين اظلمت بصائرهم وطمست قلوبهم فكانوا من المعدمين . ألا ترين كيف أصبحت الشوارع مجازر بشرية والمنازل مطمحاً للصوص والسجون مصيدة للاغنياء وغير الاغنياء فاختلت الاحكام وساد الظلم وكثر الفقر وعمت الاضطرابات واظلمت العقول وكسدت الصنائع و بارت المتاجر وامحلت الاراضي و بات كل شي فاسداً لا يصلح للبهائم السائمة فضلا عن الناس . وهل في وسع البشر بين ان يظلموا بعضهم بعضاً على هذا الشكل المخيف اذا حكموا انفسهم بانفسهم مهما يكن من ميلهم الطبيعي الى الظلم والاعتساف . وهل ينتظر ان تتحسن هذه الحالة يوماً من الايام ما دام الشعب راضخاً للروساء وما دام الروساء يجدون نفعهم الشخصي في دوامها ولا يرون معارضاً في وجوههم !؟

ليس بين الامم امة واحدة تخلصت من حالتها الاولى الا بثورة داخلية اريقت فيها الدماء انهاراً ولا أمة رفع عنها نير الاجانب قبل ان حدث انقلاب عظيم في داخليتها وقامت الحرب فيها على قدم وساق . ولمثل هذا العمل المجيد شحذت السيوف وسنت الرماح وملئت البنادق ونظمت الجنود لانه لا بد من ذلك لقصاص الجائرين وصيانة الحقوق . ومهما يكن من رداءة الذين سيتم على أيديهم انقاذ البلاد مما هي فيه فان اعمالهم مقبولة لاننا لا نجد أفعل منها ولا أفضل . أنت تستكبرين انقاذ الشعب على أيدي قوم من قطاع الطريق لانهم لا يفعلون ذلك الا اذا نالوا وعداً صريحاً بأنهم سيكونون روساء الحكومة المنتظرة فاذا نالوا ذلك الوعد زادوا البلاد فساداً على فساد أو لم ينالوه قلبوها الى أشر من حالها الاولى . وهو قول صحيح ولكن الغاية هنا تبرر الواسطة . فان اولئك اللصوص فضلاً عن كونهم اكثر الناس تمريناً في

فنون القتال وأشدهم جراءة واقسام قلباً فانهم يقنعون بما هو دون القليل وقد يكتفون بما يسلبونه من اعدائهم شأنهم في مثل هذه الاحوال . ولا ريب انهم اذا حكموا ظلموا ولكن من يعطيهم هذه الامنية . فان لهم رؤساء يمكن انقاذ البلاد منهم بعد انقاذها من الغرباء اذا لم يكن باعطائهم ما يقنعهم من الاموال واسكاتهم فبقتلهم واراحة الناس من شرورهم . ومتى قطعت تلك الرؤوس ضعفت قوة الاعضاء فلم تقم قائمة لهؤلاء اللصوص . وقد ترين في ذلك قساوة وغلاظة طبع ولكن تاريخ السياسة يدل على انه لم تقم حكومة جديدة الا على مثل تلك الرؤوس . وطالما استعان الملوك الذين فتحوا الممالك والفوا فيها حكومات جديدة بقوم اشرار كهؤلاء حتى اذا نالوا اغراضهم انقلبوا عليهم وقتلوهم لتحرير البلاد من المزاحمين والمفسدين . نم انه عمل فظيع ولكن البقاء على الحالة الحاضرة أفظع . ولو كانت لنا طريقة أخرى لا تبعناها وتبرأنا من تبعة تلك الدماء ولكننا لا نرى أفضل منها . وقد يرضخ اولئك اللصوص ورؤساؤهم فلا يحملون أحداً على سفك دمائهم وانقاذ البلاد منهم . ولكن مهما يكن من فظاعة هذا العمل فانه خير للامة ان يموت عنها بضعة أفراد من ان تهلك كلها في هوة الظلم والاعتساف

هذا ولا أخفي عنك أن اصعب الامور في تدبير هذا الامر ما كان متعلقاً بالمالية . فان المال قادر على كل شيء وهو وحده الذي يقف حيالاً بيننا وبين اولئك الظالمين ولكن تدبيره صعب المنال ما دامت خزائننا في أيدي الغير . على انه اذا كانت هذه الصعوبة هي كل صعوبات الثورة فليس في هذه الثورة شيء يستحيل اتيانه لانه لا بد لمثلها من مصاعب كبرى تقل في جنبها مصاعبنا هذه . واعلمي ان الاتحاد والقوة والثبات اذا استكملت شرائطها سدت شيئاً من النقص المالي وحلت تلك الصعاب . وآخر ما أقوله لك الآن ان الكأس امتلأت الى غايتها القصوى ففاضت ولم تقبل التأجيل

نطق يوسف بهذه الجمل وكانت علامات الحدة تظهر على وجهه فأغرقت ماري في الاستغراب لانها لم تعهد فيه من قبل غير الدعة والثبات . ورأى يوسف ذلك

Digitized by Google Original from HARVARD UNIVERSITY

منها فطن ما يدور في خاطرها وقال لها اذا سمعت بما وقع في هذا اليوم وحده لعذرتيني وكنت اول الذين يثيرون خاطري للاستمرار في هذا السبيل . فقد حدث ان مكيلي القاطن في آخر هذه البلدة اغار على عائلة له معها عداء وهو يعلم ما بات الناس كلهم يعلمونه من ان المال قادر على الانقاذ من حكم الحاكمين في هذه البلاد فارسل اعوانه الى تلك العائلة المنكودة الحظ وبينما كان ربها يتناول طعام الافطار مع اولاده وامرأته هجموا عليهم شر هجمة وأخذوا اولئك الاطفال المساكين وذبحوهم أمام عيون والديهما . ولم يقتلوا الوالدين ليريحوهما من هذا المنظر الفظيع بل ربطوهما على مشهد من هذه المذبحة الوحشية واخذوا يعذبون الاولاد اولاً ثم ذبحوهم امامهما كما قلت ذبح الاغنام وتركوهما بعد ذلك حتى جاء الجيران وحلوا وثاقهما . ولا أخالك في حاجة الى وصف ما حل بذينك الوالدين الاسيفين فانهما كانا يصرخان بملء فمهما ان اعفوا عن اولادنا ايها الظالمون أو اذبحونا وابقوا عليهم فانهم مساكين لم يجنوا ذنباً واذا كان هنالك ذنب يستحق العقاب فالذنب علينا لا عليهم . وكان بعض الاولاد الصغار يظنون ان اولئك المتوحشين يلعبون معهم بتلك السيوف اللامعة فوق رقابهم لانهم اطفال لا يدركون فكنت ترى الطفل منهم يمد يده ليمسك السيف لظنه انه لعبة يلعب بها فيعاجله وحش من تلك الوحوش ويذبحه ذبحاً ثم يرشقه برمح ويعلقه امام أبويه قائلاً هكذا يحل بالذين يعادون مكيلي . وقد أغمي على الوالدين لهذا المنظر فوقعا في ذهول عميق واقفلت عيونهما ولم يكن بينهما وبين الموت غير لمحة واحدة وكان ذلك الاغماء مريحاً لهما ولولاه لقضي عليهما ولحقا بتلك الذبائح البشرية

ولكن اذا كان ذلك فظيعاً وغريباً وقد استنزل مجرد وصفه منك الدموع فان هنا لك ما هو أفظع وأغرب وأدعى الى استنزال الدماء من العيون . ذلك انه لما وقعت هذه المذبحة قام بعض من اقرباء تلك العائلة وذهب الى حاكمنا الغشوم وقص عليه ما حدث فكأن القريب لم يقصص وكأن الحاكم لم يسمع . على انه تظاهر بالاهتمام فارسل واستدعى مكيلي المشار اليه فحضر

ولا شيء في قلبه من دواعي الجزع لان جيبه كان مملوءًا بالمال . وسأله الحاكم عن التهمة التي وجهت اليه فأنكر ثم ضايقه بالادلة الحسية وشهادة البعض ممن أتوا هذه الفعلة وشهادة الوالدين فثبت على انكاره . وعلم الحاكم بانه هو الفاعل ولم يجهل الفاعل بان الحاكم علم ذلك . ولما سدت في وجه مكيلي كل حيلة في الانكار قال للحاكم على ملأ من الناس ان عندي كلامًا سريًا اريد القاءه اليك على انفرادوهو يتعلق ببعض وشايات من اعداء لي معروفين فأخذه الحاكم الى حجرة منفردة وهنالك ألقى بين يديه ولا ريب مالا طائلا لينجيه من العقاب . وقد ثبت ذلك لان الحاكم خرج وقد تغيرت أحواله مع ذلك الرجل فقال له علمت الان سر مسألتك فاذهب الى منزلك وسنعود الى التحقيق . وهكذا عاد مكيلي الى منزله آمنًا مطمئنًا وهو عالم ان التحقيق انتهى ولم يبق ثمت داع الى الخوف وجلس الحاكم على منصة حكمه وقد زاد المال قلبه غلاظة على غلاظة فراحت دماء الابرياء هدرًا مهدورًا وذهب صراخ الوالدين في واد

أفليس من الجبن وفقد المروءة وكل صفة انسانية اخرى ان نسمع بذلك التوحش العلني ونغض الطرف عنه مع ان لنا بارقة أمل في النجاة منه . اولا ترين ان الصبر على هذه المظالم مضياع للدماء مخرب للبلاد وان كل ما ينتظر من بلايا الثورة ومصائبها اكثر احتمالا مما نحن فيه

سمعت ماري ذلك وشاركت ذينك الوالدين في الحزن العميق ولم تجد كلمة ترد بها على يوسف فانحازت الى جانبه لانها رأته محقًا في كل ما قال . وصارت من ذلك الوقت ساعية بما وسعت قدرتها الى تحقيق آمال يوسف وانقاذ السريين من الظلم والجور . ولما كانت شديدة التعلق بحزب السلام كانت شديدة التعلق ايضًا بحزب الثورة فأخذت في جمع الاحزاب الكارهة للحكومة الحاضرة واثارة خواطرها بما وهبت من قوة الحجة والاقناع

الفصل الخامس عشر

الثورة الاولى في السرب

وكانت ماري تعلم ان حكومة النمسا اشتركت في تحرير البلاد من الاتراك عام ١٧١٨ ونجحت في ذلك الى عام ١٧٤٠ حين عادت السلطة الى الحكومة التركية فرأت ان تحرض بعض اصحاب النفوذ على استنجاد النمساويين ورفع ظلامة البلاد اليهم . ولكن يوسف كان يعارضها في ذلك قائلا ان بقاءنا تحت سلطة الاتراك خير لنا من البقاء تحت سلطة النمساويين لان هؤلاء اذا ملكوا لم يبق أمل في النجاة منهم لما انهم أقوياء قادرون على تثبيت اقدامهم في البلاد . وابان لها هذه الحقيقة وهي ان الحكومة الاوروبية لا تنجد شعباً الا اذا كان لها فيه مطمع سياسي ترمي اليه وليس لمجرد الشفقة وحب الانسانية على ان رأي ماري تغلب على رأيه في هذه المرة لأنها ابانت له بالادلة الواضحة ان السربي لا يمكن له الاستقلال في هذه الايام فاذا لم يكن بد له من الوقوع تحت السيطرة الاجنبية فان سيطرة النمسا خير من السيطرة الحاضرة

لهذا ذهب وفد الى النمسا واخذ يتخابر معها في تحرير البلاد بواسطتها ولكنه لم يلق اذاناً صاغية لان عهدة بلغراد التي وقع عليها في سنة ١٧٤٠ كانت تقضي بجعل السرب تابعة للحكومة العثمانية و بعدم تداخل الدول الاوربية الاخرى في شأنها الا اذا حدثت ثورة داخلية . وقد علم ذلك الوفد ان الحكومة النمساوية سترى نفسها مضطرة الى مساعدة السربيين اذا اقاموا ثورة في البلاد ولكنه لم يأخذ وعداً صريحاً بذلك وعاد مخذولا . ولما قص مهمته على يوسف وماري و بعض رؤساء الاحزاب الحربية قالوا جميعاً بصوت واحد ليكن استقلالنا على ايدينا لا ايدي السوى ولننزع الى نزع السلطة الحاضرة مهما اعترضتنا الصعوبات في هذا السبيل . وسمع حكام البلاد بذلك فابلغوا حكومتهم لتكون على استعداد من مقاومة الثورة المنتظرة . ولما علم رؤساء الاحزاب الحربية بان نيتهم لم تعد مستترة اخذوا في التظاهر متحمسين فلم يمض وقت طويل حتى اجتمع لديهم الوف من كل راغب في القتال . ورأت

Digitized by Google Original from HARVARD UNIVERSITY

عصابات اللصوص ذلك وعلمت انه موسمهم العظيم فاجتمعت تحت راية واحدة واعدوا العدة لقتال الاعداء · ولكنهم اختلفوا في ما بينهم على من يصلح للرئاسة والقيادة فكادوا يفشلون حتى اتيح ليوسف ان يرشدهم الى طريقة الاقتراع فوقعت القرعة على رجل من اقرباء جورج فتش ذلك الصبي صاحب الحلم القديم · وكانت ايام الحلم قد طالت فنستها الاذهان وفات يوسف انه قام بنفسه لاتمامه او اعداد الحوادث المهيئة لانجازه · ولكنه كان شيخاً فانياً فلم يستطع الاشتراك في هذه المهمة الا ان يكون من باب النصيحة والارشاد · وكان سروره بذلك فائقاً لا لانه يحب الثورة وسفك الدماء ولكن لانه رأى في هذا الروح التي أظهرها السربيون علامة ظاهرة على شعورهم بثقل الوطأة التي يرضخون لها ومقدمة طيبة توصلهم الى الاستقلال المحبوب

على ان الصعوبات أخذت تزيد ظهورًا شيئاً فشيئاً لان روح الثورة لم تكد تدب في صدور المتحمسين حتى رأوا انهم في حاجة الى مال كثير يعرضونه على المتحاربين ويرشون به بعض روساء الاعداء · ولما كان المشروع مبنياً على أميال يوسف وماري رأى هذان ان يكونا أول الذين يمدونه بما عندهما من الاموال · اما ماري فكانت قادرة على هذا الامداد لانها ورثت عن أبيها مالا طائلا وكانت من اللواتي يرين المال وديعة ذات قيمة بعمله لا بحد ذاته · وأما يوسف فقد كان غناه في عقله ولكنه أسف كثيرًا لانه رأى نفسه عاجزًا عما يحتاج اليه من ابداء القدوة في حين كذلك الحين وكانت هذه اول مرة شعر فيها بانه ينقصه شيء كبير من أهم ضروريات الوجود · وقد تمنى لو انه كان من الاغنياء ليهب كل ما عنده في هذا السبيل · ولكنه عاد فراجع نفسه قائلاً وما أدراني اني اتمنى ذلك لانه ليس في امكاني واني اذا كنت غنياً رغبت في زيادة الغنى ولم أجد بما عندي · اذن فاني بالفقر الذي انا فيه أنفع مني بالغنى الذي اتمناه لاني استطيع الآن تقديم كل ما يدور في خاطري من المشوارت وربما خلا ذهني منها اذا كنت ذا مال

وبعد ان عزى نفسه بهذه الاحلام أحلام الفقر وضيق الصدر عمد الى بعض

Digitized by Google
Original from
HARVARD UNIVERSITY

ذوي الوجاهة في بلدته وطلب منهم ان يجودوا بما عندهم ويكونوا ذا قدوة للمقتدين. وقد كان يوسف ينظر الى هؤلاء الوجهاء قبل هذا الحين نظرة ملؤها الاحتقار لما كان يراه فيهم من السلوك الممقوت والطمع الاشعبي على غير حق وتضحية كل شرف ومروءة في سبيل جمع المال . بل كان يظنهم ضربة على الوجود لأنهم على قلتهم يسوقون الالوف المؤلفة من الفقراء سوق الاغنام ولا يكافئونهم بما يكفي لسد حاجاتهم ثم هم يستحلون كل محرم للجمع والتكويم ولا يعرفون من الوجود غير قضاء ما تطلب نفوسهم من الملاذ . أما الان فانه نظر اليهم نظرة أخرى فاحترمهم لا لأنهم يستحقون الاحترام من انفسهم ولكن لأنهم قادرون على ايصال النفع والضرر الى الهيئة الاجتماعية وظهر له ان وجود امثالهم ضروري لنظام الوجود . رأى أنهم نخبة الناس الذين امتازوا عن معاشريهم بموهبة الجمع والتكويم فمهما يكن من الوسائط التي يستخدمونها في هـذا السبيل فأنهم يحسبون كحراس على ما يجمعون . وعليه فقد وجد لهم وظيفة حيوية في الهيئة الاجتماعية وقد كان ينكرها عليهم كل النكران . ووظيفتهم على ما وجد تقوم في جمع اموال الالوف من الضعفاء الذين تتبدد الثروة بوجودها مفرقة بين ايديهم الى خزائن معينة معلومة تلتجيء اليها الهيئة الاجتماعية بعد فتفتحها قسرا واجبارا اذا لم تفتح امامها طوعا واختيارا . وكأنه لما دار في خلده ذلك الرأي ناجى نفسه بان تلك الخزائن المملوءة في منازل اولئك الاغنياء ستفتح بالقوة لهـذا المشروع الخطـير اذا لم تفتح بالرضى والاختيار . لهـذا وجد باب أمل جديد يتعاون به على سد هذه الحاجة قائلا ان هاتيك الاموال انمـا جمعت من الشعب فمن العدل ان تستخدم في صالح الشعب على ان يرضى اولئك الحراس . وقد زاد احترامه لهؤلاء الحراس على ما كان يدعوهم لانه وجد ان تحصيل الاموال يطلب ذكاء لا يقل عن الذكاء المطلوب لتحصيل العلوم . ولما كان هذا المشروع محتاجاً الى رجال خبيرين بفنون الحياة محتالين في قضاء مآربهم وصوالحهم اكثر من احتياجه الى سواهم من الطبقات الاخرى رأى انه يمكن الانتفاع باولئك الوجهاء لا لاموالهم فقط ولكن لهذه الاسباب ايضاً . وعلى هـذا حط رحاله عندهم وقصد ان

يستمد المشورة منهم وقد تأكد ان مشوراتهم المبنية على الاختبار والحيلة في اجتياز المصاعب وقضاء الرغائب تفوق مشوراته المبنية على مجرد الحكمة العقلية

وقد صدق ظنه في بعضهم وخاب في البعض الآخر . أما الذين صدق ظنه فيهم فكانوا ممن رأوا صالحهم في اثارة هذه الثورة لا حباً في التخلص من الظلم والاستبداد لأنهم كانوا بأموالهم قادرين على العيشة بأمان ولكن لانهم كانوا ممن تروج متاجرهم اثناء الحروب . واما الباقون فان صالحهم كان قائماً في السكينة والهدوء فعارضوا في هذا المشروع معارضة شديدة بل توعدوا اصحابه بالويل والثبور اذا استمروا فيه . وعلى هذا رأى يوسف ان كلا من ذينك الفريقين لا ينظر الى المسألة نظرة وطنية مجردة عن الصوالح الذاتية بل نظرة شخصية باعتبار ظروفهم ومتاجرهم . ولم يستغرب ذلك لانه عرف بالاختبار ان امثال اولئك الوجهاء واكثر الذين يحرزون الاموال تتحول كل افكارهم الى الوجهة المادية المحضة فلا ينظرون الى الوجهة الادبية الا ان يكون نظرة سطحية اذا اقتضت الحال فكلهم مادة في مادة ولا شأن لهم مع الامور الادبية الا اذا كانت ذات علاقة بمسائلهم المادية . وقد نشأت فيهم هذه الاميال بعد ان صاروا اصحاب اموال أو انهم صاروا اصحاب تلك الاموال لأنهم فطروا من طبعهم على هاتيك الاميال . ولكن يوسف لم يهتم لما ينظرون اليه من الوجهة المادية بل اهتم للنتيجة وحدها وهي ان منهم قوماً يريدون بذل كثير من اموالهم في سبيل هذه الثورة لان في ذلك نفعاً لمتاجرهم وان لم يشغلوا باستقلال البلاد . وقصد ان يمهد العثرة الثانية وهي امتناع الحزب الآخر عن امداده بالاموال التي طلبها فضلاً عن اجماعهم على احباط مساعيه عند ذلك الحزب فأخذ يخطب في رجاله و يعدهم بأحسن المواعيد مظهراً لهم أنهم يجدون في الحكومة المقبلة رخاء لا يحلمون بعشر معشاره اليوم . على انهم ثبتوا في ما ذهبوا اليه اولاً وهو وجوب الامتناع عن مساعدة هذه الثورة باي شكل من أشكال المساعدة قائلين ان البلاد لم تستعد بعد لمثل هذه الحركة . وطالما اخفى الماديون نياتهم المادية تحت ستر الادبيات و بتفننهم في هذا الاخفاء يقوم نجاحهم في هذه الدنيا . فأنهم لم يذكروا مطلقاً ان امتناعهم عن

Digitized by Google Original from HARVARD UNIVERSITY

مساعدة الثائرين ناشيء عن ضنهم بأموالهم او عن الخوف من كساد متاجرهم اثناء الحرب مع ان ذلك كان كل وجهتهم بل هم كانوا يتظاهرون بأنهم يمتنعون عن هذه المساعدة لان في امتناعهم خيرا للبلاد

ولم يكتف ذلك الحزب بالامتناع عن كل مساعدة بل ان كثيرين من افراده انتهزوا هذه الفرصة وقصدوا تحسين احوالهم بدس الدسائس عند حكام البلاد فكانوا عثرة كبرى في سبيل هذا المشروع . ومما لا يحتاج الى دليل ان العدو الداخلي اقدر على الضرر من العدو الخارجي فهم كانوا اكبر اشكال الضرر من حيث كان يرجى النفع على ايديهم . وقد حزن يوسف من ذلك جدًّا لانه رأى كثيرين من محبة الوطنيين يقومون سدًّا منيعاً دون هذه الخدمة الوطنيــة واصبح وهو يخشى شرهم اكثر مما يخشى شر اولئك الغرباء . ولم يدر بعد ذلك أ يتفرغ لمحاربة هذه القوة الداخلية واضعافها أو لاثارة الثورة المطلوبة ضد الغرباء . وقد لام نفسه جدًّا لانه التجأ اليهم قبل ان يدقق في احوالهم الداخلية وأخلاقهم وعض بنان النـدم لانه رآهم عاملين بما وسعت قدرتهم على أذلال حزبه وتعضيد السلطـة الاجنبية . وزاد حزنه حين علم ان هذه السلطة الاجنبية اشترت عواطف هؤلاء الوطنيين الوجهاء بشيء من المال وحلو المواعيد وتقريبهم اليها ظناً منهم ان في ذلك منتهى الوجاهة والنفوذ . فشكا أمره الى رؤساء الحزب الآخر وهؤلاء استكبروا الامر استكبارًا وأخذوا يناضلون اولئك المارقين وهكذا اشتغلت الاحزاب الوطنية بمحاربة بعضها بعضاً قبل ان تبدأ في محاربة السلطة الاجنبية

علم حكام البلاد الغرباء بما آل اليه أمر اولئك الوطنيين وانقسامهم فسروا من ذلك جدًّا وكان من صالحهم ان يستفحل هذا الخلاف فأخذوا يدسون الدسائس ويزيدون النار اشتعالا حتى وقعت فتنة داخلية كثر في اخمادها الاقتتال فتظاهرت القوة الاجنبية بالرغبة في اخماد هذه الثورة الداخلية وقامت بخيلها ورجلها محاولة قتل الروح الوطنية وهيَ في مهدها . ولا حاجة الى القول بأنها انحازت الى جانب الحزب الكاره للثورة ضدها فأمدته بما وسعت قدرتها حتى كادت روح الفشل تدب

في الحزب الوطني وتدميه . وقد بدأت هذه الحركة الثورية حوالي سنة ١٧٨٠ وظلت عاملة على اقلاق راحة السر بيين عدة سنوات . ولما كان الوطنيون اعرف الناس بطرق النكاية باخوانهم الوطنيين ضايق حزب الثورة ذلك الحزب الاخر المعروف بحزب المارقين وسعى الى تعطيل مصالحه بين الناس فكان له شيء مما أراد . ولما زادت نار الثورة اشتعالا كثر المتحمسون من أهل الوطن ولا سيما ان السر بيين قوم عرفوا من يومهم بالميل الى الثورة والهياج فضعف الحزب الكاره للثورة ولم يبق له نفوذ . على انه عاد فانضم الى الحكام الغرباء لانه رآهم ظفروا في عدة وقائع حربية وكان هذا شأنه من بدء الثورة مراعاة لمصالحه . وكان يوسف حينئذ قد زاد حماسا وكاد شيبه يتحول شبابا لشدة ما كان يدور في خاطره من التصورات الوطنية فلم يأل جهدا حتى جمع الى خزينة الحرب مالا طائلا والى صفوف القتال عدة الوف من كل رجل شديد . وما زال الوطنيون ينخذلون في عدة وقائع امام القوة التركية حتى زادت قوتهم الى ذلك الحد فظهروا في بعض وقائع كان لها دوي شديد في البلاد . وخاف اولئك المارقون على مستقبلهم وكانوا مع الغالب في كل حال شأن ذوي الاغراض وكل ذي وجهة مادية محضة فانضموا الى الاحزاب الثورية وكفروا عن سيئاتهم الماضية بشيء من المال دفعوه اليها و بكثيرين من الرجال جندوهم على حسابهم . وقتل في واقعة من تلك الوقائع ذلك الحاكم الذي ذاق يوسف كل أنواع العذاب على يديه فرأى يوسف ذلك مقدمة حسنة توصل بلاده الى الغرض المطلوب . وكانت الحكومة العثمانية لا تزال ترى تلك الثورة هياجا خفيفا لا يستحق شيئا من عنايتها فلم تحفل بها كثيرا ولم ترسل لاخمادها رجالا كثيرين . ولم تكن مصيبة في رأيها شأن اكثر الحكومات القوية اذا قامت احداها لمحاربة قوم اضعف منها او اخماد ثورة بينهم . فقد ظهر بعد ذلك ان هذه الثورة على ضعفها لم تكن الا مقدمة لثورة اخرى أشد منها وأقوى . وذلك ان الروح الوطنية دبت في عروق السر بيين كلهم وقامت عصابات الاشقياء بينهم فتعاون رجال الجامع الثائرين على اتمام بغيتهم متخذين منهم قوادا ورؤساء قواد

Digitized by Google Original from HARVARD UNIVERSITY

الفصل السادس عشر

زواج ماري وموت يوسف

كان بين رؤساء الحزب المطالب بالاستقلال بطل سربي اسمه كولين رأى منه يوسف صفات نادرة المثال بين السربيين . فانه كان مثال الشجاعة وتضحية المصالح الذاتية على مذبح الصالح العام . وكان من كبار التجار في طير الاوز وهي تجارة رائجة في بلاد السرب او هي اكبر متاجرها . شب على المتاجرة فيها من صفر فاثرى وصار من اصحاب الالوف ولكنه كان ممن لا يطيشهم الغنى الحادث أو يدعوهم الى التمسك بالوجهة المادية المحضة . واتفق انه سمع بمبادىء يوسف وانه يطلب رجالا يعاونونه على استقلال البلاد ولا يجد فذهب اليه يوماً وكاشفه بارتياحه الى تلك المبادىء واستمداده لتأييدها مهما كلفته من المتاعب والاوصاب . فأبان له يوسف خطته التي رسمها لنفسه في حياته وقال له انه يسر جدا لانه رأى كثيرين من السربيين تدب فيهم هذه الروح الوطنية قبل ان يموت . ثم ذكر له اسماء الذين تعلقوا بمبادئه هذه وهو في السجن و بعد ان خرج منه قائلا انهم نخبة الذين تنتظر البلاد خيرا على ايديهم وفي مقدمتهم ومقدمة الكل فتاة لها قلب بطل وعقل حكيم وأحسن صفة تمتاز بها بنات حواء . ثم اشار الى انها تكاد تكون الوارثة الوحيدة لتلك المبادىء بحيث انه يموت مستريحاً مطمئن البال لانه يعلم ان وراءه تلك الصبية وهي كافية وحدها لادارة تلك الحركة الوطنية اذا عاونها بعض الرجال الاكفاء . وكان كولين قد سمع بتلك الفتاة وما مثل في حياتها من الوقائع والروايات فقال ليوسف لعلك تعني بها الفتاة ماري قال نعم ومن لنا سواها في هذه البلاد . وان ساعة واحدة تجلس فيها معها وتناقشها مسألة من أعظم المسائل كافية وحدها لاظهار المواهب السامية التي حلاها بها الخلاق الحكيم

وكان يوسف يذكر لكولين هذه الحقائق عن ماري وهو لا يظن انه قد يطمح الى الاقتران بها لانه لم يكن يعلم انه غير متزوج . على انه عاد فشعر بذلك حين رأى

كولين يكثر من الاستفسار عنها وعن عمرها وما تملك ونحو هذا مما يخرج عن حدود الموضوع الذي كانا فيه . ولم يستطع يوسف اخفاء ما يدور في خاطره من الارتياح الى التقرب من كولين لانه كان يعلم انه من خيرة شبان البلاد او هو أخيرهم عقلاً ومنبتاً . وكان كولين كلما رأى دلائل الميل اليه بادية من يوسف كلما تدفق وجهه بشرًا وسرورًا وتمنى لو اتيحت له فرصة يظهر فيها ما يهم المحبون اظهاره من المروءة والنخوة . ذلك لان المحبين يعرفون ان بنات حواء يغرهن من الرجال شجاعتهم ونخوتهم شأن كل من ضعف جانبه وانكسر منه الجناح . على انه اكتفى بأن سرد على يوسف ما أتاه في بعض وقائع الثورة الحاضره مما لم يكن يخفى عنه ولا عن ماري وأخص ما فيه اغارته على فرقة كانت تحرس ذلك الحاكم الغشوم وابادتها كلها مع حاكمها بعد ان قصدت الاحاطة به وقتله مع رفقائه . وقد أبان له ايضاً انه تبرع بأكثر امواله لانه أخذ في توزيعها على رفقائه المحاربين وضرب على مصالحه الشخصية فهجر المتاجرة ووكل امرها الى واحد من اقربائه ليتفرغ لشؤون القتال

ولما سمع يوسف بان قتل ذلك الحاكم كان على يدي كولين زاد ارتياحه اليه لا لانه كان محباً الانتقام الى حد سفك الدماء ولكن لانه كان يحسب الحاكم ضربة على البلاد بما يأتيه من ضروب الظلم والجور . وخرج كولين فغاب بضعة ايام تمكن يوسف في خلالها من مفاتحة ماري في امر الاقتران به مشيرًا اليها بانه لاحظ منه ذلك الميل وبانه ينتظر منه اظهاره في المقابلة القادمة . فقالت ماري نحن الآن في ما هو أدعى الى الاهتمام لان امرا كهذا يكفي لاشغالنا واياه عدة ايام . ولا اجد ما يمنع من الرضى به اذا صح ما سمعناه عنه ولم يكن هنالك شيء خفي لا نعرفه الآن ولكني أرى تأخير ذلك واجباً . ولم تنطق ماري بهذا التصريح الا بعد ان الح عليها يوسف الحاحاً شديدا لانها كانت على جرأتها كثيرة الخجل والحياء . وكان هذا كافياً لاظهار ميلها الى كولين فسر يوسف لذلك جدا وقال لماري ان رجلا مثلي صار على حافة القبر يهمه جدا ان يترك اعز الناس عليه في عهدة من يطمئن اليه ويظهر لي ان الخلاق الرحيم قد رأف بحالي فلم يشأ استدعائي اليه قبل ان تتحقق أخص آمالي

Digitized by Google Original from HARVARD UNIVERSITY

وهي تحرير الوطن من الغرباء وتسليمه الى الوطنيين وتحريرك انت ممن كان يطمح اليك على غير استحقاق منه وتسليمك الى من تستحقين . نعم اني لست اضمن نجاح البلاد في الحركة الحاضرة ولا انتظر ان أرى نتيجتها النهائية قبل ان اموت ولكني لا اظنها اذا لم تنجح نجاحاً تاماً الا مقدمة لثورة اخرى ناجحة وقل من شرع مشروعاً خطيراً كهذا وظل حياً حتى رأى كل نتائجه . واني أرى فيك وفي قرينك المنتظر شخصين حكيمين يستطيعان احياء تلك الروح الوطنية كلما خمدت وان لم ينالا من احيائها شيئاً لصالحهما الشخصي . وقد كان البعض من اولياء امور البنات اذا جاءهم شاب وطلب احداهن منهم اشترطوا عليه مهراً عزيز المنال وهو رأس من رؤوس الاعداء . وكأنما كولين أمهرني ذلك المهر من قبل ان يطلب يدك لانه جاءني برأس عدوي أو هو عدو الامة والبلاد ذلك الحاكم الذي ما ترك فرداً من الاهالي دون مظلمة ولا أخلى بيتاً من بيوتهم دون عدوان . هو جاءني بذلك المهر العزيز المنال ولكنه سيأخذ في مقابله درة عديمة المثال . فلتهنأ نفسي قبل ان تنضم الى عالمها الباقي وليهنأ كولين بما سينال من أدب غض وجمال رائع وأصل طيب وعقل حكيم

هذا وقد صدقت ماري في ما قالت من ان الاهتمام بأمر الزواج يقضي على الاهتمام بأي أمر آخر . فانها لم تلبث حتى امتلأ عقلها بما سيكون من مستقبلها المنتظر وفرح قلبها فرحاً لا يوصف لانها ستنال يد شاب تنطبق أميالها على أمياله وقد كانت قبل ذلك راغبة عن القران لانها لم تر بين الشبان الذين خطبوا ودها شاباً واحداً تحلى بالصفات التي تطلبها ولكنها لما سمعت بمحاسن هذا الشاب لم تجد ما يدعوها الى الاصرار على الامتناع

وكان كولين اكثر شغفاً بالفتاة حتى انها صارت موضوع افكاره في النهار وأحلامه في الليل لانه كان مثلها لا يطلب غير المحاسن الحقيقية . ولم يمض يومان حتى عاد الى يوسف وقد لبس أحسن ملابسه فظهرت عليه علائم الترف واليسار . واشتد به الميل الى حد انه كان يظن الفتاة بعيدة المنال فكان يقدم رجلا ويؤخر عشرين . وكان هذا الظن ايضاً سبباً في زيادة الشغف . بل لو انه علم بما هنالك من الميل الكثير

اليه لما اشتدحبه الى ذلك الحد لان المحب كالصياد لا يحسب الصيد عزيزاً مستحقاً لشدة الولوع الا اذا راى الوصول اليه عزيزا يضطره الى السفر الشاق والايغال في الادغال . ولم يكن يوسف يجهل ذلك المبدأ فرأى من حسن السياسة ان لا يجيب طلبه لاول وهلة ولا يرفضه لاول و لة وان يصعب الامر ما امكن التصعيب ولكنه كان يعلم ايضاً ان المحب اذا كان واثقاً من نفسه وعارفاً بانه أهل للحبيب ثم رأى جفاء منه عظيما فضل تركه لانه يرى حينئذ انه لا يدرك قيمته ولاسيما اذا كان عزيز النفس مثل كولين . وعلى هذه المبادئ سار يوسف في مخاطبة ذلك الشاب حين القى عليه السوءال بكل خجل وحياء . ولم يسمع كولين رفضا ولا قبولا لاول مرة لان يوسف أجل الامر قائلا لنتشاور فيه اولا ولعل الصعوبات تزول . ولم يهدأ كولين ليلته كلها حتى أصبح الصباح فذهب الى يوسف وقابله فاجابه بان اهلها كلهم لم يروا مانعا ولكني رأيت ان أسألها هي وعلى جوابها يكون المعول . وعاد كولين مرة اخرى ومرتين وثلاثا حتى سمع جواب القبول . وكان بطلا مقداما لا يعنو لهيبة انسان فصغرت نفسه هذه المرة وظهر بمظهر الضعف لدى ذلك الانسان الضعيف . وما كانت هذه أول مرة خضع فيها ارباب القوة والاقدام لموطىء بعض الاقدام

سمع كولين بذلك القبول ففرح منه القلب وطاب الفؤاد ولم يلبث حتى ضرب موعداً للقران لانه رأى ان البقاء طويلاً بين الخطبة والزواج مما يصرف افكاره عن المهمة الوطنية التي كان فيها . فكان له ما طلب وزفت اليه ماري في يوم سعيد لم تغب في نهاره شمس ولم يمحق في ليله قمر . وحضر ذلك اليوم كل كبراء البلد فكان موضع العرس بمثابة ناد وطني دار فيه موضوع الثورة الحاضرة وما يجب ان يتخذ من التدابير اللازمة لجعلها ذات نتيجة راضية . وقصد يوسف ان يدعو كثيرين من المتخالفين الى ذلك الاحتفال ففعل وكان اجتماعهم داعياً الى مصافاتهم فلم يبرحوا مكانهم حتى عقدوا الخناصر على ان يكونوا يداً واحدة تعمل لخير البلاد

وكان يوسف ينظر هذا الصلح وذلك القران نظرة رجل جعل وجهة حياته كلها

Digitized by Google Original from HARVARD UNIVERSITY

ذينك الغرضين فامتلأ قلبه ارتياحاً لاتمامها وحسب انه أكمل بهما أهم اغراض حياته في الزمان الاخير . ذلك لانه لم يكن يرى في عائلته من يستحق العناية والاهتمام غير تلك الفتاة وقد تركت لعهدته ولم يكن يرى في اغراض حياته كلها غرضاً اسمى من تحرير البلاد وقد رأى بشائره بادية بعد تقرير الصلح بين اولئك المتخاصمين من كبار الوجوه . وكأن نفسه لما شعرت بانها اتمت أهم اغراضها في ذلك الجسم الضئيل عزمت على الرجوع الى موطنها الابدي فزادت عليه علة الكبر والشيخوخة واستسلم لها استسلام الذي لا يطمع في طول الحياة . وعلم هو بدنو اجله فاستدعى اليه العروسين وباركهما ثم جلس اليهما وأخذ ينصحهما قائلاً :

ولدي العزيزين ـ اليكما وحدكما انتهت امالي فحمداً لله الذي احياني الى اليوم الذي جمع فيه شمليكما . وكل ما ارجوه ان يحسن لكما الختام كما أحسن البدء وان يقدركما على انجاز الخدمة المنتظرة للبلاد . ولا اخالكما تجهلان ان اجتماعكما معاً كان من أهم أغراض حياتي واني لم اسر بشيء قدر سروري من هذا الاجتماع . ولكن هنالك غرضاً آخر قد يزيد في الاهمية عن هذا الغرض وهو الذي وضعت اسسه قبل ان ارحل الى العالم الآتي وتركت لكما اتمام بنائه . وذلك هو السعي ما امكن الى تحرير البلاد وجعلها في قبضة الوطنيين اذا لم يكن في الامكان تسليمها لدولة عادلة. وانا اعلم الاخطار التي تتهدد حياة كل من وضع امامه هذا الغرض فكان من المنتظر ان احضكما على تركه خوفاً على حياتكما الفانية من ان تعبث بها أيدي المفسدين . ولكن مهما يكن من ميلي اليكما فان ميلي الى مصلحة الجمهور لا يعادله ميل . ويقيني انكما لا تتعرضان للاخطار لان البلاد تكتفي من مثلكما بالنصيحة والارشاد . واعلما انكما اذا كنتما تطمعان في سلطة او ارباح مادية لم تأمنا مغبة الخسران لان الذين حواليكما اشد منكما دهاء واقدر على جلب تلك السلطة والارباح . فاعملا لا لشيء الا لهذا الغرض الشريف وهو انقاذ البلاد من الظلم الذي هي فيه وتسليمها للاكفاء من أهلها . واني اشعر الآن بدنو الاجل فلا تحزنا يوم أدعى الى العالم الفاني لان قليلين ممن يرتحلون عن هذه الدنيا نائلين ما نلت من أهم أغراض الحياة . ووصيتي الاخيرة

Digitized by Google　　Original from HARVARD UNIVERSITY

لكما هي ان تعيشا عيشة الفضيلة والمعروف وان تجتهدا ما امكن في جعل حياتكما محفوفة بدواعي الهناء »

هذا و بعد ان نطق يوسف بهذه الوصية زاد به الضعف ووقع في المرض الاخير ومات، وقد أقام كولين وماري مناحة عظيمة عليه وشاع موته في البلاد ففرح قوم وحزنت اقوام

الفصل السابع عشر

تجديد الثورة وظهور كاراجورج فتش

وكانت نيران الثورة مشتعلة في ذلك الحين فلما انتهى كولين من قرانه هذا الميمون عاد الى ساحة القتال فزاد تلك النيران اشتعالاً وأقلق بعصاباته راحة الجنود العثمانية .وكان شأنه شأن كل محب مقدام يهمه ان تسمع عنه أخبار الجراءة والانتصار فأبدى العجائب في القتال وذاع صيته بين قواد الجنود الوطنية فهابوه وانزلوه منازل الاحترام . ولكنه لم يلبث حتى رأى الفشل عاد بين روساء الاحزاب الوطنية لان كلا منهم كان يريد الرئاسة لنفسه . اما هو فأنه لا يزال محافظاً على وصية يوسف فلم يرشح نفسه لرئاسة مع انه كان أحق بذلك من كل رئيس

وظلت البلاد على ثورات متقطعة بعد ذلك عدة سنوات ومعظم الغلبة للجنود العثمانية وذلك بفضل كثرتها وتدربها على فنون القتال . ولما ضاق الحال بالمتحمسين من الوطنيين عاد كولين الى زوجته ماري يبث اليها الشكوى مما يلقاه من تقاطع الروساء وتحاسدهم وكادت عزيمته تخمد لانه رأى الاعداء في تقدم وقومه في تأخر مستديم . فقوت ماري عزيمته وطلبت اليه ان لا يهدأ عما بدأ فيه وان يعود الى حض قومه على القتال مستعيناً على النجاح في مهمته هذه بجعل رئيس مقتدر على الجميع بحيث يمكن له حفظ مركزه امامهم كلهم فلا يجرأون على مزاحمته وتستقيم الاحوال. فقال ومن يكون هذا الرئيس فان لكل من روساتنا حزباً قوياً ولئن سعيت الى حصر الرئاسة في واحد منهم انقلبت الثورة وبالاً على الوطنيين لانهم يضطرون عند ذلك

Digitized by Google Original from HARVARD UNIVERSITY

الى محاربة بعضهم بعضاً فيقعد العدو متفرجاً ويجد سبيلاً الى زيادة التضييق عليهم والاستبداد . فطلبت اليه ان يحصي امامها هؤلاء الرؤساء وعدد المقاتلين الذين ينطوون تحت راية كل منهم ففعل وظهر لها ان الرؤساء لا يقلون عن تسعة عشر يقودون عشرة الاف مقاتل ولكن بينهم واحد ذكره أمامها بالاعجاب وهو شاب من بلده تابولا ينطوي تحت رايته عدد لا يقل عن الفين . قال وقد ظهر هذا الشاب حديثاً ولم يكن أحد يسمع بأمره او يتوقع منه امراً كبيراً لانه كان مشتغلاً برعاية الخنازير وقلما اشتبك في واقعة من الاعداء الا عقد النصر له مع انه لا يزال غض الشباب قليل الحساب . فقالت ماري ولماذا لا تعقد الرئاسة لمثل هذا وهو قادر على حفظ مركزه امام المتناظرين . أجاب كولين لعله لم يفتكر في ذلك او انه يقدر قوة مناظريه بأكثر من الواقع فخاف أمرهم ولا سيما لانه حديث العهد بدخوله في هذا الميدان . فقالت ماري اليك وذلك القائد فانه خير من تعطى له الرئاسة ولا سيما لان أهالي تابولا قوم اشداء لا يرهبون الموت . فأجاب كولين ولكن لعلك لا تعلمين امراً اجديراً بالاهتمام وهو ان كل اولئك المقاتلين الذين يقودهم جورج فتش مؤلفون من شر عصابات اللصوص وانهم اذا عقد النصر لهم ولرئيسهم طمحوا الى الاستيلاء على البلاد وكانوا جحيماً لا تطاق

وكانت ماري قد سبقت فتناقشت مع يوسف في أمر كهذا واقتنعت بأن تحرير البلاد أمر ضروري مهما يكن من صفة المحررين الوطنيين فاقنعته بالحجج الدامغة التي تعلمتها قائلة له ان ذلك شأن اكثر الذين يقودون جنودنا وانه مهما يكن من ذلك الظالم المنتظر فانه لا يزيد عن ظلم اولئك الغرباء . ثم أحصت امامه عدد الذين تثقفوا بمبادىء يوسف في حياته وهم الذين اخرجوه من السجن وسواهم وطلبت اليه ان يفتش عنهم ويضمهم الى حزبه ثم يذهب الى جورج فتش ويعرض عليه قوته ويرشده الى قوات المتناظرين لعله يطمح الى الرئاسة فتنطوي بقية القوات تحت رايته وتنتظم الامور

ورأى كولين هذا الرأي صائباً فصدع به وجمع الذين تعلقوا بمبادىء يوسف

Digitized by Google   Original from HARVARD UNIVERSITY

وكانوا قليلين ولكنهم يقومون باضعاف اضعافهم لتضافرهم ورغبتهم الاكيدة في تحرير البلاد. وذهب توا الى بلدة تابولا فقابل جورج فتش وهو قاعد يلهو في زرائب الخنازير. وكانت هذه اول مرة تقابل فيها البطلان ولكن كولين رأى من هيبة جورج اقل مما كان يسمع فكاد يوجه اليه نظرة الاحتقار لولا انه سمع كلامه وتدبيراته وما يدور في قلبه من الغيرة الوطنية والاقدام فارتفعت منزلته في عينيه وعلم حينئذ سر اقتداره على جمع هذا المدد العديد تحت رايته وان الظواهر كثيرا ما لا تدل على الحقائق الباطنية. وعلى هذا فاتحه كولين في المهمة التي جاءه في شأنها وقال له انت تعلم ان البلاد قامت اليوم بعمل خطير ولا بد لها من انجازه او ساء المصير. على ان كل الرؤساء الذين يديرون رحى الحرب متقطعون ولا يعرف لهم رئيس. وقد علم الاعداء ذلك منا فازدروا بنا وحملوا الخسائر بمهاجمتنا حينا وراء حين. وقد رأيتك اقدر هؤلاء الرؤساء على الرئاسة لعظم قوتك بالنسبة اليهم وربما فاتك ذلك فلم تحاول حصر الرئاسة فيك لتستقيم الاحوال. فالرأي عندي ان تتولى رئاسة الجنود التي تقودها كلها وبينها قوتي وهي لا تقل عن ستمئة رجل أمد كثيرين منهم بالمال. واذا عارض بعض الرؤساء في ذلك أمكن لك بقوتك هذه ان تخضعهم تحت رايتك فتتولى القيادة العامة وتحكم البلاد اذا اتيح لك النصر الاخير

ولما سمع جورج ذلك الرأي خاف عواقبه لانه ظنه دسيسة دبرها له الاعداء والمتناظرون وكان كثير المكر والخداع فلم يشأ تصديقه لاول وهلة واكثر معه الاخذ والرد. ولكنه رأى من كولين علائم الاخلاص فلاينه في الحديث ورضي بقبول القوة التي تحت يده والطموح الى الرئاسة اذا لم يكن عند الرؤساء الآخرين قوة تزيد عن قوته. ثم أبدى له الوثوق التام من النصر الاخير قائلا ان الاعداء على كثرتهم لا يستطيعون الثبات امامنا لانهم بعيدون عن بلادهم فلا يتمكنون من جمع الذخيرة الكافية والجند الكثير. واعلم انني لم أجد صعوبة تذكر في جمع القوات التي تحت يدي لاني لم اكن ألبث حتى ارى الرجال يفدون الي بالعشرات والمئات وكلهم راغبون في جعلي رئيسا عليهم كأنما هنالك يد خفية تميل قلوبهم نحوي وتدفعني الى هذا العمل

الخطير . وقد أنبئت من أمي بانها حلمت يوم ولدتني حلماً فسره لها واحد اسمه يوسف كان له شأن في تعبير الاحلام وفيه أنني سأقود الجنود في حرب وطنية عامة ينتهي الامر فيها بفوزي على الاعداء وتحرير البلاد وما زلت أردد هذا الحلم في ذهني صغيراً وهو موضوع هزء مني وسخرية حتى وصلت سن الرشاد وعرفت كيف يكون القتال متحمساً بالعصابات

ولم يكن كولين قد سمع بشيء عن مقدرة يوسف على تعبير الاحلام فلم يدرك ان جورج يشير الى يوسف الذي يعرفه . على انه كان كأكثر سكان السرب يعتقد بصحة بعض الاحلام فالتفت الى قول جورج وسمعه بشيء من الاهتمام . ثم قال له ان تحرير البلاد من أهم حوادث الارض ولا بد من ظواهر تبدو قبل حدوث حوادثه . ولا أرى ما يمنع من التصديق على ان مدبر الكون عاليه وسفليه يجعل اهتماماً خصوصياً بأمر كهذا خطير فيعد لانجازه اشخاصاً معينين ثم يظهر لهم قصده بوسائط كثيرة منها واسطة الاحلام حتى اذا عرفوا انفسهم والمهمة التي خلقوا لاجلها تجرأوا في انجازها بقوة غير اعتيادية . والله الذي يشرف من اعالي سمائه على افعال الظالمين رأى ما يصيب أهالي السرب من الظلم والجور فلعله تحنن عليهم وقصد تحريرهم على يديك . واعلم ان الامة كلها معك وان الذين يقفون عثرة في سبيلك لا يلبثون حتى يتراجعوا على اعقابهم مدحورين مادمت مؤيداً بهذه القوة ومعززاً نفسك بذلك الاعتقاد

وكان جورج لما سمع بما قال كولين تجدد عنده الاعتقاد بانه مدعو دعوة خصوصية الى انجاز مهمته هذه فزادت جراءته وزاد ايقانه بالنجاح . ولم تكن امه قد اخبرته بما سيحل به في منتهى الايام حسبما جاء في ذلك الحلم لانها رأت ان تخفيه عنه ولا تخبره بغير الرئاسة المنتظرة والعز لئلا يعيش حزيناً ويعرف انه مساق الى الموت . لهذا لم يكن شيء يتخلل افكاره من التخيلات المزعجة بل كان معظم ظنه انه سيحارب عن البلاد وينتصر لها على اعدائها ثم يجلس على عرشها الجلوس المأنوس

Digitized by Google Original from HARVARD UNIVERSITY

ولما اتفق معه كولين عاد من عنده بعد ان وعده بارسال قواته اليه وكل ما معهم من ذخيرة ومؤونة وذهب مسرعاً الى ماري وكأنه وجد ضالته المنشودة واقبل حاملا اهم ما تهتم لسماعه فبشرها بوجود الرجل الذي سيكون فعله فاتحة خير على البلاد لانه رآه مقتدرا على ضم الاحزاب تحت رايته ومتى تم له ذلك لم تبق صعوبة تذكر في تحرير البلاد · وجلس اليها يقص ما رآه من استعداد ذلك القائد ورضائه بضم قوته اليه وكيف انه واثق بالنجاح ولا سيما لانه يعتقد بانه مدعو من الله الى هذه الحرب دعوة خصوصية · قال وقد سمعته يقول ان امه قصت عليه حلماً حلمته يوم ولدته ومؤداه انه سيقود جيوش السرب في حروب وطنية عامة تنتهي بفوزه على الاعداء وتمكنه من تحرير الشعب والجلوس على عرشه وان رجلا اسمه يوسف كان معروفاً بقدرته على تعبير الاحلام هو الذي عبر هذا الحلم العجيب

وكانت ماري قد سمعت طرفاً من هذا الحلم قصه عليها يوسف عرضاً في حديث له ولكنها لم تعلقه في ذهنها فلما أعاده عليها كولين عادت فتذكرته . فقالت لكولين اننا اذا غضضنا النظر عن الحلم وصحته فان مجرد الاعتقاد الذي ملأ قلب جورج يؤهله للتجرؤ على انجاز تلك العظائم المنتظرة منه . ولو لم يكن يوسف هو الذي قص علي ذلك الحلم وعبره ذلك التعبير لما صدقت له اصلاً ولا فرعاً . ولكني اعلم انه كان حريصاً في اقواله وفعاله ولم يكن ليذيع امراً الا اذا كان على اعتقاد منه تام · ولعلك لم تفطن الى ان يوسفنا هذا هو الذي اخبرك جورج بانه المعبر لذلك الحلم ولو انك عرفت ذلك وأخبرته بالعلاقة التي بيننا وبينه لوجدنا اقرب مما نحن الآن واحترمنا احتراماً كبيراً لانه كان وكل افراد عائلته يجلون يوسف كل الاجلال . وذلك لانه فضلاً عن انه كان المعبر لذلك الحلم فانهم لا يجهلون ما احتمله في سبيل تعبيره بل هم يعلمون ان كل ما اصابه من ظلم وسجن كان ناشئاً عن ذلك الحلم لان الحاكم الذي جعل الله آخرته على يديك لما سمع بانه اذاع هذا التعبير خشي من استقلال البلاد فاستقدمه اليه وعلم منه ما يدور في خاطره من هذا القبيل فأطال في ظلمه وامتهانه · فالرجل الذي يحتمل من اجل هذا الحلم كل ذلك الاحتمال لجدير بأن

يكون هو وأهله موضوع الاحترام من صاحبه . ولا أخطيء اذا قلت ان كل الحوادث الجارية الآن والتي ستجري بعد في بلاد السرب بل حادثة اقترانا ايضاً انما نشأت عن ذلك الحلم لا عن سواه . فان يوسف لما ظلم وسجن بعد ان عبر الحلم شعر بمقدار الجور الذي تقاسيه البلاد على يد ذلك الحاكم واعوانه وأقسم في نفسه ان لا يعود حتى يضرم نار الثورة لتحرير البلاد ثم أخذ يهيء الافكار لذلك فارشد اليها كثيرين في السجن وغيره ونشأ عن ذلك ونحوه ما ترى الآن من الثورات المتواليات . وقد كانت شهرتك في هذه الحرب داعية يوسف الى تعلقه بك وتزويجك مني ولا سيما لانك كنت السبب في انقاذ البلاد من ذلك الحاكم . فانظر كيف يكون الحلم علما وكيف تنقلب الاحلام وما يتخللها من خرافات واوهام الى حقائق تقوم لها امة كبيرة وتقعد

قالت على ان جورج فتش لا يعرف كل ما جاء في ذلك الحلم ولو انه عرفه لحاول التملص من الحوادث الحاضرة الا اذا كانت لذة الملك تسهل عليه الموت قبل الاوان . فقد اخبرني يوسف ان تعبير ذلك الحلم قضى بان يقتل جورج بعد ان يخضع اعداءه بقليل فلا يتنعم كثيرا بلذة الامارة ولا تطول ايام عزها . ويحسن بجورج ان لا يعرف مصيره هذا لانه ليس أردأ من ان يعرف الانسان ما ستنتهي اليه اموره . وقد قضت العناية بان يختفي المستقبل عن اعين الناس وبحكمة قضت هذا القضاء والا كانت الحياة جهنما على العالمين . مثل ذلك الرجل يشقى نهاره والليل معرضا نفسه لاشد الاخطار محروما من لذة السكينة وهدوء البال فاذا جاء الوقت الذي فيه يجني ثمرة اتعابه هذه خطفت روحه من بين جنبيه وترك تلك الثمرة ليتلذذ بها سواه وربما كانوا اعداءه الالداء . أفليس من الحكمة وحسن الحظ ان لا يعرف هذا المصير

فأجاب كولين اذا كان الامر كما تقولين فقد وجبت علينا مساعدة جورج بكل ما نستطيع وذلك لا للوجهة الوطنية فقط ولكن لتحقيق امال يوسف فيه . ولا ريب انه يثق بنا كل الوثوق ويتخذنا معوانا له على نيل مآربه ما دام ان له هذه العلاقة بيوسف .

Digitized by Google Original from HARVARD UNIVERSITY

ولا أظنه يحفل بما جاء في نهاية الحلم من انه سيقتل بعد ان يستتب له الامر لان مثله لا يعرف الخوف . وان كثيرين من ارباب التيجان انما ارتقوا عروشهم وهم يرجحون انهم سيقتلون ولكن لذة الملك تقوم حيالاً بينهم و بين التهيب من هذا المصير

قال كولين هذا واخذ يعد عدته و يجمع قوته ليذهب بها الى جورج فتش فلم يمض قليل حتى جمع رجاله وكثيرين غيرهم ايضاً ثم توجه اليه مسرعاً وقد حمل كثيرا من الذخائر والمؤن . فلما وصل اليه أعلمه بالعلاقة التي بينه و بين يوسف وكيف انه تزوج بماري ابنة اخته وقص عليه ما قالته زوجته عن ذلك الحلم فسر لذلك سروراً بالغاً ورأى ان يحصر ثقته في هذه العائلة . وكان جورج قد سمع بشجاعة كولين وحسن تدبيره في قيادة الجنود فولاه فرقة كبرى بعد ان دعاه الى حلف اليمين ليقيم مخلصا له . ولما عزم على السير لدعوة الرؤساء الاخرين الى الاتحاد قال جورج لكولين على سبيل المزاح اعلم اني ممن اذا راعوا صالحهم الخصوصي لم يشهروا سيفا في هذه الحرب لان مصالحي لا تروج في غير الحكومة الحالية . فلا اخالك تجهل ان كل الذين يلتفون حولي يعدون من اشهر قطاع الطرق فكان في الامكان ان اعيش بما يجلبون ناعم البال . وهم لا يستطيعون اتمام مآربهم الا في عهد الحكومة الظالمة لان كل حكومة من هذا القبيل تفسد الاحكام وتجعل البلاد في حالة فوضوية يروج فيها ارباب الفساد . ولكنني سمعت من صراخ الشعب ما دعاني الى هذا النهوض . وقد صرت اكثر السربيين علما بما يصيبهم من ضروب الظلم والجور وفساد الاحكام لانني طالما نهبت وقتلت تحت ظل هذا الفساد وطالما خربت بيوتا عامرة وهؤلاء من حولي يعيشون مفسدين باسم الحكومة نفسها . ولكن الاشرار انفسهم يكرهون الشر ولا سيما اذا شبعوا منه . وقد عادت تلك الدماء على رؤوس الكثيرين من اقرباني فقتلوا امام عيني ولم اتجرأ على انقاذهم لاني كنت ضعيف الحول . فسئمت هذه الحالة حالة الظلم والفساد ورأيت ان أحول تلك القوة التي طالما استخدمتها في الشر الى قوة اخرى أنحو بها نحو ذلك الخير المراد . ورأيت دافعاً سرياً يدفعني الى ذلك فلم يسعني مقاومته بل اني ابيته لاول وهلة طموحا الى

الرفعة الحقيقية وعلو المقام . وانما ذكرت لك ذلك لتكون على علم من أمري قبل ان يبلغك عني ما تمجه نفسك . واني أعدك وعدا صادقا باني اذا نلت ما أطلب من تحرير البلاد ودانت لي قوات الروساء الاخرين راعيت العدل في كل الاحكام وأدخلت الشعب في دور جديد ينسيهم كل مظلمة شهدوها في الادوار السابقة

فقال كولين ليكن ما قلتهُ صحيحاً ولعل هذه القوة التي طالما خربت البيوت العامرة كما قلت تعود فتعمر تلك البيوت . واعلم انه كثيراً ما تتحول قوات الشر الى خير وانك اذا ظفرت بتحرير البلاد كفرت عن كل سيئاتك الماضية . والآن فلنقم لا نجاز العمل فان كل وقت يمضي خسارة على الامة والبلاد وداع الى ازدياد الفساد

قام جورج وكولين ووراؤهما الرجال الاشداء ثم ارسلوا امامهما فرقة من الجند لتدعو الروساء الآخرين الى الانطواء تحت رايتهما فسمع لها رئيس منهم وكان عنده حوالي خمسمئة انضموا الى ذلك الجيش . وبقي الروساء الآخرون فأصروا على عدم الاذعان واشهروا الحرب على جورج فتهيأ لملاقاتهم وفي قلبه حسرات لوقوع القتال بين الصفوف الوطنية قبل ان تبدأ بمحاربة الاعداء . وخاف ان يسمع الاعداء بذلك لئلا يأتوا ويعاونوا الاحزاب المضادة له فرأى ان يسرع بكسر شوكتها فسير عليها الجنود في واقعة هائلة دامت اياما ولم تنته حتى قتل من الفريقين حوالي الفين . وقد عقد النصر الاخير لجورج وابطاله فاقبلت جنود الاحزاب الاخرى وسارت تحت رايته واستتب له الامن من هذا القبيل . وبقي رئيسان لم يحفلا بما عمل ثم هربا في عرض البلاد فطرح رأسيهما في المزاد بان عرض مبلغا طائلا لمن يأتيه بهما . فلم يمض قليل حتى قتل الرئيسان ودانت له كل الاحزاب فاقبلت عليه تقدم اليه كل ما عندها من مال ورجال . ولم تنتهز الحكومة هذه الفرصة لاضعاف جورج وجيشه مع ان ذلك كان في الامكان وذلك لانه ارسل من اعطى بعض القواد رشوة طائلة اعمت بصيرتهم وباعوا بها حكومتهم . على ان السر في ذلك لم يلبث حتى انكشف وارسلت الحكومة فطردت اولئك

القواد وأمرت الباقين باعداد الجنود وارسال حملة قوية على جورج لاذلاله . وعلمت الحكومة العثمانية ان هذه الثورة تزيد عن كل ما تقدمها فأرسلت جيشاً جديداً وزودت قواده بكل ما يلزم . ولم يمض قليل من الزمن حتى وقعت واقعة هائلة بين الجيشين جيش الاتراك وفصائل السربيين فعقد النصر للجنود العثمانية واندحر جورج أي اندحار . ودب الفشل في صفوفه بعد ذلك فدعا كولين الى جمع شتاتهم وتحريضهم على معاودة القتال قائلا ان النصر الاخير لنا لا لسوانا فاذا داومنا على القتال أعدنا ما تهدم من مجدنا وطردنا الاعداء . وكان كولين خطيباً مفوهاً فاستعان بصوته على الحث والتحريض ووعد كثيرين من رؤساء الفرق بالاموال فلم يمض أسبوعان حتى عاد الجيش السربي الى نظامه الاول وتهيأ للقتال

وكانت الجنود العثمانية قد رأت من جيش السربيين ضعفاً متناهياً فلم تعبأ به في هذه المرة وخاضت غمرات الحرب كمن يطرد لصاً جباناً لا جيشا جراراً وصلت به الجراءة الى حد الاستقتال . لهذا ضعفت شوكة الترك في هذه المرة وتمكن السربيون من قهر جنودهم في عدة وقائع ولا عجب في هذا فان اكثر أنواع الظفر والانخذال ناشئة عن استخفاف الاقوياء بالضعفاء الذين يظهر عليهم الضعف والدخول معهم في شحناء على غير استعداد . ولكن لما كان الحكم للقوة على كل حال خاض جيش الاتراك معركة أخرى رفعت فيها رايته ونكست راية السربيين . وكان اندحار كاراجورج فتش في هذه المرة شديداً فتمزق شمل جنوده ولم تبق منهم فرقة على فرقة الا كثر قتلاها وجرحاها ودب فيها الفناء . ورأى هذا القائد ان بقاءه على هذه الحال ذو خطر على حياته وحياة البلاد نفسها فاستدعى كولين وقال له لقد رأيت ما حل بالجيش وما هي الا فتنة أقامها أولئك المنافقون الذين طالما تظاهروا لنا بالود والصفاء وهم من ألد الاعداء ولقد علمت بعد انخذالنا ان هؤلاء المبغضين رشوا كثيرين من قوادنا أنفسهم فلم يثبتوا في القتال وكانوا يتقهقرون قبل ان تأخذ المعركة حدها فكان ما كان . ولا بد من يوم أنتقم فيه من أولئك الادنياء لان وجودهم عار على البلاد وسكانها . وقد كنت بدخولي في هذه الحرب أطمح الى

Digitized by Google Original from HARVARD UNIVERSITY

استقلال البلاد والجلوس على العرش اما الآن فصار كل همي موجهاً الى كيفية خوض غمراتها ومحاولة الانتصار فيها لأتمكن من ذلك الانتقام . وذلك اليوم الذي انتصر فيه تمام الانتصار لهو يوم عصيب على أولئك المساكين لاني أقلب مساكنهم رأساً على عقب وأحرثها حرثاً وأذبح اولادهم امام عيونهم ثم لا اريحهم بقتلهم ولكني أطيل في عذابهم بابعادهم عن البلاد وارسال من يعذبهم حيناً وراء حين ليعلم المنافقون ان نجاح دسائسهم قصير العمر وان لا بد لهم من عقاب شديد

واعلم اني ما زلت موقناً بالنجاح في مستقبل الايام ولكني ارى من الحكمة الآن ان ابتعد عن هذه البلاد حتى تخمد ثورة الانكار والانتصار ثم اعود فأعيد الثورة والقتال . وكل ما ارجوه منك ان تكون يقظاً مدة غيابي ونائباً عني في استطلاع الاحوال وضم الاحزاب بعضها الى بعض واحياء الروح الوطنية في القلوب لأنها اذا تركت وشأنها بعد هذا الانخذال لم تلبث حتى تزول وتتحول سخطاً علينا وعلى القائمين بتدبير البلاد

الفصل الثامن عشر

﴿ هروب جورج الى النمسا ﴾

قال هذا ثم جعل وجهته بلاد النمسا فتوجه اليها واحتمى بها لانه علم عن ثقة انه اذا اقام في بلاده تمكن اعداؤه من قتله . وكان هروبه الى تلك البلاد في سنة ١٨١٣ اي في اوائل القرن التاسع عشر الذي كانت الاذهان قد تنبهت فيه الى فضل الحرية على العبودية واستعدت لتدبير ثورات تكون فارقة بين زمني العدل والظلم فاستقبل هنالك استقبالاً باهراً وظل موضوع الاكرام والاعجاب زماناً طويلا

وكان يخلو بنفسه احياناً كثيرة ويعيد الى ذهنه حوادثه الجسام فيستعظم نفسه بالنسبة الى هذه الحوادث ويراها اكبر من ان تصدر عن مثله ولكنه كان موقناً بالنصر الاخير فلم يكن يهدأ عن تدبير امر آخر يتمكن به من اعادة الكرة على الاعداء

والعود الى الاهتمام بتحرير البلاد

وكأنه كان مسوقاً بقوة قهرية الى الاحتماء بالنمسا ليتم ذلك الحلم الذي حلمته امه يوم ولادته ذلك مع انه كان هو وكبراء الشعب الصربي يتمنون لو انهم تمكنوا من تحرير البلاد بدون الالتجاء الى مملكة اجنبية لانهم لم يكونوا يجهلون انه ليس للسياسة قلب يعرف المعروف وانه لن تخدم بلدة بلدة الا اذا كان لها من طمعها مأرب. ولكن مهما يكن من الحلم وخوارق الطبيعة فان العناية القائمة بتدبير الاكوان لا تأتي في الغالب امراً مناقضاً للمعقول او خارجاً عن حيز الامكان. فان في البلاد الاوربية عدة ممالك لم يتحرك منها لهذه الثورة او يهتم لها غير تلك الدولة ودولة الروس لانهما اقرب البلاد اليها وطالما طمحتا الى اضعافها بسلخ ولاياتها منها . وعليه فلا عجب ان يقضي تفسير ذلك الحلم بان الغمامتين اللتين رؤيتا فيه انما هما تانك الدولتان لا سواهما فانهما ما برحتا تثيران خواطره وخواطر المشتغلين بتلك الثورة ليتشجعوا في عملهم وتخرج تلك البلاد من يد ضعيفة الى ما هي اضعف فتزيد تلك اليد ضعفاً على ضعف ولا تتمالك هذه اليد عن ضبط ما ملكت فتتولاه يد الضياع

محاورة خطف ماري

لماذا تكره المرأة المرأة

وكان كولين يدبر هو وزوجته ماري حفظ كيان الروح الوطنية في البلاد فكانا يجمعان الرؤساء من حين الى حين ويثيران نخوتهم ويفهمانهم ما ستصل اليه البلاد من السوء اذا استمروا على الرضى بالذل وهذا الخمول . وبإيش ما لاقى كولين من الاعداء الظافرين فان الحاكم الجديد علم بأنه يكاد يكون روح الثورة ومؤسس دعائمها فقصد الفتك به أو الانتقام منه وهو في قيد الحياة ولاسيما لأنه سمع بعلاقته بيوسف وما كان يدور في خاطره من الطموح الى تحرير البلاد . فأرسل نخبة من رجاله الاشداء وأوصاهم بأن يهجموا على منزل كولين ويختطفوا امرأته نفسها من بين يديه ويأتوا بها اليه . فصدع الرجال بالامر وتوجهوا ليلاً الى منزل كولين فوجدوه محصناً بالخفراء ورأوا عددهم أقل من ان يكفي لمقاتلتهم فعادوا وضموا اليهم

قوة جديدة . وعلم حراس كولين بهذه المؤامرة فأبلغوه الأمر وطلبوا اليه ان يسرع الى الهروب مع امرأته منتهزًا هذه الفرصة الضيقة فخرج مع ماري حالاً الى منزل مجاور لمنزله واحتمى واياها فيه . ووقف الحراس مستعدين للقتال وقد دخلوا المنزل وتحصنوا في أعاليه فصاروا أمنع من عقاب الجو. وكانوا قليلين بالنسبة الى المهاجمين ولكن تحصنهم في المنزل اضاف قوة أخرى على قوتهم شأن مواضع الدفاع فانها اذا أحكمت كان الفرد فيها مقوماً بعشرة من المهاجمين الى عشرين وثلاثين . وأقبل رجال الحاكم فقابلهم الحراس باطلاق النيران الحامية من زوايا النوافذ وأعالي السطوح فأبعدوهم عن المنزل بعد ان حلوا بهم خسائر بالغة . على انهم لم يبتعدوا عن المنزل قليلاً حتى جاءهم رسول يقول لهم ان الصيدة التي تطلبونها موجودة في منزل آخر بالقرب من هذا المنزل وان صيدها منه أسهل مافي الامكان. وعليه رأوا ان لايعودوا خائبين فالووا عنان سيرهم الى ذلك المنزل حتى وصلوه فطلبوا الى صاحبه ان يسلم لهم ذينك الهاربين بدعوى ان الحاكم أمرهم بالقبض عليهما لانهما يحرضان الاهالي على القيام ضد الحكومة واقلاق الراحة العمومية . وكان صاحب المنزل واسمه ابرهيم من الرجال الاشداء الذين لايرهبون الموت وقد اشتهر بالمروءة وكرم الاخلاق فأقسم ان لايخرج المحتميان به من منزله الا اذا عدم كل وسائل الدفاع اومات . وكان له ابنان علمهما اطلاق النار وكانت ماري بارعة أيضاً في فنون القتال فتألفت حامية الدفاع منها ومن زوجها كولين وصاحب المنزل وابنيه. وكان في المنزل شيء كثير من آلات الدفاع والذخيرة الحربية استعدادا لمثل هذا الطارئ فقبض كل منهم على بارودته ووقف في نافذة من النوافذ مستعدا للدفاع الى آخر نقطة من دمائه

وقد كان وصول الخبر الى رجال الحاكم بوجود كولين وماري في ذلك المنزل عن دسيسة شائنة صدرت من المنزل نفسه . فان ابرهيم كان متزوجاً بعمة رالي ذلك الشاب الذي حاول ان يخطب ماري من يوسف ولم ينل يدها مع ما بذله من الجهد الى حد اراقة الدماء . ولم تكن ماري تعرف هذه النسبة ولو عرفتها لما خشيتها أيضاً لتقادم

Digitized by Google

Original from
HARVARD UNIVERSITY

عهدهـا . ولكن من الناس من طبعوا على حب الانتقام وحفظ الضغينة مادام في عروقهم الخبيثة دم ينبض وفي صدرهم روح ترف . واذا صدق هـذا على ابناء آدم فأحر به ان يصدق على بنات حواء . فان الضعف والضغينة صفتان مقترنتان بعضهما ببعض . ولا عجب في هذا فان الضعيف الذي لاحول له ولا طول لايستطيع اظهار مابه فيكظم الغيظ ويحفظ الضغينة في قلبه حتى اذا لاحت فرصة ينتقم فيها من عدوه بطريقة ممكنة لم يتأخر عن ذلك لحظة واحدة . والمشهور ان المرأة تكره المرأة ولا يكره الرجل الرجل . فان المرأة اذا التقت في الطريق بامرأة أخرى وجهت اليها نظرة حادة والتفتت لفتة حاسدة وليس هكذا شأن الرجال مع الرجال . ولعل السبب في هذا ان النساء يحسبن أنفسهن غالباً كأمتعة لغيرهن بحيث انهن يضعن ذواتهن بالنسبة الى الرجال في مركز الخادمين بالنسبة الى الاسياد المالكين . وطبع الحسد غالب على المملوك اكثر منه على المالك . فان التحاسد والتناظر شائعان بين الخادمين مثلاً اكثر من شيوعهما بين الاسياد او بعبارة اخرى بين الضعفاء اكثر منه بين الاقوياء . ذلك لان الخادم او المملوك او الضعيف لا يرى حظه ناشئاً عن قوته الذاتية بل عن قوة غيره فهو يغار ان ينال نده من ذلك الغير اكثر مما ينال فينشأ من ذلك طبع الحسد . ثم ان خلو الضعيف من القوة الذاتية المفكرة والعاملة مما يوجد له سبيلا الى الاشتغال بامور غيره لانه لو كان مفكرا وعاملا لوجد في اعماله ما يكفي لاشتغال باله . وما احرى المرأة ان تنطبق امورها على هذا الوصف . فانها لما كان حظها في الحياة ناشئاً عن قوة غيرها لا عن قوتها الذاتية فهي تغار ان تنال ندتها او مناظرتها من ذلك الغير ما لا تنال فينشأ عن ذلك ما هو معروف عنها غالباً وعن كل ضعيف من طبع الغيرة المرة والحسد المميت . ثم انها لما خلت من القوة الذاتية المفكرة والعاملة وجدت سبيلا الى الاشتغال بامور سواها فتبدل العمل اليدوي المحتاج الى قوة بدنية وفكرية بعمل آخر يغلب ان يصدر عن اللسان والنظر فتربى عندها موهبة النطق وملكة الانتقاد . واي مخلوق في الارض ابرع من بنت حواء في ملكة النقد وفي علم الكلام الكثير

على ان درجات التحاسد بين الضعفاء او بين النساء تختلف كاختلاف الضعف وتتنوع بتنوع الظروف . فالعين لا تحسد الا ما هو افضل منها وما هو اقرب اليها . ويصدق على هذا أو ذاك مانحن فيه . فان تلك العمة المباركة وكان اسمها كارولين لم تكن بالنسبة الى ماري امرأة فقط بل كانت اقل منها جاهاً وجمالاً وأقرب الجارات اليها فضلاً عما بينها واياها من تلك الضغينة الماضية . انها كانت تخشى ان تنال ماري حظاً في عيني زوجها ابرهيم اكثر مما تنال. أو انها كانت تحسدها لا لشيء الا لانها جارة تفضلها في مزاياها وأذكرها هذا الحسد بالانتقام منها لابن اخيها رالي ففصلت هذا الدور دور الدناءة والعار وكان من امرها انها لما رأت كولين وماري قدما الى منزلها ملتجئين تظاهرت بالترحيب بهما ولكنها وطنت النفس على جعل المنزل مصيدة لهما لا يخرجان منها الا الى الموت واستدعت احدى خادماتها وأوصتها بان تذهب الى رئيس العصابة التي قدمت لخطف ماري وتنبئه سراً بوجودها في منزلها . وأخذت عليها العهود والمواثيق بان لا تبوح بما سمعت أو أتبعتها الى حيث تذهب ماري . وعليه أسرعت الى ذلك الرئيس فرأته هارباً مع العصابة بعد ان أثخنوا بالجراح فنادته كأنها تستغيث به من خطر عظيم وأسرت اليه الامر وذهبت في طريقها عائدة الى المنزل . وعلمت كارولين بذلك فطاب منها الفؤاد وكانت شديدة الحقد والحق الى حد انها لم تخش على حياة زوجها وولديها من الهجوم المنتظر كأنها تريد ان تتخلص من ضرة جائرة ولو بفقد نفسها

قدمت العصابة الى منزل ابرهيم وطلبت انزال ماري كما تقدم لانها لا تطلب سواها فناداها صاحب المنزل بانها استجارت بنا فخروجها محال قبل ان يقضى على كل ساكن في البيت . فأجابته العصابة بطلقات نارية في الفضاء لارهابه فأجابها بمثلها ودار القتال

علمتها كارولين وانزوت في احدى زوايا المنزل وليس فيها عرق ينبض من شدة الخوف ولكنها أحست حينئذ بالخطأ العظيم الذي أتته لتعريضها زوجها وابنيها للموت رغبة في الانتقام . وأظهر المدافعون ليلتئذ براعة تامة في الرماية فكانوا وهم لا

Digitized by Google Original from HARVARD UNIVERSITY

يزيدون عن خمسة يقومون بمئة وأكثر حتى انهم أدهشوا رجال العصابة واضطروهم الى محاولة دخول المنزل بواسطة نقبه. وعليه أخذوا ينقبون الجدار بالآلات الحادة حتى اذا كادوا ينتهون أقبل حراس كولين وكانوا قد سمعوا بهذا الغدر وحاصروا أولئك الرجال. وكان كولين قد علم ان في المسألة دسيسة كبرى لا يكفي لمقاومتها حراسه القليلون فلما بدأت أرسل رسولا منهم الى أحد قواد الجيش الذي خاض المعارك الوطنية مع الاتراك وطلب اليه ان يمده بمن يستطيع من الرجال الاشداء. كذلك الحاكم فانه لما رأى قومه قد أبطأوا أمدهم بكثيرين من رجاله وكان وصول الفريقين في ساعة واحدة فكان لقدومهما ضجة كبرى حيث عرف كل منهما رجاله واتحد بهم ونشبت معركة كبيرة بينهما. وكان النهار قد قارب الطلوع فضجت المدينة وكثر فيها الاضطراب ورأت ذلك غدرًا من الحاكم وأعوانه وحطًا لكرامة العائلات فمولت على معاونة كولين ولكن الفظائع التي شهدها الاهالي من جنود الحاكم أيام حروب جورج فتش قد كسرت قلوبهم وربت فيهم الخوف الشديد فلم يستطيعوا التظاهر كثيرًا واكتفوا بأن رحبوا برجال كولين وجعلوهم يدخلون منازلهم ليتخذوها حصونًا لهم. وكانت هذه اكبر مساعدة تنتظر منهم لان قبولهم في المنازل ساعتئذ كان بمثابة دخولهم حصنًا محصنًا تتضاعف فيه قوتهم عدة أضعاف

وكانت ماري تنظر الى هذه الحركة وتعيد الى ذهنها تاريخ حياتها الماضي فتراه كله نحسًا وبؤسًا لانه عبارة عن وقائع دموية لم تكن لتنقضي قبل ازهاق الارواح. وقد فاتها ان الجاني عليها كان قوامها المعتدل ووجهها الاصبح وعينها التي في طرفها حور. فهي كانت مطمح الانظار ومحط الامال ولا عجب ان تكون كذلك فان الريح تعصف في كل جبل عال. وطالما قتلت كثيرين بسهام عينيها ولن تضيع هذه الدماء هدراً مادام في الدنيا عدل. وندبت سوء حظها وقالت ليتني لم اولد اذن لارحت كل هؤلاء الابطال من عناء القتال. وعزمت حينئذ ان تعيد تمثيل الرواية التي كادت تمثلها ايام عزم الاشرار على خطفها فتاة صغيرة وهي الانتحار لتخلص الناس من التزاحم عليها وتتخلص هي مما عسى ان يلحق بها من العار. ولكنها عاودت

Digitized by Google Original from HARVARD UNIVERSITY

نفسها ورأت انها لم تبق لنفسها فقط بل شاركها في حياتها رجلها واولادها الصغار فاذا تخلصت من الحياة عبثت بحقوق هذه الشركة واتت ذنباً لا يقبل الغفران

، وتكاثر رجال الحاكم حينئذ ولكن كثرتهم لم تجدهم نفعاً لان رجال كولين كانوا يرمونهم من اعالي السطوح فيبددون شملهم أي تبديد . ولكن المنزل الذي كان كولين فيه كان ولا يزال تحت الحصار فلم يستطع أحد ان ينجده . وقد اشتدت نيران الاعداء عليه فقتل ابراهيم وولد من ولديه وضعفت حاميته وخارت عزائمها . ورأت كارولين قتل زوجها وابنها بعينيها فطار لبها وخافت ان يقضى على الولد الباقي فعزمت على فتح باب المنزل ليدخل طالبو ماوي ويأخذوها وينتهي الامر . فارسلت خادمتها وفتحت الباب فدخل القوم وهجموا على كولين وامرأته وكانت قد نفدت كل ذخيرة عندهما ولم يبق لديهما طلق واحد فـلما مضطربين والدموع تزرف من عيونهما . ورأى كولين ذلك العار الذي سيلحق به فخطف سيفاً من أحد الاعداء ليقتل به نفسه ويقتل ماوي ايضاً وهكذا حاول ان يفعل فطعن نفسه طعنة لم تصادف منه مقتلا فلم يقتل ولحقه القوم فأخذوا منه السيف وربطوا يديه وماوي تنظر اليه وقد تمنت لو افلح في قصده وقضى عليه وعليها في آن

وخرج الاعداء بهذه الغنيمة الكبرى وقصدوا منزل الحاكم فلم يسيروا طويلا حتى لحق بهم رجال كولين ورجال ذلك القائد فدارت بين الفريقين معركة دموية هائلة جندلت فيها الابطال وجرت الدماء في الشوارع كالانهار . وتحمس رجال المدينة من جديد فأقبلوا لمساعدة رجال كولين وتزايدت النجدة زيادة عظيمة فصار رجال الحاكم قليلين بالنسبة اليها واضطروا الى ترك الغنيمة والهروب لينجوا بحياتهم . وعلى هذا انقضت المعركة ولم ينل الاعداء غير سفك دماء الكثيرين فاقبل الناس على كولين وماوي فحلوا وثاقهما وارجعوهما الى حيث كانا وقد كاد يقضى عليهما من شدة ما اصابهما من الجروح والاوصاب . ولكنهما خافا ان يعود الحاكم فيطلب نفسيهما فقصدا الارتحال على عجل وجهز كل ما يمكن تجهيزه باسرع ما في الامكان وهربا الى حيث لا يعرف انسان

الفصل التاسع عشر

رجوع كاراجورج فتش من النمسا

انتصاره وجلوسه على العرش

حدثت تلك الحوادث بعد ان سافر كاراجورج فتش الى النمسا بحوالي سنتين وسمع بها فزاد تأسفه لما حل بالبلاد من الويلات ولكنه سر لان ويلات كهذه مما تزيد نفوس الوطنيين سخطاً على سخط وتحملهم على بذل كل ما لديهم في سبيل تحقيق اماله . وأخذ من ذلك الحين يهيء السبيل لرجوعه الى بلاد السرب وتجديد الثورة فاستنجد اولا حكومة النمسا فاجابته بما يجيب به كل سياسي له غرض يسعى اليه وهو أنها زادته تحريضاً على الثورة وأوجدت عنده أملا بمساعدته ولكنها اضمرت غير ذلك . وبنى على هذه الآمال ما شاء من قصور عوال ثم اقترض مبلغاً طائلا من بعض الماليين مستعيناً على ذلك بوصية من بعض كبراء السرب وضمانتهم . وكانت المخابرات السرية دائرة بينه وبين كثيرين من القواد الذين كانوا في صفوفه وذلك ليتخذوا الاهبة للحرب القادمة ويجمعوا اليهم كل الاحزاب الوطنية مهما كلفهم ذلك . وعليه باتوا يبذلون وسعهم في الحض والتحريض ويجمعون العدة فلم تمض سنتان اخريتان حتى اجتمع عندهم كل ما يمكن جمعه وارسلوا الى جورج ينبئونه بتمام الاستعداد

ظهور زعيم جديد

ميلوش ابرونيفتش

على ان هؤلاء القواد رأوا بين احزابهم رجلا تظهر عليه علائم الطموح الى زعامة الثائرين يقال له ميلوش ابرونيفتش فنبذوا لحركاته وحسبوا له حساباً كبيراً ولا سيما لأنهم رأوه كثير النفوذ بين قومه مهاب الجانب . وقصدوا استطلاع احواله فلم يتمكنوا من ذلك لانه كان كثير الكتمان وقد تظاهر بمساعدة جورج على تحقيق امانيه

Digitized by Google
Original from HARVARD UNIVERSITY

وكان هذا الرجل من رعاة الخنازير ايضاً وله اسم كبير بين لصوص السرب لانه طالما رأس عصاباتهم وأقلق بها راحة العباد · ولم يكن يفضل جورج فتش في غير مركزه من قلوب الذين يلتفون حوله لانه كان كثير البر بهم قادراً على اجتذاب افئدتهم اليه بالمعروف واما جورج فتش فانه كان خشن المعاملة وان يكن بسيط القلب · وكان جورج يعرفه ولا يخشى غيره لانه يعرف مهابته ولا يجهل ان السرب لا تحتمل مناظرته معه فلا بد ان تكون لواحد منهما · وأما غيره ممن كانوا يطمحون الى الزعامة فلم يكن جورج يحسب لهم حساباً لانهم كانوا خاملي الذكر وليس عندهم من الاستعداد الذاتي ما يؤهلهم لذلك · لهذا فهو لما علم بظهوره بين طلاب الاستقلال ارسل من بلاد النمسا من يطرح رأسه في المزاد فلم يظفر به أحد · وكانت هذه اكبر صعوبات جورج لانه بات وهو لا يخشى جانب الدولة العلية كثيراً لما سمعه حينئذ من قيام اضطراب في داخلية بلادها يشغلها عما سواه

على انه كيفما كان الامر فلم يأت عام ١٨١٧ حتى عاد من تلك البلاد الى السرب وقد تشدد بانشغال الدولة في امورها الداخلية · ولم يشأ ان يشغل باله في مقاومة نده ميلوش ابرونفتش ولا سيما لانه لم يجد منه مقاومة تذكر · وقد كان سكوت ميلوش ابرونفتش عن هذه المقاومة لحكمة خفيت عن كارا جورج فتش وهي انه ان هو وقع مع جورج في مقاومات خسر مساعدته ومساعدة رجاله الاشداء فقصد ان يستخدمه في اتمام ما رام به حتى اذا دانت له الرقاب انقلب عليه وفتك به · وكان ابرونفتش يرى الفتك بجورج فتش أمراً ممكناً لانه يرى من محبة الناس له ما يزيد عن محبتهم لنده هذا · ولذلك اظهر انه عضده الاكبر في اتمام مقاصده وكان في مقدمة الذين اقلقوا راحة الجنود التركية

وكان جورج فتش ينتظر ان تمده دولة النمسا او روسيا بشيء من انواع الامداد فكان انتظاره في غير محله لان تينك الدولتين قعدتا تتفرجان على ما يحدث في تلك البلاد من الثورة واراقة الدماء او انهما أضرمتا النار فعلا بما وعدتا به من المساعدة وتركتا اطفاءها لغيرهما · فلما رأى زعيم الثورة ذلك زاد اعتماده على نفسه ولكنه

شعر بالحاجة الكلية الى صديقه كولين لانه لم ير في كل القواد الذين كانوا بين يديه من يخلص له الولاء تمام الاخلاص . ولم ينس تلك الاساءة التي لحقت به من بعض هؤلاء القواد وما أضمره لهم من السوء ولكنه كان بارعاً في كتم الغيظ والتظاهر بغير ما في الضمير فتمكن من اخفاء قصده واتخذهم كلهم اصدقاءه الذين لا يعول على احد سواهم وقد اضمر في نفسه الفتك بهم اذا استتب له الامر ودانت الرقاب .

جمع الزعيمان رجالهما وكانوا كثيرين هذه المرة وشد ازرهم الوطنيون كلهم لانهم وثقوا بهذه القوة الكبرى وزادوا كراهة في الحكومة الحاضرة فضلاً عن انهم كانوا قد تعودوا شرب الدماء . ولو دخل جيش الترك في محاربتهما مستبسلاً حاسباً لها حسابه الاول لظفر بهما ولكنه حاربهما مستخفاً بقواتهما فما زال القتال دائراً بين الفريقين والمئات تسقط بالسيف من هنا ومن هناك حتى اندحرت الجنود التركية أي اندحار ودانت الرقاب لجورج فتش فجلس على العرش الملطخ بالدماء . وكان اول من جلس على عرش بلاد السرب بعد استقلالها

وقد ابدى كولين مهارة فائقة في هذه الحرب لانه دخلها منتقماً من الحاكم واعوانه على ما حل به وبامرأته وكان جورج فتش قد استقدمه مخفوراً من مخبأه بعد ان قدم من بلاد النمسا فلم تصل اليه يد الاذى . ورفعه جورج فتش الى درجة عالية لانه رآه أميناً في عمله . والامين في العمل محبوب ومحترم حتى عند الخائنين وشر الاشرار . وتنفس كولين يومئذ صعداءه والتفت الى ماري والتفتت هي اليه وكأنهما نالا أعز ما في الوجود لانهما عاشا الى اليوم الذي تحققت فيه آمالهما وشاهدا بعيونهما امنية يوسف وهي استقلال البلاد .

ولما دانت الرقاب لجورج فتش وانتقل من رعاية الخنازير الى رعاية الناس قصد اول كل شيء ان يطهر السرب من كل مبغضيه وحساده والذين يخشى مناظرتهم وكانت النقود التي في يده قد نفقت مدة طويلة فلم يستطع استمالة الناس اليه ولاسيما الذين يجب ان يعتمد عليهم فلم يجد كثيرين يسمعون لشوراه . على انه تمكن من

قتل قائدين من القواد الذين ظن فيهم الخيانة في المعركة التي وقعت قبل ان يهرب الى بلاد النمسا . واستأجر بعضهم لقتل ميلوش ابرونفتش فخاب مسعاه لان هذا الرجل كان كثير الحرص فلم يكن يظهر امام الناس الا نادرًا وان ظهر فباحتراس شديد .

ولم يجلس جورج قنش على عرش السرب حتى أخذ ابرونفتش يعد العدة لقتله والجلوس موضعه فاستأجر بعضهم لاتمام هذا الغرض وفرض لهم مراكز خطيرة في الحكومة المقبلة . وقد كانت تدابيره اكثر نجاحاً من تدابير جورج قنش لما سبقت الاشارة اليه من حب الناس فيه . وانتهز ابرونفتش فرصة انقلاب المقربين الى نده عليه فتقرب منهم واخذ يسعى الى استمالتهم نحوه وذلك ان جورج قنش كان قد وعد كثيرين من زعماء اللصوص الذين ساعدوه بأن يكونوا رؤساء حكومته وان يأخذوا الرواتب الرابية ولكنه لما استتب له الامر اظهر عزمه على الخلف بالوعد بل وعلى التخلص منهم ايضاً بكل طريقة ممكنة. فأضمروا له السوء وقصدوا قتله وقتل كل عائلته أيضاً حتى لا تقوم لنسله قائمة من بعده . وسمع ابرونفتش بذلك فانضم اليهم وأبلغهم نيته فدانت له رقابهم ولا سيما بعد ان نفحهم بطائل الاموال ووعدهم بمثل ما وعدهم به جورج قنش . وتقدم واحد منهم وقال له وما أدرانا ان تخلف معنا الوعد كما اخلفه ندك فلا ننال من حكومتك نوالا . أليس الافضل بنا ان نتركك ونتركه ونترك حكومتيكما ونعود الى ما كنا فيه نعيث في الارض فسادا أو ننتخب لنا من يصلح لادارة امورنا . وكان ابرونفتش قوي الحجة شديد الاقناع فأقنعه واياهم بصدق مواعيده ثم طلب اليهم انجاز مهمتهم في الحال فقاموا واخذوا يترصدون له ليل نهار

وكان جورج قنش اذا خلا بنفسه ساعة وقابل بين ما كان فيه وبين ما اصبح عليه أخذته هزة الاعجاب بما عمل وتحول بفكره الى الانتقام من كل الذين لا يرونه أهلا لهذا المركز الخطير . وهذا شأن كثيرين ممن يكبرون بعد الضعة والمسكنة فانه يغلب على الفرد منهم الميل الى تعريف الناس مقدار ما وصل اليه من

Digitized by Google Original from HARVARD UNIVERSITY

المنعةوالقوة فيغلظ عليهم اي اغلاظ و ينتقم ممن لا يظهرون اعترافاً بقوته أو احتراماً لصولته ٠

٭٭٭

كان والد جورج فتش وأمه لا يزالان على قيد الحياة فشهدا صولة ابنهما ولم يكن الحلم الذي حلته امه يوم ولادته قد نسي من ذهنيهما فكانا يرددانه في كل حين ولكنهما كانا كلما قابلا ما وصلا اليه مع تفاصيل ذلك الحلم والاضطرابات التي تخللت حوادثه كلما خافا العاقبة ٠ وكانا في اول الامر يودان لو تمكن ابنهما هذامن الوصول الى عرش السرب مع ما يناله من المخاوف والصعوبات ولكنهما لما كبر سنهما واقتربا من حافة القبر زادا شعوراً بفناء الدنيا ووجوب عدم التعلق بها الى ذلك الحد حد التعرض للمخاطر والاهوال٠ وناديا جورج يوماً بعد ان قهرتهجيوش الاتراك وطلبا اليه ان لا يعود الى طلب العرش واستقلال البلاد لأنهما يخشيان على حياته فكان جوابه لهما ان هكذا كان تاريخ الذين ظهروا في هذه الدنيا فلا بدمن العود الى القتال ٠ ولما قصا عليه ذلك الحلم بشيء من تفاصيله المخيفة قال انها أخف من كل ما اصاب الذين طمحوا الى تحرير بلادهم وارتقاء عروشها ٠ وما زالا يعارضانه في مشروعاته ومقاوماته حتى هرب الى النمسا وعاد وتغلب على الاعداء وجلس على عرش البلادفلم يفرحا الا على قدر ما يفرح الانسان اذا تخلص من ذئب كاسر وفي طريقه أسد هصور ٠ فانهما كانا كلما رددا في ذهنيهماذكر تينك الغمامتين اللتين جاءتا في الحلم والبحر الدموي الذي شق عبابه اولا واختفى فيهأخيرا كلمااظلمت الدنيا امام وجهيهما ونذباه مقدماً ولا سيما لأنهما شهدا بعيونهما كيف تمت مقدمات الحلم وكان من تفاصيل ذلك الحلم أيضاًان عائلةحاسدة كانت تنظراليهشذراً اوعلى يدها كان غرقه في ذلك البحر الدموي فلما سمعا بوجود عائلة ابرونفتش وحسدها له وسعيها الى قتله والحلول محله لم يشكا في اتمام الحلم فكان ذلك المجد الظاهر ويلا عليهما ولكنهما حسباه مقدراً منذ الازل ولا بد من حصوله مهما بذل من الاجتهاد في سبيل اتقائه

ولم يخبرا ابنهما هـذا بشيء مما يدور في خواطرهما من هـذه المخاوف ولكنهما كانا يبالغان في مراقبته بالرغم عن كبر سنهما الى حد متناه لان الانسان مفطور على اتقاء المخاطر مهما اعتقد بالمقدور فيها

الفصل العشرون

﴿ قتل كارا جورج فتش ﴾

(وارتقاء ميلوش اوبرنيوفتش على عرش السرب)

على ان الحذر لا يمنع القـدر . فان اعوان ابرونفتش لم يلبثوا حتى ظفروا به فقتلوه شر قتله بعد ان ذاق منهم كل أنواع العذاب . فانقلب عرشه وحلت على رأسه كل الدماء التي سفكها ظلما وعدوانا وغلت يداه عن الانتقام من اعدائه الكثيرين

عند ذلك تذكرت والدة جورج ما جاء في ذلك الحلم وهو سماعها صوت عظيم من السماء يقول « احفظ هذا ولا تنسه حتى يأتي موعد الانتقام » . فقالت لا بد لولدي من ينتقم له لانه لم يسقط من الحلم ولا من تعبيره حرف واحد وقد شاهدت في آخر الحلم ان لابني اعوانا وخلفاء يتنازعون مع افراد تلك العائلة القاتلة ومارأيت حينئذ غير مجازر دموية وفظائع تجري في كل موضع اعرفه ولا اعرفه حتى صارت البلاد شعلة نار ومجاري من الدماء كالانهار . فلابد من ايام سوداء تمر على هـذه العائلة الظالمة فينتقم منها الله انتقاما شديدا لا يذكر في جنبه هذا الانتقام . ولكنني أخشى ايضا ان يحل بهؤلاء الاعوان والخلفاء ما حل بابني فاني على ما اذكر أيتهم يخوضون بحارا تعج بغزير الدماء ويتعرضون لنيران لا تقبل الانطفاء

وقد كان خوفها في محله . فان هذا الزعيم الجديد بعد ان قتل ابنها فتش عن اقربائه واعوانه ليستأصل جذور هذه العائلة ولا تعود الى مناظرة عائلته فالحق الضرر بالبعض منهم وحمل البعض الاخر على الهروب حتى شتتهم جميعا في طول البلاد وعرضها ولم يبق من افرادها غير العجائز والعاجزين . وسمع بامر كولين وماري

Digitized by Google Original from HARVARD UNIVERSITY

فقصد قتلها او تحميلها على الانحياز الى جانبه لما علمه عنها من الصدق والشجاعة والاخلاص ولكنهما كانا قد حملا أمر ذخائرهما وسافرا الى النمسا ليقضيا فيها بقية ايامهما ويكتفيا من تطلب المجد والظهور في الدنيا باعادة ذكر ما شهداه من حوادثها الجسام

جزاء الاشرار والاخيار

وأما كارولين فظلت خيانتها مع ماري وكولين مخفية زماناً طويلاً لانه ما كل خفي يعلن في حينه وان لم يكن بد من اعلانه ولو بعد حين . وقد ظلت هذه الخيانة مخفية طول ايام حياتها فلم تنل من جزائها في الدنيا غير حرمانها الزوج والولد وخوفها الانتقام بين حين وحين وأما القصاص الحق فحفظ لها الى يوم الدين . وكثيراً ما يأتي المرء شروراً في حياته ولا تظهر طول الحياة فيظن انه عملها ونجا وقد جهل انه لا بد لكل عمل من جزاء . فكما انه لا بد للصوت من صدى ولكل بذر من نبات ولكل فعل من رد فعل كذلك لابد لكل عمل من جزاء . و يسوقنا العقل الى الحكم بهذه الحقيقة الظاهرة وهو انه اذا لم يتأت للمرء ان ينال جزاءه عن عمل عمله في حياته ان خيراً وان شراً فلا بد من حياة اخرى ينال فيها هذا الجزاء والا فقد ضاعت اعمال الاخيار والاشرار التي لا يظهر لها أثر في هذه الحياة وهو أمر يخالف العدل المألوف عن الطبيعة و بالتالي عما وراء الطبيعة . ويكفي لتأييد هذه الحقيقة ما يشعر به الفاعل بوجدانه اذا تعذر عليه ايجاد دليل معقول . فان شر الاشرار اذا عمل شراً ظل حاسباً حساب الجزاء الى آخر حياته فاذا جاءت نهاية الحياة ولم ينل هذا الجزاء خاف ان يلحق به في ما وراء الحياة الدنيا مهما فقد من شعور الضمير . و ياحسن حظ الذين يقاصصون في هذه الحياة عما يعملونه فان لهم حياة في هذا القصاص وان حاولوا الهروب منه وأما الذين لا يقاصصون في حياتهم عما يعملون فهؤلاء يجب ان يؤسف على حالهم لان قصاصهم محفوظ الى يوم لا ينفع فيه الردع ولا يفيد الندم والاستغفار

مذابح هائلة

ولنعد الآن الى ما كنا فيه من حديث الزعيم الجديد . فانه لما قضى على خصمه

ذلك القضاء لم ينل عرش السرب لاول وهلة بل وجد صعوبات هائلة لا تقل عن الصعوبات التي شهدها جورج فتش من قبله. وكان أول ما أتته الحكومة القديمة الظالمة ان أوصت بقتل كل الكبراء الذين يخشى من تجديد الثورة على أيديهم وابعاد الذين لا يسهل قتلهم فكنت ترى مجزرة في كل بيت من بيوت الكبراء واضطر الوف من الناس الى الارتحال عن البلاد فلم تبق الحكومة غير الفلاحين والصناع ونحوهم ممن تنتفع بنتائج عملهم وتستغل بايديهم ثمار الاراضي السربية أو بعبارة أخرى أبقت على الذين يخدمونها ويحفظون صوالحها فقط وأما الباقون فمزقت شملهم أي تمزيق. وكان ميلوش أبرونيفتش ينظر الى هذه الاعمال ويكاد يتميز من الغيظ لانه انما قضى على نده حتى لا يجد عثرة أمامه في سبيل الحصول على عرش السرب. على انه قام واعد العدة للحرب فجمع الالوف المؤلفة ممن أبقت الحكومة عليهم وأقام حرباً عواناً على الجنود العثمانية فكان ينجح مرة وينخذل عدة مرار. ومازال متقلباً بين النجاح والخذلان حتى تم له الفوز الاخير. على ان رعيته كانت قد تبددت فلم يبق منها غير الذين أبقت الحكومة عليهم ممن يفلحون لها الارض ويطعمون الخنازير و يدفعون الخراج. ولما رأى ذلك قصد أولاً اصلاح الاحوال واعادة الامن والسكينة الى البلاد ولكن طبعه عاد فاوحى اليه ان يذوق طعم الاستبداد فاكثر من مظالمه ونسي انه كان الى عهد قريب من صغار الفلاحين ورعاة الخنازير. ثم توصل بمساع يطول شرحها الى ارضاء الباب العالي فنال منه لقب «أمير» البلاد وكان ذلك حوالي سنة ١٨٣٠ ونال من الدولة العلية غير هذا أيضاً اعطاء ذريته هذا اللقب على ان تتوارث عرش السرب من بعده ومنح البلاد شبه استقلال داخلي بعد ان فرضت عليها الفروض الثقيلة. وقد نسي هذا الامير أيضاً ان كل الثورات التي تقدمت لم تقم الا لغرض واحد وهو تأييد العدل في بلاده وانقاذها من ظلم الظالمين ففاق الاوائل والاواخر في ظلمه وسار سيرا معوجاً مع رعاياه. ورأى الشعب ذلك فلم يجد فرقاً بين ما كان فيه وما أصبح عليه فتأسف جدا على ما أضاع في سبيل الاستقلال من رجال ومال

﴿ الفصل الحادي والعشرون ﴾

﴿ تنازل ميلوش عن العرش ﴾

دولة النفاق

وكان هذا الامير كثير الجراءة فلم يحفل بسخط الشعب عليه فقط بل زاد انه اقصى جميع العظماء الذين ساعدوه على تحقيق امانيه وسعى الى اضعافهم بما وسعت قدرته حتى لا يكون منهم مزاحم له . وقد ظن ان استتباب العرش له مما يمنع عنه خطر الغدر فلم تطمح نفسه الى نقيصة حتى اتاها فاشتهر بين قومه باللؤم والخساسة وصار مثلا في المجالس العمومية والخصوصية . ولكنه كان محاطاً بكثيرين من اصحاب المداهنة والرياء الذين يرون صالحهم في مسالمته والتظاهر باستحسان ما يفعل فلم يكن يسمع منهم الا كل ما يجرئه على اعماله . وما زال المنافقون اكبر داع يدعو الحكام الظالمين وغيرهم الى التمادي في فعلهم لانهم اذا رأوا ممن يلتفون حولهم شهامة توقفهم عند حد ورجولية تظهر لهم ما قبح فعله وما حسن لم يتجرأوا على اتيان ما يأتون واضطروا الى الاعتدال في كل حال . وكان بين هؤلاء المنافقين كثيرون ممن عرفوا بسعة اليسار واتساع الثروة فكان بقاؤهم على هذا النفاق غريباً لان اكثر ما يكون من النفاق راجع الى حاجة تضطر صاحبها الى بذل ماء الوجه والسعي وراء الصالح الشخصي . على انهم وان استكملوا حاجة العيش فهنالك حاجة اخرى كانت تنقصهم وهي ما يطمح اليه كل من كملت حاجاته الضرورية من جاه ونفوذ . فهؤلاء كانوا يرون الانطواء تحت راية الامير الجديد موجدا لهم من الجاه والنفوذ ما يحتاجون اليه ولا سيما لانهم عرفوا بالاختبار ان ذلك ادعى الى حفظ الحياة والاموال في عهد الحكام الظالمين . وكان بينهم البعض ممن لا تنقصهم ثروة ولا يعوزهم نفوذ ولكنهم فطروا على طبع المداهنة والنفاق فخدموا الامير خدمة تذكر في تحقيق آماله وما كان وجود هؤلاء واخوانهم من المنافقين امرا غريباً في بلاد السرب بل الغريب ان ارض السرب لم تتحول كلها الى مداهنة ونفاق .

Digitized by Google
Original from HARVARD UNIVERSITY

فان تقادم عهد الظلم والاستبداد في بلدة مايعد اعظم سبب لتفشي هـذا الداء فيها وتمكنه من قلوب اهليها . ذلك لان المظلومين ضعفاء بازاء الظالمين فحب البقاء يدعوهم الى النفاق مع اولئك الاقوياء ويكسر قلوبهم كسرًا فتصبح وهي كثيرة الحذار من كل شيء راضخة لكل تأثير . ولكن ما اسرع تحول هـذا الجبن الى شجاعة وذلك النفاق الى جراءة اذا امتنع مايوجب الخوف . فاذا كان بين اهـل السرب من يخشى منهم علي مركز هذا الامير الجديد فن هؤلاء الجبناء المنافقين في مقدمتهم مع مابهم من الضعف وما يدب في نفوسهم من الاغراض الشخصية. فان ضعف القلب الناشيء عن الظلم والاستبداد وسوء التربية الاهليـة ونحو ذلك كما انه يخلق في المرء صفتي الجبن والنفاق كذلك يخلق فيه صفات الغـدر والغش وسوء الظن والدناءة والانتقام وكل صفة أخرى تنشأ عن فقد المروءة والرجوليـة . ذلك لان المرء مجبول على الميل الى اظهار القوة أو التظاهر بها فاذا أقعده الخوف عن اظهارها أظهرها عند أول فرصة يمتنع فيهاذلك الخوف ولكن بشكل يزيد عما يظهره منها صاحب القوة الذاتية فيغدر بالضعفاء أمامه غدرًا ويجلب على رؤوسهم كل مالقيه من مظالم الاقوياء شأن الضعيف اذا تحكم والعبد اذا بات سيدًا . ينبح الكلب على الرجل فاذا هرب أمامه الرجل زاد نبحًا وجراءة فاذا ضربه هز ذيله واستعطفه أو أركن الى الفرار . فاذا عاد الرجل الى الخوف منه وركض نسي الكلب ما كان من قوة الرجل وعاد الى استضعافه فاذا ظفر به نهشه نهشًا بلا شفقة ومزق ثوبه اربًا. والاسد القوي في ذاته لايقارع الا القوي ولا يستضعف غيره فاذا رضخ له خصمه تحنن عليـه وعفا عنه . كذلك شأن الجبناء والاقوياء من الناس مع من يقع تحت رحمتهم وكذلك كان شأن المنافقين والاحرار بين أهل السرب ممن وقع هـذا الامير تحت رحمتهم بعد ان أقلق بفظائعه راحة العباد فعولوا على التخلص منه رأفة بالبلاد

وبدأ الانتقاض على هذا الامير من كبراء البلاد الذين كانوا يظهرون له العدوان فرأوا من أولئك المملقين الذين يلتفون حوله سياجًا يصونه حتى اذا تمكنوا

Digitized by Google Original from HARVARD UNIVERSITY

بتوتهم من كسر هذا السياج خافوا شرهم فانحازوا الى جانبهم وكانوا أقدر منهم على مقاومته وأقسى قلبا فضلاً عن كونهم كانوا أعلم منهم بعضرته كافي المثل المشهور. وافرح اولئك المنافقون ان يقتل الامير لانه اذا بقي حياً لم يأمنوا مغبته وذلك لانهم كانوا يخافونه خوفاً شديداً فكان اعداؤه الظاهرون يقاومونهم في هذا و يطلبون ان يكتفى الامر بعزله أو بتحميله على التنازل عن العرش لان البلاد ضجت من كثرة هدر الدماء . و بناء على هذا القرار اجتمعت الجمعية العمومية الوطنية وهي التي دبرت أولاً اسناد الامارة اليه فدعته الى التنازل عن عرشه ولم يجد حيلة تقدره على الامتناع فرضخ لدعوتها واضطر الى التنازل لابنه ميلان وكان ذلك في سنة ١٨٣٣

﴿ الفصل الثاني والعشرون ﴾

(تولية ميلان بن ميلوش)

النفع من ضعف الروساء

على هذه الكيفية جلس جورج فتش وميلوش أوبرونيفتش على عرش الامارة السربية وهكذا كان تأليف العائلتين اللتين تتعاقبان حكم البلاد السربية الى هذا اليوم . وقد انتهى تاريخ أولها بالقتل وثانيهما بالعزل وهكذا كان تاريخ الحكام السربيين كلهم أو معظمهم لم يخرج عن واحد من هذين قتل وعزل . وقلما قامت بلاد مثلها خارجة من ربقة الاستعباد أو مشكلة حكومة جديدة الا شابه تاريخها تاريخها لان عروش الملك أعزما في هذا الزمان فلاعجب اذا كانت نجيماً يغص بدماء المتناظرين عليها من بني الانسان

و بدأ عقلاء السرب يتذمرون من هذه الامارة الجديدة فود بعضهم لو رجعت الحالة الاولى الى ما كانت عليه أولاً قبل ان يتحكم الوطني في رقاب الوطنيين وود البعض الآخر لو قضي على كل افراد العائلتين المتناظرتين وألغي الحكم الملكي الغاء تاماً وتحول الى جمهورية محضة . ولكن الافكار لم تكن مستعدة للجمهورية بعد لان القول بها كان جديداً في البلاد الاوروبية فلم تجد عقولاً تقبلها . وكان الذين

ينتفعون بالاحكام الملكية كثيرين في البلاد فسعوا جهدهم في تأييدها مفضلينها عن أحكام اجنبية تحول خيرهم الى الغرباء . على انهم أجمعوا على قبول الامير ميلان سيداً علهم فاسندوا اليه الامارة على كره منهم لانهم كانوا يرون فيه ضعفاً متناهياً في ادارة الاحكام .

غير انه كان بين الكبراء من أهل السرب حزب يميل الى تولية ميلان لا لانه قادر على القيام باعباء وظيفته بل لانه عاجز عن القيام بها وفي هذا ماقضى بالاستغراب عند بقية الاحزاب . ولكن لم يكن في ذلك شيء غريب لان رجال الحزب كانوا يرون ضعف الحاكم امراً ضرورياً لراحة البلاد اذ لم يكن الا عبارة عن ختام يختم الاوامر الصادرة من العقلاء القادرين في حكومته . وكان من رأيهم تفضيل الحاكم الضعيف الذي من هذا القبيل على الحاكم القوي الذي يستخدم قوته في ظلم الضعفاء والانتقام من الاقوياء . ولهم الحق في ذلك اذا لم يكن في الامكان غير اقامة هذا الضعيف ولم يكن ضعفه داعياً الى ايجاد الفوضى في البلاد لاصطحابه بأقوياء يسندونه في ادارة الاحكام . ولكن الواقع لم يكن كذلك فان الرجال الذين كانوا تحت ادارته لم يبدوا شيئاً يدل على اقتدارهم في الفنون الادارية بل هم انتهزوا فرصة هذا الضعف فكان كل منهم حاكماً ظالماً يعمل على تخريب البلاد

﴿ لماذا يكون ابن القوي ضعيفاً ﴾

﴿ او لماذا تخلف النار رمادا ﴾

الاسباب الطبيعية لضعف ميلان بن ميلوش

وقد كان ضعف الامير ميلان أمراً منتظراً لثلاثة اسباب اولها انه كان ابن رجل قوي وقد غلب على قانون الوراثة ان لا يخلف القوي غير الضعيف كما تخلف النار الرماد . فان اباه الامير ميلوش او برونيفتش عد نابغة قومه في ذلك الحين حتى انه اقتدر على ايجاد حكومة جديدة من العدم وليس في الارض ما هو اصعب من انشاء الحكومات الجديدة ولا سيما اذا لم يكن بد في انشائها من الوقوع في حوادث دموية كبرى ومقاومة صعوبات هائلة من داخل البلاد وخارجها كما اتفق لميلوش

Digitized by Google Original from HARVARD UNIVERSITY

ابرونيفتش . وقد قالوا ان الابن سر أبيه . وهي حقيقة ظاهرة في تاريخ المواليد ولكنها على ما يظهر مختصة غالباً بأصحاب المواهب الاعتيادية من الطبقات الوسطى وما هي أدنى واما كونها تنطبق على الطبقات العليا صاحبة المواهب الخارقة للعادة او المشتغلة في اعمال ليست عمومية عند الجمهور فامر فيه نظر كثير . والمشاهد ان اكثر الابناء من هذه الطبقات يختلفون بكثير عن ابائهم كل الاختلاف . فان المتدين كثيراً او المشتغل بالوظائف الدينية وهي اعمال ليست عمومية بين الجمهور يغلب ان يخلف اولاداً يخالفونه في امياله وقد يزيدون عن الابناء الاعتياديين في عدم التمسك كثيراً بشعائر الدين . والكاتب البليغ يغلب ان يخلف اولاداً قلما تخلق معهم موهبة الانشاء البسيط . والسياسي الخطير لا ترى اولاده في معظم الاحوال الا من عامة الناس من حيث التحوط والاحتراس . والبخيل بخلا نادراً يكثر ان يكون ابناؤه مسرفين اسرافاً يزيد عن حد المعتاد . والمسرف الكثير التبذير كثيراً ما يبلغ اولاده حد التبذير . والذكي الواسع العقل الى درجة نادرة قد يكون ابناؤه او بعضهم ولا سيما كبارهم كثيري البلادة والبله . والعظيم القوة والبطش يكثر في اولاده الضعف كما ترى في سلالة ابرونيفتش

والامثلة على ذلك كثيرة ولكن العلة الطبيعية لا تعلم تمام العلم . ولكن يظهر ان القوي كالنار يأكل بعضه بعضاً بكثرة ما يستنفذه من ظواهر القوة في ذاته وعمله فلا يجعل لغيره سبيلا الى الحصول على مثل قوته فيخاف من قوته ضعفاً كما تخاف النار من تأججها رماداً . فان القوي لا يهدأ عن استخدام قوته في الحصول على رغائبه العالية فتاخذ هذه القوة في الضعف على حد قولهم

واذا كانت النفوس كباراً تعبت في مرادها الاجسام

فاذا بلغ القوي ذلك المبلغ من الضعف لم يدع لدقائقه الحيوية القوية سبيلا الى الانتقال لسواه

وهنالك علل اخرى تظهر للمتأمل في هذا الامر الخطير . منها ان ابن القوي قد يكتفي بسمعة ابيه ولا يطمع في الازدياد لان المرء مفطور غالباً على حب القعود

Digitized by Google   Original from HARVARD UNIVERSITY

اذا لم يجد داعياً يدعوه الى العمل بنشاط . وينطبق على هذا ما تقدم عن الكتاب البلغاء وابنائهم وكذلك السياسيين العظماء . وقد تنشأ مخالفة الابن لخطة ابيه عن السآمة كما جاء في ما تقدم عن ابناء المتدينين كثيرا فانهم قد يسأمون حالة ابائهم المخالفة لاميال الجمهور او ان اباءهم لا يجمعون بين تعليم الناس وتعليمهم مكتفين بالتربية المنزلية او ان المعلمين الخارجين يتهاونون في تعليمهم اعتقادا منهم بكفاءة تهذيبهم المنزلي اوان هؤلاء الابناء يكتفون بسمعة ابائهم الدينية فيتهاونون في دينهم على ظل هذه السمعة كما يتهاون ابن العالم في طلب العلم على ظل سمعة ابيه . ـ وقد تنشأ مخالفة الابن لخطة ابيه ايضاً عن عدم استحسانها والتضايق منها فيحدث له ما يشبه رد الفعل كما في ابناء المسرفين والبخلاء لاعتبارات ظاهرة لا تحتاج الى شرح كثير

ومما لا يكثر فيه الاختلاف ان الذي ينمو سريعاً يضمحل سريعاً والعكس بالعكس . وربما كان في هذا سر من الاسرار التي تقضي بجعل ابناء الاقوياء الى درجة نادرة ضعفاء في الغالب لان القوي الذي خرج بقوته عن الطور المألوف وبسرعة غير عادية تضعف دقائقه الحيوية سريعا وكذلك الحال في نسله لان تلك الدقائق الحيوية تشتغل في نفسها اكثر من المعتاد فتندثر ولا تجد وقتاً للتعويض والتجديد . ولكن جرت العادة ان يصدق حكم الوراثة المشار اليها اذا كان الاب والام متشابهين في القوة النادرة او الذكاء النادر وأما اذا كان هنالك اختلاف بينهما في القوة ورث الابن عن امه اكثر مما يرث عن ابيه . وقد كانت ام ميلان شديدة الحيل الى حد غريب حتى انها لقد كانت تتباهى على بنات جنسها والرجال باقتدارها على كسر القطع الحديدية الصلبة ورفع الثقيل من الاثقال . وقد لا تكون الظواهر الاولى عند الابن دليلا على ما سيكون عليه في المستقبل فانه قد يعيش ايامه الاولى كالابله اذا غلبت عليه أحكام الوراثة ثم يميل للعودة الى الاصل تابعاً فطرة القوي من ابويه فيكون كثير الحذر والتعقل اذا دخل ميدان الحياة . وهذا كان شأن الامير ميلان فانه لم يظهر في اول حكمه الا كل ضعف وطيش ثم أخذ في

التحسين قليلا ولكن الشعب لم يمهله طويلا فخلعه واقام بدلا منه اخاه الاكبر الامير ميخائيل

ذلك سبب من الاسباب التي دعت الى انتظار الضعف من الامير ميلان بن ميلوش . اما السبب الثاني فهو سوء التربية لانه فضلاً عن كونه من عائلة لم يكن يهمها غير الظهور في الدنيا دون تربية الاخلاق فانه كان اول أمير سيرث الامارة السربية فكان الاهمال في تربيته بالغاً حده حتى لا يضعف جسمه أو يتضايق في نفسه شأن كثيرين من الاغنياء الاغبياء ولا سيما أصحاب النعمة الحديثة فانهم يكتفون من تربية ابنائهم بما يخلفونه لهم من المال ظناً منهم انهم لا يحتاجون في دنياهم الى اكثر منه وما كان الا أقل مايلزم لامور الحياة . والسبب الثالث ضعة الاصل من حيث الصفات والاخلاق وهي التي قلما تنفع التربية في مداواة ادوائها . فقد كان أبوه من كبار قطاع الطرق والقتلة والسالبين فلم يكن بد من ان يظهر ابنه خساسة في صفاته تشبه تلك على وجه ما لانه لم يوت واسطة تدعوه الى استهجان خطة أبيه

﴿ عزل ميلان بن ميلوش ﴾

﴿ نفوذ الاقوياء وتغطيته على فضائحهم ﴾

ومهما يكن من أمر هذا الامير فانه لم يلبث ان خلع حتى مات وتبعه أخوه ميخائيل المشار اليه . ولم يكن هذا الاخ بأحسن من أخيه في سوى انه كان أقوى بنية واكثر احتياطاً للامور السياسية والداخلية . ولكنه ورث عن أبيه مبدأ فاسدا يقضي بعدم المبالاة بارتكاب الجرائم لان له من نفوذه مايغطي على قبحها . وهو مبدأ غالب على اكثر الظاهرين الجهلاء في هذه الحياة يرتكبون مايرتكبون ويسيئون الى الناس بما يسيئون وفي ظنهم ان مركزهم يغطي على نقائصهم هذه أو يكم الناس عن تسفيهه من أجلها أو انه يمنع الاذى عنهم من الناقدين . وربما وجد هذه القضية صحيحة في أول الامر فيتمادى فيها وذلك لان احتياج الناس اليه وهو في مركزه يكمهم عن انتقاده ويدعوهم الى تملقه . فاذا كانت السماء متلبدة بالغيوم

السوداء وقال لمن هم حوله ان الشمس طالعة قالوا نعم وحرارتها تحرق الاجسام . أو قضى بالقتل على انسان بريء وقال لهم قد قتلته بعدل قالوا نعم و ياليتك قتلته من زمان بعيد لاراحة الناس . ــ على ان حبل هؤلاء قصير ومهما يكن من قوة الفرد منهم فانه لاضعف من قوة الجمهور . فان الذين خلعوا اباه مدوا ايديهم ايضاً اليه وانزلوه عن عرشه ذليلاً مهاناً وكان في نزوله عنه رحمة به و بالناس من حوله كما سيجيء

﴿ الفصل الثالث والعشرون ﴾

﴿ رجوع الامارة الى عائلة كاراجورج فتش ﴾
(وعودة أميرين من عائلة ميلوش الى العرش)

« وجود الابدية في قلوب الناس »
﴿ فضل المسامحة على الانتقام ﴾

وسئم جمهور السربيين فظائع تلك العائلة عائلة ميلوس ابرونيفتش فظنوا انهم اذا اسندوا الامارة الى واحد من سلالة نظيرتها عائلة كاراجورجفتش تحسنت الاحوال نوعاً او اعتبرت تلك العائلة واعتدلت في سيرها . وعليه انتخبوا الامير اسكندر كاراجورجفتش وكان لانتخابه دوي عظيم لانه اول امير ورث الامارة عن اول من قام ساعياً الى تحرير البلاد . وطالت مدة حكمه سبعة عشر عاما لم تهدأ البلاد في اثنائها عن الفتن والاضطرابات وذلك بما كان اعوان العائلتين يدسونه من الدسائس ضد بعضهم البعض . ولولا ان ميلوش ابرونيفتش كان بعيداً في بخارست لاضرم نار الثورة وحول انهار البلاد الى دماء . وكان قد بلغ من العمر عتياً ولكنه مع هذا لم يهدأ عن دس الدسائس من بعد ولم يدعه قرب منيته الى الزهد في امور الحياة

ولا عجب في هذا فقد قضي على ابن آدم ان يحمل الابدية في قلبه فيرى من نفسه ما يدفعه الى الاشتغال على الدوام كأنه خالد لا يموت . ولو كان هذا الامير ممن ملىء قلبه بأمل آخر غير الطموح الى الامارة لاكتفى به ولم يطمح الى ذلك المطمح الكثير الاخطار في آخر حياته ولكنه كان قد تعود لذة الملك وقد فرغ عقله من كل ما يشغل البال غير هذا المؤمل فعاد الى تطلبه اذا لم يكن لنفسه فلأولاده من

بعده . وما زال على هذا الحال حتى نجحت مساعيه وقام الشعب فاضطر الامير اسكندر كاراجورجفتش الى التنازل عن عرشه فتنازل عنه سنة ١٨٥٩ . واستدعي بعد ذلك الامير ميلوش ابرونيفتش من بوخارست فعاد يتوكأ على عصاه لكبر سنه وجلس على العرش مرة اخرى . عند ذلك التفت الى الذين كان بوده لو انتقم منهم شر انتقام فأخذ في محاسنتهم لتوطيد مركزه اولاً وحصر الامارة في ابنائه ثانياً . والعادة ان الخير يحسب امرا عظيما من الشرير كما ان الشر يحسب كذلك عند الرجال البار . لهذا رأى الناس من ميلوش ابرونيفتش ذلك الصفح أمرا كبيرا يستحق عليه الثناء والانعطاف فعطفوا اليه وسلموا له قياد قلوبهم اي تسليم . وقد قدم بذلك عظة بالغة للذين يتمادون في الشر لاخفاء الشر او الانتقام لتعزيز المقام لانه لو عاد الى شروره الاولى لزادت افتضاحاً ولو عول على الانتقام من حساده ومبغضيه والذين سعوا الى خلعه رغبة في رفعة قدره لا نحط ذلك القدر أي انحطاط وعاد الشعب الى نزع الامارة منه ومن بيته كله . وعليه فانه لم يعف عن خصومه كرماً منه ومروءة ولكن مراعاة لصالحه وهكذا صار . فانه لم تمض عليه سنة بعد توليته العرش حتى استدعاه ربه لمحاسبته على ما فعل في دنياه فبادر السربيون الى استدعاء ابنه الامير ميخائيل مرة ثانية حافظين لابيه ذلك الجميل . ولعلهم لم يحسنوا الاختيار مرة كما أحسنوه في هذه المرة لان هذا الامير المعاد الى العرش كان قد تأدب بأمرين خطيرين أولهما خلعه في المرة الاولى ونفيه بعد ان كان مهدداً بالقتل وثانيهما تعلمه من البلاد الاوربية الاخرى كيف يكون الحكم وكيف تكون الاحكام . وقد انكب في منفاه على المطالعات فتهذبت نفسه بعض التهذيب وحكم قومه بالعدل على نوع ما فتقدمت البلاد على يديه تقدماً ظاهراً ووجد سلطاناً نينقفي قلوب السكان .

Digitized by Google Original from HARVARD UNIVERSITY

﴿ الفصل الرابع والعشرون ﴾

﴿ الانتقام من عائلة ميلوش ﴾

« القاهر المقهور »

متاعب الاشرار وجزاؤهم

كان كثيرون من أهل السرب يتأملون امهال العناية الالهية لميلوش ابرونيفتش ويعجبون لعدم الانتقام منه لقتله كاراجورجفتش أول الساعين الى تحرير البلاد. ولكن ظهر لهم بعد ذلك ان حياة ميلوش كانت كلها انتقاماً منه يزيد هولا عن ذلك الانتقام الذي كانوا يتوقعونه له بقتله . والواقع ان الانتقام من القاتل ومن كل شرير غيره لا بد منه على أي حال ولكن اذا لم يكن اليوم فغدا واذا لم يكن من نوع الجرم فبما هو أشد منه واذا لم يكن لا هذا ولا ذاك في الحياة الدنيا فان في الدار الاخرى من هول القصاص مالا يذكر في جنبه أي قصاص على ان ميلوش لم ينل الانتقام على جرمه من جنس الجرم نفسه . ويا ليته ناله اذن لاستراح من متاعب دنياه . ولو اقتصر القصاص على تأنيب ضميره لكان القصاص خفيفاً لأن ضميره كان قد فقد الاحساس من زمان طويل حيث نجح في شروره المتوالية ولم يجد رادعاً يردعه . ولكن القصاص الذي دبر له في حياته كان متنوعاً وأقل شيء منه يزيد هولا عن الموت . انه أصيب بأدواء عضالة نشأت عن قلقه الدائم على حياته وأطال الله في عمره ليطول تألمه من هذه الادواء . وكان خوفه الدائم على حياته قصاصاً آخر لانه لم يكن يخرج من منزله الا وهو مرجح عدم رجوعه اليه ولم يكن لينام في غرفته الا وهو متوقع هجوم المنتقمين منه عليه ولم يكن ليأكل لقمة الا وهو في انتظار الموت الزؤام من أيدي الطهاة . ففقد بذلك اخص اسباب الرفاه لانه لا رفاه مع فقد الامان هذا فضلا عن ارتباكه الدائم في مهامه الثقيلة بحيث انه لم يكن ليجد وقتاً يتلذذ فيه بنوم او يستطعم بطعام فكان ما أوجده من النعم لسواه. ولم يبق بعد ذلك من لذة الملك سوى الجاه والنفوذ وهذان لما جاء الوقت الذي يستطيع فيه التمتع بهما نزعا من يده فحرم منهما وأبعد عن النعمة التي قضى العمر في

Digitized by Google

Original from
HARVARD UNIVERSITY

سبيل الحصول عليها . ولا شيء في الارض أصعب على نفس المرء من ترك ثمرة اتعابه لسواه . خير لمثل هذا لو لم ير تلك الثمرة ولم يسع الى الحصول عليها . وقد رأى في حياته ايضاً عدم كفاءة وارثيه للملك الذي خلفه لهم حيث شاهد الضعف من ابنه ميلان وكيف طرد طردا من العرش ومات شابا في مقتبل العمر وشاهد مثل ذلك في ابنه ميخائيل ورآه مطرودا مهانا . وشاهد ايضا ماهو أبلغ من ذلك وهو صيرورة العرش لابن خصمه الاكبر اسكندر كاراجورجفتش وظل يرى ذلك بعينيه سبعة عشر عاما حسب كل عام منها بالف عام عليه . وذلك لان النقمة التي خاطر بحياته وحياة أولاده في سبيل الحصول عليها وسفك بسببها دماء الكثيرين رآها تؤخذ من يده ومن ايدي ابنائه قهرا وباحتقار وتعطى لالد خصومه وأعدى اعدائه . ولما مضت الشبوبية وفيها دور التمتع باطايب الارض دعي لتولي العرش وهو شيخ طاعن في السن لا يشعر بلذة في الحياة . فاذا لم يكن في ذلك كله مايكفي لقصاصه فليس في الارض قصاص مخيف

على ان ذلك الدم الذي سفكه ولم ينل قصاصه من نوعه في حياته لا يزال صارخاً يطلب الانتقام . وقد تقادم العهد على ذلك الصوت الذي سمعته ام جورجفتش في حلمها المشهور وقد رأته مدرجاً بدمائه وهو « احفظ هذا حتى يأتي موعد الانتقام » ولكنه لا يزال يتردد على مركز الامارة السربية فلم يهدأ من ٨٠ عاماً الى تلك الايام . تخلص ميلوش من هول هذا القصاص ولكنه حفظه لولده وفلذة كبده . حفظه له الى يوم عصيب خرج فيه ليتنزه في حديقة القصر فوصلت اليه ايدي اعوان ارسلهم اسكندر كاراجورجفتش فقتلوه شر قتلة وقلبوا عرشه رأساً على عقب . فما كان حظ هذا الامير التعيس من الامارة السربية غير الطرد والنفي اولا ثم القتل ثانياً وبضعة ايام تخللت الدورين ولكنها كانت مجموع متاعب واوجاع طالما تمنى التخلص منها ولو عاش عيشة المعدمين

وهكذا انتهت حياة الامير ميخائيل وكان ذلك في ١٠ يونيو سنة ١٨٦٨ وهو اول رجل من عائلة ابرونيفتش حلت عليه النقمة من عائلة كاراجورجفتش

Digitized by Google · Original from HARVARD UNIVERSITY

فصار الثار متناوبا بين تينك العائلتين ولم يبرح السيف رقاب افرادهما الى هذا اليوم

﴿ الفصل الخامس والعشرون ﴾

﴿ ميلان بن افريم ونتالي ﴾

« مالك نفسه ومضيعها »

هل تصلح التربية فاسد الاخلاق من طبعه

كان اسكندر جورجيفتش يطمع في العودة الى منصة الاحكام بعد ان نجح في قتل نده ولكنه لم يوفق اليها فاكتفى بذلك الانتقام . وكان لافريم اخ ميلوش ابرونيفتش ابن اسمه ميلان ولد في سنة ١٨٥٤ فتر القرار على اسناد الامارة اليه وهو بعد فتى لا يدرك من الامارة الا انها جلوس على كرسي مذهب الحواشي رفيع العماد . ولم يوفق هذا الامير الجديد الى شيء يؤهله للحكم على نفسه فكيف بالحكم على جمهور كبير كثير الاضطرابات نزق الطباع . فهو لم يستدع للجلوس على كرسي الامارة لانه كفوء لها بل لانه مجرد أمير . وكانت دلائل الطيش بادية عليه من رأسه الى قدميه فظهر انه لم يخلق ليكون حاكما بل ليكون محكوما واذا كان « الذي يملك نفسه يملك مدينة » على ما جاء في الامثال فان الذي لا يملك نفسه لا يملك قالبا من سطح بيت . وكيف يملك شيئا ونفسه نفسها ليست له ولا هي منه في شيء . انها عبدة للاهواء الخارجية فليست الا هدفًا لهذه الاهواء

ولد ميلان ضعيفا في كل شيء الا في جسمه فانه كان قويا ولولا هذا لما عاش ربع عمره الذي عاشه راضخا لمؤثرات تلك الاهواء ولده ابواه بعد ان دخلت الامارة الى عائلته ومر عليها نحو ربع قرن فرباه تربية المحدثين الذين تقلبهم النعمة المحدثة بين كفي الافراط والتفريط . ثم تركاه فتى صغيرا لا رادع له غير عقله الطائش ولا شكيمة غير امياله الفاسدة . وكان الذين يلتفون حوله من صغار الجيران وهو في الثانية عشرة من عمره يقيمونه حاكما عليهم وهم في ساحة الالعاب فلم يكن عنده من ادلة البراعة في الاحكام الا طحنهم بالعصا والصراخ اذا لم يستسلموا للضرب به . وسأله بعض هؤلاء الاولاد يوما ان يفصل في نزاع وقع بينهم على قطعة من الحلواء

سريعة الذوبان في الماء وقد وجدوها بجوار منزلهم وادعى كل منهم انه السابق فيها كلها فكان اقصى ما انتهت اليه قواه العقلية ان يرميها في نهر عميق امامهم ويأمرهم بالنزول في النهر فمن استطاع تناولها قبل أخيه كانت له ثم اضطرهم الى اطاعة أمره والحلوى ذائبة امامه فغرق ولدان . ولما سئل عن الولدين قال بلا مبالاة اني امرتهما بان يغرقا فأطاعا الامر وهكذا صار . وكان مرءوبه يرى منه طيشا لا يطاق وبلادة في العقل لا ينتظر اصلاحها على الاطلاق . ومن الاولاد من قد يكون بليدا في أول عمره ثم تنقلب اطواره فيصبح مثلا في النشاط ولكن يغلب ان يكون مستقبلهم ظاهرا من حاضرهم وماضيهم . وعليه فان أميرا كهذا يظهر تلك البلادة في سن كسنه كاف للادراك لا ينتظر منه اقتدار على الحكم بين الناس اذا كبر والقيت اليه مقاليد الاحكام

ولم يبلغ الامير ميلان سن الحلم حتى بدأت أمياله النفسانية الفاسدة تظهر بوضوح فلم يترك منقصة الا اتاها حتى صير قصره فسادا في فساد . وعلت الامة بذلك فظنته عارضا يزول بانقضاء ايام الطيش وتوقعت منه الاعتدال اذا اقترن بمن تملك قلبه فلا يعطيه لسواها . ولكن الشعب كان مخطئا في ذلك لان الفاسد فاسد مهما كثرت وسائط تقويمه ولا سيما اذا كان مثله ذا عقل ضعيف من طبعه لا يقبل التثقيف وارادة ضعيفة لا تقبل التقوية وطبع جبل على الشر والفساد ــ ان التربية ووسائط التقويم كثيرا ما تصنع العجائب في تقويم أهل الفساد ولكن قدرتها لا تتعلق بالمستحيل . والله جل جلاله صاحب القدرة المتناهية وصانع المعجزات من قدم لا تتعلق ارادته بالمستحيل فلا يجعل الليل والنهار في آن واحد ولا يجعل جسماً واحداً محسوسا في مكانين مختلفين في آن واحد . فاذا كان الله وهو الذي لاحد لقدرته يعلق ارادته في صنع المعجزات بوجه من وجوه الممكن المعقول فكيف لا يكون لمعجزات التربية ووسائط التقويم حد تنتهي اليه ؟؟ نعم ان التربية قد تلطف أخلاق الاحمق من طبعه وتكبح جماح الفاسد من غريزته ولكنها لن تحول ذلك الاحمق الى حليم عاقل ولا ذلك الفاسد الى مهذب فاضل

Digitized by Google Original from HARVARD UNIVERSITY

وعليه فان وسائط التقويم لم تكن كافية لايجاد أخلاق جديدة للامير ميلان . واذا اقتدرت على ذلك لم يكن اقتدارها الا الى حين لانه ليس مستعدا لقبولها استعدادا طبيعيا . وربما كان في هذا تفسير لقولهم ان الاصفياء مختارون من قدم والاشرار مرذولون من قدم . ولكننا اذا سلمنا بذلك فهل لنا من الادلة ما يدعونا الى التسليم بعدل الدينونة الأبدية ؟؟ — خلق ميلان فاسدا من طبعه وأصل فطرته بحيث انه لايقبل التقويم فلماذا تدينه محاكم الارض اذا وقع في جريمة وخضع للمحاكمة ولماذا تدينه محاكم السماء في اليوم الاخير ؟؟ هل يدان الاعمى لانه لا يبصر والابرص لانه لايطهر والمقعد لانه لايقوم والاحدب لانه لايستقيم ؟؟ فاذا لم يكن أصحاب العاهات الجسمية الطبيعية مسئولين عن نتائج عاهاتهم فلماذا يكون اصحاب العاهات الاخلاقية مسئولين عن نتائج هذه العاهات ؟؟ ألعل الدينونة كلها موجهة الى العقل لا الى سواه لانه الحاكم الاعلى على العواطف بحيث انه اذا كان مختلاً ولم يقدر على حكم تلك العواطف لم تجز عليه مسئولية والا فقد جازت عليه ودين صاحبه ؟؟ فاذا كان الامر كذلك فان المسألة مسألة عقل وجنون بمعنى انه اذا كان الانسان فاسد الطبع ولكنه ذا عقل وجب قصاصه اذا أخطأ لانه لم يتعمد بعقله عن ذلك الخطأ فاذا كان مجنونًا لم يجز عليه هذا القصاص . ولكنهم يقولون ان المرء لايأتي نوعًا من أنواع الجرائم الا اذا كان ناقص العقل فكأن كل جريمة تحدث ناشئة عن جنون وكأنه ليس من العدل ان يقاصص مجرم من المجرمين . فكيف يمكن التطبيق بين جرائم الناس وماشرع لها من أنواع القصاص في محكم القوانين وكيف يمكن التطبيق بين الذين يخلون كل ناقص العقل من المسئولية وبين الذين يضعون واحداً كالامير ميلان موضع المسئولية الشخصية ؟؟

علم الناس بالاختبار ان الردع والتأديب كثيرًا مايقللان من شرور الاشرار . فاذا قيل ان اعفاء المجرم من المسئولية واجب عدلاً ورأفة لانه ناقص العقل قلنا ولكن مسئوليته تفيده وتقلل شروره فيجب ان يسأل عدلاً ثم يرفق به على نسبة الظروف التي أحدث فيها الجرم والتدبير الذي اتاه عقله . فكأن المسئولية هنا نسبية

Digitized by Google Original from HARVARD UNIVERSITY

تابعة الى درجة العقل كما تقدم القول وكأن القوانين البشرية والسماوية لم توضع عبثاً بل وضعت عن حكمة فائقة مع مراعاة الرحمة والعدل في آن . فاذا حكم على الامير ميلان بأنه فاسد الطبع مرذول الاخلاق كان الحكم عادلاً ولكن جانب الرحمة يقضي بأن لاتكون مسئوليته باذاء ذلك كمسئولية صحيح العقل وغيره ممن وجدوا فرصة للتربية والتهذيب . والواقع انه اذا أعطي لقاض عاقل ان يحكم على الامير ميلان بما اقترف في حياته لما حكم عليه بغير حسبانه طفلاً والدخول في معهد من معاهد التربيةوتأديبه تأديباً خفيفاً لانه لم يكن على استعداد ذاتي يقدره على السير باعتدال ولم يجد فرصة في صغره تخفف عنه حدة الطيش

وياليت هذا الامير المسكين ترك لنفسه والضعف الذي هو فيه ولكن لما القيت اليه مقاليد الامور اجتمع حوله كثيرون من ارباب الدسائس والفتن والتملق فحشوا عقله بالنقائص واجهزوا على ما كان باقياً في قلبه من سلامة النية والاخلاص. فانه على ما رأيت من فساد اخلاقه كان سليم النية مخلصاً لمن يعتقد انه مخلص له كثير النسيان لهفوات الناس ضده وهي صفات من اعلى الصفات الانسانية ولكنها لسوء حظ البشرية لا تنبت غالباً الا في قلوب الذين ضعفت ارادتهم وانطووا تحت راية الاميال النفسانية الفاسدة . فهو في الواقع كان كالطفل المسكين في سهولة الانقياد وقلما القى عليه رجل قولا الا صدقه ولا دعاه الى امر الا اطاعه فيه . لهذا كانت اذناه مستعدتين لسماع الفتن وكان قلبه منبتاً طيباً لبذور النمائم والوشايات. فاصبح مجموع وساوس واوهام ومضى عليه وقت طويل كان يظن فيه كل الناس اعداء له الداء لكثرة ما كان يلقى عليه من تلك الوشايات . ولم يكن يملك حق التصرف في شيء من ادارة الشؤون السربية لانه كان بعد صغيراً ولكن كثيرين كانوا يحاولون التقرب منه واجتذاب قلبه بتلك الدسائس والفتن حتى اذا جاء الوقت الذي يملك فيه ذلك الحق جعلهم من أعوانه والمقربين اليه

Digitized by Google Original from HARVARD UNIVERSITY

﴿ ميلان يخطب فتاة ﴾

﴿ التعاسة في ثوب الهناء ﴾

هكذا كانت اخلاق ميلان بن افريم . (وهو غير ميلان بن ميلوش ابن عمه المتقدم ذكره) . ولما بلغ سن الرشاد وجاء الوقت المناسب لقرانه بحث له المقربون عن فتاة تصلح له وتصلحه ولم يتركوا له حق الاختيار . وكتب الشقاء لفتاة روسية اسمها ناتالي ولدت في يوم أغبر وشبت في طالع النحس فتوجهت اليها انظار خطابه وقصدوا تقربيا منه . وسمعت هي بذلك فوقعت بين عاملين عامل الميـل الى الجلوس على عرش الامارة السربية وعامل الخوف من اخلاق هذا الامير . وكانت ابنة واحد من كبار الضباط الروسيين فورثت عن ابيها الميل الى الرفعة وعلو المقام فغطى هذا الميل على كل أمر آخر جدير بالملاحظة والاهتمام . ولا تزال هذه المرأة التعيسة الحظ على قيد الحياة فروايتها رواية من لم تكمل سلسلة تاريخه بعد . ولكن في تاريخها الواقعي الذي مضى ما يجمع كل عبر الروايات الاخرى وفيه ما يكفي لان يكون تاريخاً مقروءاً في كل بيت يجمع فتاة او فتى في سن القران



الامير ميلان وامرأته ناتالي (هذا الرسم عن الهلال)

كانت هذه الفتاة المسكينة بارعة في الجمال كما ترى في رسمها ذات عينين نجلاويتين تأخذان بمجامع القلب وتخطفان بنورهما اللب وقوام معتدل يزري بغصن البان وقد متناه في خفة الروح فكانت جديرة بأن تملك قلب شاب كهذا شب على التعبد للجمال . وكانت فوق ذلك معروفة بالحكمة والفطنة فكانت أنسب بنت من بنات حواء للامير ميلان لأنها جمعت مابين جمال يجتذبه وكمال يصلحه . ونظر اليها لاول مرة فخطفت لبه ومال اليها ولكن لا كما يميل الفتى لفتاة ينتظرها شريكة في الحياة . ذلك لانه تعود القاء نظرات أخرى فلم يألف قلبه حباً طاهراً . وقد تقدم انه لم يكن يملك نفسه ولهذا فكان من المنتظر ان يكون ملكاً شائعاً لسواه . ومن كان هذا وصفه بعيد ان يرضخ لواحدة تملك قلبه وحدها . وعلى هذا فهو لم ينظر الى نتالي الا كما نظر في ماسبق الى سواها من بنات جنسها حاسباً انها ستكون احدى شريكاته لانه أعظم من ان تملك قياده شريكة واحدة . ولم تدرك نتالي هذه الحقيقة في أول الامر بل هي ظنت منه الانصباب الكلي والميل الذي لايساويه ميل فحسبت نفسها سعيدة وتاهت على آل عشيرتها لأنها ستصبح من ربات التاجين تاج الملك وتاج الجمال . ولكن اذا كانت الرأس التي تحمل تاجاً لاتستريح في نومها كما يقول شكسبير فكيف الحال برأس تحمل تاجين ؟؟ اذا كانت تلك الرأس التي تحمل تاجاً لاتنام مستريحة فان الرأس التي تحمل تاجين لاتعرف النوم

متاعب التاج ـ العظمة والسعادة ـ تحاسد الطبقات

والواقع ان تاج الجمال الذي كان محمولاً على رأس نتالي كان سبباً في شقائها اولاً وتاج الملك الذي حملته رأسها بعد كان سبباً في شقائها ثانياً وأخيراً . وقد كان جمالها محسوباً عليها كما ان ذكاء المرء محسوب عليه فكأن مقسم النعم قسم لها تلك النعمة وحدها نعمة هذا الجمال وأبعد عنها بقية النعم لتوزع على سواها من الناس . نعمة لو وضعت لبنات حواء في كفة وكل النعم الباقية في كفة أخرى لاخترنها وحدها لا لأنهن يزهدن بقية النعم فما كان الزهد من طبع بنات حواء ولكن لأنهن يحسبن تلك النعمة كافية لجلب بقية النعم على أهون سبيل ـ سهم واحد من سهام

Digitized by Google Original from HARVARD UNIVERSITY

العيون كافٍ لفتح كل الحصون . ـ وفي هذه الحصون ماشئت من بقية النعم ما بين عز وجاه ومال، نعم ولكن لو جمعت كل سهام تلك العيون لما قدرت على فتح الحصن الذي لاتتطلب الحياة الحقيقية سواه وهو حصن المسرة الذاتية والهناء . ذلك لان لهذا الحصن العزيز المنيع مفتاحاً آخر يختلف عن تلك المفاتيح لاشكله من شكلها ولا مقره من مقرها ؛ انه من القلب ولا يهوى غير مخادع القلب فعبثاً يحاول المرء فتح ذلك الحصن بسواه . كان عند نتالي كل مفتاح تفتح به جيب ميلان وتفرغ منه ماشاء وعينيه وتستقبل من اعجابهما ماتريد وقصوره وتقطن منها كل عال منيف ومخازن جواهره ورياشه وتتحلى بكل نفيس فيها وتتمتع بكل جميل ولكن لم يكن معها ذلك المفتاح الذي تفتح به قلبه فضاع منها مفتاح السعادة الممكنة في هذه الدنيا واية سعادة ترى تكون بين انسانين لم يربط قلبيهما رابط . ومن الغريب ان هذا المفتاح الصغير في نفسه الكبير في نفعه قلما يألف سكان القصور وهم الذين أوتوا من سعة الدنيا مايؤهلهم لنيل كل نوال ولكنه يألف غالباً احقر الطبقات فيفتح لها كل ما يتمناه اولئك الاغنياء ولا يجدونه من بال رائق وعيش هني،

يقولون انه كلما ارتقى المرء في مدارج هذا الوجود كلما رأى الذين هم ادنى منه صغاراً كالذي فوق جبل عال يرى الذين في سفحه اصغر من اشباحهم الحقيقية . وهي حقيقة ولكنها لم تنطبق ابداً على نتالي من اليوم الذي وطأت فيه ارض السرب الى يومنا هذا الذي نحن فيه . ان كثيرات من بنات جنسها اللواتي لا يدركن غير الظواهر كن يحسدنها لأنها باتت واصبحت ربة ذلك التاج . وربما تمنت نتالي ان يدوم هذا الحسد لتكون محطاً لاعجاب اخواتها فتنال هذه المزية بعد ان فقدت كل المزايا الاخرى . ولكن ادراكها الحقيقة ما اصبحت فيه من الشقاء والويل فتح عينيها الى درجة غير اعتيادية فصارت تنظر اليهن من سماء مجدها الباطل فلا تراهن فقط حسبما هن فيه من الحالة الطبيعية بل واكبر شأناً واهنأ حياة وتحسدهن حسد الصغير للعالي الكبير كالذي يصعد على ذلك الجبل العلي ويضع على عينيه منظاراً مكبراً فلا يرى الذين هم دونه في حجمهم الطبيعي فقط بل اكبر حجماً واطول

قواماً . او انها كانت بالنسبة اليهن كالسجين بجوار نافذة من قصر يغطيها سلك رفيع دقيق فيرى منه الذين هم خارج القصر في حالتهم الطبيعية واما هم فلا يرونه لاحتجابه وراء ذلك السلك الدقيق فيظنون ان وراء النافذة ما وراءها من انسان يمده الترف ويعتمه هناء القصور . فهي كانت تنظر اليهن وكلها رغبة في النزول الى منازلهن وهن كن ينظرن اليها متمنيات لو نلن نعمة القرب منها . ولكنها كانت تشترط في رغبتها هذه شرطاً عزيز المنال وهن كن يطلبن في هذا التمني مطلباً لا ينال . انها كانت تريد التجرد من كل نعمة الا نعمة « الاسم » اسم التاج العظيم فتنزل عن عرشها مع المحافظة على لقبها وانهن كن يتمنين لو نلن منالها على ان تبقى لهن السعادة الناشئة عن هناء البال . كأنها تريد التجرد عن الفعل دون الاسم غير عالمة ان الفعل يتبع الاسم اينما كان . وهل يعقل ان تخلع التاج وتبقى مع ذلك صاحبة التاج ؟؟

ان غلطة نتالي وأخواتها في هذا التمني هي غلطة البشرية كلها فلا حرج عليهن فيها . ـ يكون الملك صاحب السلطان الواسع في ضيق لا ضيق بعده سواء من مركزه السياسي ايام الحروب الخارجية والفتن الداخلية أو من تقييده بالقيود الملكية وينظر الى من هم دونه مقاماً في الهيئة الاجتماعية فيتمنى لو أعطي ما أعطوه من هناء البال ليعيش انساناً متمتعاً بالحياة الحقيقية . ثم يعترضه في هذا التمني رغبته في بقاء الابهة الظاهرة حاملا اسم الملك ليكون في طبقة ممتازة عن اخوانه الناس . ويكون التاجر الكبير صاحب المخازن الواسعة في اعسر الضيقات المالية والجسمية والعقلية ومركزه مضطرب يمرر عيشه ويحرمه لذة الاكل والنوم ويبعد عنه كل هناء ثم ينظر الى تاجر صغير بجواره يأخذ ويعطي هادئاً مطمئناً وفي سعة كافية من العيش فيحسده على مركزه ويتمنى ان يصبح مثله ولكن في هنائه فقط واطمئنان باله وليس في مخزنه الضيق او اسمه الصغير الحقير . وبين الملك والتاجر ملايين من البشر يحسدونهما على ما هما فيه ويتمنون ان ينالوا نعمة القرب منهما او شيئاً من سعتهما على ان يبقوا على ما هم فيه من البال الرائق والعيش الهنيء . فكل من الفريقين يتمنى ان يأخذ نصيب الاخر

Digitized by Google
Original from
HARVARD UNIVERSITY

الا ما يتبعه من المسئولية الكبرى والشقاء . وهو ممن أقرب ما فيه أبعد من قمة الجوزاء .
وانما الذي يحمل اسما عليه ان يحمل ما يتبعه من حمله وبذلك قضي على كل المحظوظ

على ان تتالي لم تستسلم لحظها مع الامير ميلان بل طالما سعت الى اصلاحه بقدر الامكان . رأته يوماً غارقاً في سكره و بعض كبراء حكومته يعرضون عليه اوراقاً ليصدق عليها و ينظرون اليه مبتسمين ابتسامة المتعجب المستهزئ فانتظرت ريثما خرجوا من حضرته وسألته عما اذا كان يدري ما وضع عليه امضاءه . فاجابها دعينا منهم فقد ذهبوا مع أوراقهم . فلما افاق من سكره وقلما كان يفوق و بحثه بلطف ظناً منها انه لا يزال قابلا للاصلاح فلم تجد منه غير عينين تتقدان شرراً و يد متحفزة لضربها ووجه كشر عبوس . وجاء اليوم الثاني فسكر سكرة هائلة لم يفق منها الا على صراخ الاميرة تتالي وقد حسنت له الخمرة ان يضربها ضربا مبرحا لالشيء الا لانه رآها قاعدة ساكتة لا تغني مع المغنيات ولا تشرب مع صاحباته الشاربات !!
وكانت ترى بعينيها كيف يرغب عنها في سواها وترى نفسها منبوذة كاحدى خادمات القصر أو أدنى فتتقد فيها نار الغيرة النسائية أي اتقاد . وطالما حقرها امام خادماتها وخدامها وأنزل عليها من ايات سخطه ما لو صب على جبل لدك

وقد خطأ بعض الباحثين الاميرة تتالي في تصرفها مع زوجها الامير قائلين انها كانت تشدد عليه في انتقاداتها وما كان هذا ممن ينفعهم التشديد . على انها لم تلجأ الى هذا التشديد الا بعد ان فرغت كل حيلة معها في الالطاف المتناهي والرقة التامة ولم تنس مطلقا مقامها كامرأة . وربما كانت مخطئة من هذا الوجه وهو انتظار اصلاحه بواسطة نصائحها بعد ان علمت بامرين أولها فساد اخلاقه الطبيعية وراثة وشكلا وتربية وخلو قلبه من حبها . وكيف يمكن لمثلها ان توصل تأثير نصائحها الى قلب رجل مثله ليس لها في قلبه موضع فضلا عن ان كل مواضع قلبه مملوءة بالفساد

﴿ الفصل السادس والعشرون ﴾

الماليون والحروب ـ حرب الصرب وتركيا و بلغار ـ لا قانون مع السياسة

تزوج ميلان بهذه المنكودة الحظ في سنة ١٨٧٥ أي بعد ان صار أميراً بثلاث

Digitized by Google Original from HARVARD UNIVERSITY

سنين وحين كان عمره ٢١ سنة . وظل في حرب معها ثلاثة أعوام حتى اذا انتهت حسن له بعض المقربين ممن يتخذون الحروب فرصة للكسب بان يشهر حربا على تركيا ليبعد عن ملكه ما بقي من نفوذها فيه فأشهر هذه الحرب . ورأت تاليذلك فسرت في نفسها قائلة ربما اشغلته حرب تركيا عن حربي وربما اضطرته ايضا الى التعلق باذيال التعقل والرجولية . وكان من أخص الذين حسنوا له هذه الحرب بعض الماليين الكبار في انحاء اوروبا لعلمهم ان دولة كدولته اذا دخلت في الحرب وجدت نفسها مضطرة الى الاستدانة بفوائد رابية وهكذا صار . وما زال حزب الماليين في اوروبا وغير اوروبا على هذا العهد الى اليوم يقيمون لهم اعوانا ينشئون في الجرائد السيارة ويخطبون في المجتمعات العمومية ما يقيم دولة على دولة لتضطر الدولتان الى اشهار الحرب والاستدانة منهم بما شاؤا من فوائد مخربة ولا يهمهم ما يذبح من البشر الوفا ومئات الوف

وكانت السرب في انحطاط تام من حيث السياسة والقوة فلم تلبث حتى تغلبت عليها الدولة العلية في عدة وقائع ولم يبق غير عودتها الى سلطة الاتراك . على ان الدولة الروسية وهي التي قضت تقاليدها باضعاف الدولة العلية ما استطاعت الى ذلك سبيلا رأت ان تحرمها ثمرة انتصارها على السرب مع مابذلته في سبيل ذلك من الرجال والمال فكان لها ما رأت وابقت مركز السرب كما كان أولا بل زادت عليه ان عقدت معاهدة في برلين اثناء ذلك العام نفسه قضت بحسبان السرب مملكة مستقلة واميرها ملكا فاصبح الامير ميلان بعد تلك المعاهدة ملكا متوجا وامرأته الاميرة ناتلي ملكة متوجة . وعليه فهو اول ملك قام من العائلتين فكانت له بذلك مزية ظاهرة لو انه احسن استخدام فرصتها لاستفاد وافاد . ولكن الذين يحسنون استخدام الفرص قليلون جدا فكم بالاحرى يكون الملك ميلان وعنده من الشواغل الاخرى مالا يدع في قلبه محلاً لسواه . وكأنه وجد من ورائه دولة كبرى تذود عنه كلما احتاج الى الذود فنام عن المسائل السياسية وترك حبلها على غاربها . والواقع ان روسيا كانت ولا تزال عاملة على مساعدة السرب

Digitized by Google Original from HARVARD UNIVERSITY

لاحباً في صوالح السربيين ولكن حباً في بسط نفوذها بينهم اولا ونكاية بالدولة العلية ثانيا . وما زال هـذا شأن الدول الى اليوم لا تحسب قوانينها المسنونة الا حبرا على ورق لا يتعامل بها الا الاقوياء بعضهم مع بعض فاذا وقع بين هؤلاء الاقوياء ضعيف لجأوا في معاملته الى القوة وتناسوا محكم هـذه القوانين — تقضي القوانين الدوليـة بانه اذا اغارت دولة على قطر وتغلبت عليه ولا سـيما اذا كان هو البادىء بالعدوان امكن لها ان تأخذ حقوقها منه وتنتفع بثمرة انتصارها عليه . ولكن الدولة الروسية لم تجر على هذا المجرى في معاملة الدولة العلية بل هي حرمتها ثمرة الانتصار على السرب بعد ان تظاهرت بالامتناع عن مساعدة السربيين حتى تشهر الحرب عليهم وتستنفد في سبيل محاربتهم شيئا من قواها الحيوية مالا ورجالا . وقد جرت هذه الدولة الروسية والدول الاوروبية الاخرى على هـذا النمط بعد انتصار الدولة العلية على اليونان في حرب كريت فانها انتظرت حتى افنت كثيرًا من اموالهـا ورجالها واحرزت النصر الباهر على اليونانيين ثم حرمتها ثمرة ذلك الانتصار وجعلت كريت في مركز دولي يؤهلهـا للانضمام الى الشعب المقهور . ولا يمكن القول بأن الدولة الروسية أقدمت على مساعدة السربيين خوفًا عليهم من اعادة المظالم السابقة فما كان في السياسة خوف من هذا القبيل وهذه دماء الارمن الذين ذبحوا بمئـات الالوف شاهـدة على ان الدول الاوروبية وتلك الدولة في مقدمتها لا تعرف في السياسة شفقة او نصر مظلوم . وقد اعادت روسيا تمثيل هذا الفصـل مع الحكومة السربيـة والبلغار في سنة ١٨٨٥ اي بعد تلك الحرب بثماني سنوات . فان السربيين رأوا ان يوجـدوا لهم شأنا سياسيا بين الدول واغاروا على جارتهم هـذه فانكسروا شر انكـار . وقد اعانتهم روسيا هذه المرة ايضا فلم تصب داخليتهم بسوء الا ما كان موضعيا فيها من سوء الادارة واختلال الاحكام

﴿ الفصل السابع والعشرون ﴾

ارطميس وتنالي ـ الحليلة والخليلة والفرق بينهما

ولنبعد الآن عن ذكر تلك الحروب الخارجية الدوليـة فان لنا من الحرب

الداخلية الناشبة بين الملك والملكة ما يختفي في جنبه كل حرب سجال

ظل الملك ميلان عاملا على اذلال امرأته الملكة ناتالي حتى كان يوم مال فيه الى فتاة حقيرة الاصل اسمها ارطميس . وكانت هذه الفتاة ابنة واحد من صغار باعة الاخشاب ولم ينعم الرحمان عليها بشيء من النعم النسائية . فقد كانت مجردة عن كل جمال ولا شيء فيها من لطف بنات حواء بل كانت عبارة عن كتلة بشرية لا تروق لغير الذين تلذ لهم « المياه المسروقة » وان تكن مرة على ما جاء في الامثال . هذه لما رأتها ناتالي لم تحسدها لاول مرة لانها رأتها أدنى منها في كل شيء وعلى الاخص في ما تظنه يستجلب رضى الملك وهو الجمال . ولم تنظر اليها نظرة حاسدة على الاطلاق لان الذي يشعر في نفسه بمزية تفوق ما في اقرانه تمتنع عنه رذيلة الحساد . ولكن لما رأتها وقد احتلت كل ما لها من مراكز ومواضع ومنافع ومواقع بدأت الغيرة النسائية تلتهب في قلبها وتفعل فيه فعلها المعروف . وقد كانت تخلو بنفسها اوقات كثيرة وهي تتأمل ما يدعو الملك الى تفضيلها فتناجيها بان ما الذي وهبته هذه الفتاة يا ترى حتى تروج سوقها لدى الملك كل هذا الرواج أ الجمال؟ انها ليست جميلة . اخفة ورشاقة ؟ انها بعيدة عن كل خفة ورشاقة بل أقرب الناس الى البلادة والجمود . اذن فهل امتازت بشرف الاصل ؟ كلا فانها وضيعة . ثم ماذا؟ هل امتازت بشيء من الغنى الموروث ؟ لا . هل عندها صوت رنان يختلب الاسماع و يفرغ لها محلا في القلوب ؟ ولا هذا أيضا فان صوتها من انكر الاصوات . اذن ماذا ؟ . أ لعلها سميرة حلوة الحديث ؟ كلا فانها بالكاد تنطق وما كان الملك ليصحو ساعة يتلذذ فيها بحديث انيس او غير انيس . هل اختارها اذن نكاية بي ؟ لقد كان له من بنات السرب كثيرات يفضلنها خلقا وخلقا . هل عرفت من ادوات التنسيق والتزويق ما جهلناه ؟؟ كلا فما سمعنا بتركيب جديد . اذا لم يكن هذا ولا ذاك فكيف استطاعت هذه الشيطانة ان تحتل مخادع قلبه ولا تدع محلا لمن هي أفضل منها ؟ هه قد عرفت السبب . لعله هو . انها مثله في فساد الاخلاق وقبح الطباع تجاريه في كل شيء حتى في السكر الى حد الجنون وتحسن له سيره المذموم .

Digitized by Google Original from HARVARD UNIVERSITY

ولعلها اتقنت ايضا فن الوشاية ولا سيما ما كان متعلقا بي فانها عرفت طبعه وملكت أذنيه فأخذت تسر اليه كل يوم وشاية جديدة حتى ظن هذا المغرور انها الوحيدة في الاقتدار على جلب الاسرار . وفضلاً عن هذا وذاك فقد وافق ذوقه ذوقها ولا مشاحة في الذوق . انها قد تكون جميلة في نظره وان تكن قبيحة في نظر الغير . وفوق ذلك كله فهي مسروقة والمياه المسروقة حلوة لدى السارقين . ـ ثم انها غير شرعية وما كان رجل مثله فاسد الطبع ليتقيد بقيد شرعي أجمعت على صحته الآداب . ان طبعه من طبع القطط . نعطي للقطة لحمة لتأكلها بهدوء واطمئنان فلا تأخذها ثم تتحول عنها الى عظمة فتخطفها وتجري متلذذة بها لأنها مخطوفة . ماذا الذى حمل هذه القطة على خطف العظمة وترك اللحمة ذلك مع ان اللحمة معطاة لها يداً بيد وهي لحمة لا عظم فيها وأما تلك ففضلاً عن كونها عظمة لا شيء فيها من الغذاء فان أخذها محظور عليها . ان الذي حملها على أخذ هذه وترك تلك هو عين ما حمل ملكنا المعظم على هجري وأخذ تلك الفتاة وما يحمل كل رجل فاسد الطبع على نبذ حليلته والتداني الى الغير — ان الحليلة مملوكة في اليد فهي تزهقها النفس الطامعة الدنيئة واما غيرها فممتنعة اذا لم يكن يداً فشرعاً وأحب شيء الى الانسان ما امتنع

«طلاق نتالي» ــ الجرائد ورجال الدين

كانت نتالي تقضي الليالي ساهرة باكية لا تعرف ماذا تعمل لتبعد عنها هذه المزاحمة الجديدة وتمتلك قلب زوجها . ولكنها لم توفق الى طريقة لذلك مع ما القته من دواعي النفور بينها و بينه . وكان زوج نتالي على سرعة انقياده صعب المراس في ما ينطبق على أمياله الفاسدة . ولهذا بطلت كل حيلة أتاها سكان القصر ورجال الحكومة السربية لتحميله على ترك ارطميس . وقد زاد ارتباطه بها بعد ان ولدت منه ولداً فأخذ من ذلك الحين يسعى في الاقتران بها اقتراناً شرعياً . ولكن اقترانه بها يدعوه الى ارتكاب جريمة هائلة ضد واحدة لم تسيء اليه في عمرها وقد كانت حكومته نفسها هي الواسطة في

عقد عقدها . على ان من يرتكب كل تلك الجرائم السابقة ليس أسهل عنده من ارتكاب هذه الجريمة جريمة طلاق نتالي .. ولم تكن نتالي نفسها تظن انه سيقدم يوماً على هذا الجرمالفظيع فيقضي على حياتها الادية وعلى الخصوص لانه ليس في الشرائع الدينية ولا المدنية ما يسوغ له اتيان ذلك ولما سمعت يوماً بانه عازم على ارتكاب هذا الامر قالت لعله من باب الوعيد والتهديد . والواقع انها سرت سروراً كبيرا لانها ستنفصل عن رجل لم تر منه خيرا في حياتها ولكنها كانت ترى ذلك الانفصال ضربة كبرى عليها من حيث مركزها النسائي وضياعاً للذة التاج . ذلك التاج الذي باعت كل شيء في الدنيا واشترته . وأي شيء بعد السعادة الشخصية وهناء الحياة . انها باتت أيضاً الدوم حاملة هذا التاج فقضي عليها ان تحرم لذة الامرين وتعيش عطلا من كل مزية وسرور

قلنا انها لم تصدق مطلقاً بان الملك ميلان سيقدم يوماً على طلاقها . وقد زادت اعتقادا بذلك حين رأت رجال الحكومة أنفسهم يعارضونه في أمياله و يلحون عليه بترك ارطميس والا قضوا بانزاله من فوق العرش - ولكن اذا كانت مدافع دولتين لم تقتدر على اضعاف مركزه فضلا عن اسقاط عرشه فكيف تتاح هذه القدرة لاحدى النساء كانت نتالي روسية كما تقدم القول فكان من المنتظر ان تستمد من بلادها ما يقوي مركزها في هذه الظروف ولكن اذا كانت الدول تضحي الملايين من رجالها في سبيل صالحها السياسي فكيف لا تضحي احداها امرأة من بناتها باتت وأصبحت في غير جنسيتها . ان روسيا كانت تنظر الى عرش السرب وأميال الجالس عليه فما فكرت مطلقاً في هذه الازمة الداخلية ولا وجهت اليها شيئاً من الالتفات . وقد اجتمع رجال الحكومة السربية مرارا وتكرارا وقرروا في ما بينهم ان يمنعوا الملك عما قصده بكل ما وسعت قدرتهم فذهب اليه وفد منهم ومن كبراء السربيين وشرحوا له ما يحط بقدره اذا اقترن بتلك المرأة قائلين انها فضلا عن ضعة اصلها فانها لم تعش معه عيشة الطهارة والفضيلة ولم تأت الملكة نتالي

Digitized by Google Original from HARVARD UNIVERSITY

شيئاً يستحق هذا القصاص . ولم يكن الملك ليعي ما يقال عن طهارة وفضيلة ولا يعرف لها مزية على النجاسة والرذيلة ولهذا فلم يكن جوابه لهم الا انه هكذا قضت أمياله ولا بد من اتمام ما ينوي . وعلم الملك بتأثير الصحافة ورجال الدين في مثل هذا الشأن العمومي فطرق ابوابهما وكان له منهما شيئاً مما يريد . رأى الجرائد الكبرى في العالم كالتيمس والديلي تلغراف والديلي نيوز والنيويورك هرالدوالطان والذيبا وغيرها تقبح رغبته وتنزل عليه من آيات سخطها ما لو كانعشره في رجل حر لقضي عليه . ولكنه لم يحفل بها كلهالانه كان بالنسبة اليها كالحديد البارد بالنسبة الى المطرقة . وكان بعض الجرائد السربية يضرب على اوتار تلك الجرائد الكبرى فكاد يصدر أمرا باقفالها ولكنه ابطل ذلك الامر لانه استطاع ان يستميل بعض الجرائد الساقطة بشيء من المال لتحسن فعلته وتنادي بان الملك حر في ما يريد . وقد قامت احدى هذه الجرائد المأجورة يومئذ فانشأت مقالة طويلة الذيل استترت فيها بثوب النزاهة قائلة أنها لم تتداخل في هذا الامر الا للمصلحة العمومية وان ليس لها غرض ذاتي على الاطلاق . ثم اعقبت تلك المقالة بمقالة ذهبت فيها الى ان جلالة الملك يرى من امرأته الملكة نتالي مالا يراه الغير فهو حر في ما يريد . واستطردت في ذلك الى حد الطعن القبيح بهذه الملكة وبكل الذين يساعدونها على امنيتها قائلة ان البلاد السربية لم تر سعدا من يوم دخولها فيها . فضلا عن القلاقل الدائمة في البلاط الملوكي بسببها فان تركيا والبلغار قد ظفرتا بجيوشنا وكسرتانا اي انكسار. قالت ولم تظهر الملكة نتالي شيئاً من الحكمة في معاملتها الملك ولم يبد من ارطميس الا كل كمال (كذا) يعوض لها ما فقدته من الاصل الرفيع

وكانت الجرائد السربية باعتبار هذا الحادث الخطير على ثلاثة أقسام . قسم أظهر الحرية البالغة فلم يقبل مالا من الملك وتجرأ على تقبيح مافعل . وقسم لم ينطق بخير ولا بشر لانه كان كالضفضعة التي اذا نامت لم تنق فهي أخذت ما أخذت من المال أجرة لسكوتها . وقسم استهوته الاموال فلم يدع عيباً الا نسبه الى الملكة نتالي ولا (فضيلة) الا نسبها الى الملك ميلان

وامتلأ البلاط السربي في تلك الايام بكل ذي خسة ودناءة فلم يكن الملك ميلان ليلقى امامه غير الذين يعضدونه في ما ينوي انتظاراً لنواله . وكان بين هؤلاء بعض الصحافيين كما تقدم القول وبعض رجال الدين فافتوا بجواز هذا الطلاق قائلين انه ليس في القوانين المدنية ولا في الكتب الدينية ما يمنعه مادام مبنياً على الهجر الدائم والنفور المقيم . ولما رأى هذه القوة في يده تجرأ يوماً على اعلان رغبته في طلاق نتالي والاقتران « بالملكة » ارطميس . وما زال يذيع هذه الرغبة حتى تم له كل ما أراد فصدر القرار بطلاق نتالي وحرمانها من كل الحقوق الملكية وأعيد زفاف ارطميس بطريقة شرعية فزفت اليه كأنها فتاة من الفتيات وهي حاملة ولدين ولد في السرير وولد في الطريق !! وقد اختلطت أصوات رجال الدين يومئذ في ساعة الاكاليل بصوت ذلك النجل المبارك من فوق السرير وسمع الناس قولهم « وما جمعه الله لا يفرقه انسان » . وقد كان اولى بهم القول بان ما جمعه الله فرقه الانسان وما فرقه الله جمعه الانسان . سمع الناس رجال الدين ينطقون بذلك القول الشريف ويردفونه بقولهم « والآن باسم السيد المسيح لقد عقدنا العقد بين الملك ميلان وارطميس الطهور » !!

أيتها السماء كيف لا تنفطرين من حيف خدامك ويا أيتها الارض كيف لا تنشقين من ظلم كهذا يأتيه « أطهر » سكانك . أغاروا على ذلك الجانب الضعيف لانه لا حول له ولا طول فسلبوا حقوقه ولم يراعوا فضيلته ولا مزيته الشرعية ورفعوا تلك الفاسدة من المزبلة الى عرش عال ولم يحفلوا بما انطوت عليه من شر وفساد ـ انهم اقدموا على ذلك كله باسم « المسيح » وما جاء في اناجيله والرسل الاطهار وما جاء في رسائلهم . على انه لا المسيح ولا الرسل كانوا يهابون الملوك فاعجب بخلفائهم كيف يبتعدون عن خطواتهم ذلك البعد حتى كأنهم فقدوا حبل الاتصال بينهم وبينهم ولم يبقوا خلفاء ولا تابعين . ولكن لا عجب في هذا فانه لم يكن لاولئك السلفاء من مطامع الدنيا ما لهؤلاء الخلفاء فزهدوا كل شيء في سبيل الحق واتبعوا طريق الشجاعة الادبية

ومهما يكن من الامر فانهم حلوا ما حلوا وربطوا ما ربطوا والله يعلم واصحاب الضمائر الحرة لا يجهلون ان ما حلوه في الارض لم يحل في السماء وما ربطوه في الارض لم يربط في السماء . وقد انتهى طلاق نتالي في سنة ١٨٨٨ فاستقبلت الخبر متجلدة وقالت يكفي ان الناس يعلمون سبب هذا الطلاق وان البعد عن هذا الفاسد غنيمة كبرى وفي هذا وذاك كل العزاء . ولكنها كانت لا تزال متشربة بالعظمة الملوكية وانفة ربات العروش فحاولت كثيرًا ان لا تبرح عرش مجدها حتى تنتقم ممن كانوا سببًا في تشهيرها فخانتها الظروف والتفتت يمينًا وشمالا وشرقًا وغربًا فلم تجد واحدًا ممن كانوا يتزلفون اليها راغبين في معاونتها بل هم انقلبوا عاملين على الوشاية بهاودس الدسائس الى الملك وزوجته الجديدة القديمة حتى اصبح البلاط الملوكي مجموع دسائس ووشايات

﴿ خبائث القصور ﴾

وقد ظهر بعد ذلك لارطميس ان الملك ميلان لم يكتف بها بل ان له سراري كثيرة ينفق عليهن عن سعة وان له اولادًا كثيرين من غيرها فبدأت تحصد ما زرعت من نتائج الغيرة المرة وصارت حياتها في كدر مقيم . وما كان قصر الملك ميلان ليختلف عن كثير من قصور الملوك والامراء وذوي الهيئة المنظورة في هذه الدنيا من حيث الشر والفساد فان اكثر تلك القصور تحسب محطًا لاخبث الخبائث ومنبتًا لكل انواع الفساد كأنما الفساد نبات يصلح نموه في اراضي القصور اكثر مما يصلح في اراضي الاكواخ . ولكن الملك ميلان كان اكثر عجزًا من غيره في كتمان اموره ولهذا كان فساده اوضح وشره أظهر . ولا عجب ان ينطبق هذا الوصف على اكثر القصور فان سكانها قلما يرون انفسهم في حاجة الى تهذيب انفسهم وتهذيب ابنائهم ما دام ان في قدرتهم الانفاق على ما يقضي ملاذهم بلا خوف من الفقر كأنما التهذيب لم يوجد في عرفهم الا ليمنع الفقراء عما لا يقدرون عليه من الانفاق في هذا السبيل . ذلك فضلا عن ان وسائل اللهو والزهو تشغلهم عن ذلك وظواهر الابهة والعظمة تجعل بينهم و بين الذين هم دونهم من طبقات البشر حجابًا كثيفًا يغطي

Digitized by Google Original from HARVARD UNIVERSITY

على فضائحهم أو ترساً منيعاً يرد عنهم لوم اللائمين وانتقاد المنتقدين . ولكن مهما يكن من الامر فان نتائج الفساد تحيق بهم كما تحيق بسواهم من الفقراء وغير الفقراء ولا تحفل بما انطووا عليه من ظواهر العظمة فتحط مراكزهم من العيون وتجعلهم هدفاً لمصائب الاجتماع وقد رأينا كيف كان مصير الامراء الذين قاموا من تينك العائلتين السربيتين وما حاق بهم من ضروب الذل والامتهان وسنرى ايضاً ان تلك النتائج الوخيمة العاقبة لا تزال عاملة على هدم ما بقي من مجدهم ناطقة بافصح لسان ان الخير خير ونتائجه خير والشر شر ونتائجه شر سواء بين العظماء والفقراء او في القصور والاكواخ

الفصل الثامن والعشرون

﴿ الملك اسكندر ﴾

بينما كان الملك ميلان يلهو في ملاهيه والملكة نتالي تشتغل بالدفاع عن نفسها والمقربون منهما يتفننون في طرق الدسائس والوشايات والقصر الملوكي غارقاً في بؤرة الشر والفساد كان بين سكان القصر فتى ضائع في مهاوي الاهمال يتلقن من فنون الخبائث والمفاسد ما امتاز به قصر ابيه والذين قاموا قبل ابيه . - ولد الملك ميلان وارث العرش هذا في مهد الخلاعة والفساد وعمده بماء الخمور ومشاه على مشاية الطيش وعلمه السمع من اصوات المغنين والمغنيات والنطق من افواه الشاتمين والشاتمات ومرن بقية حواسه على أقبح ما يشب عليه أهل الغرور فلم يبلغ سن الرشد حتى كان مثلا في فساد الاخلاق لا فضيلة في دنياه يعلم مزاياها ولا رذيلة يدرك رزاياها . وفوق هذا فقد كان وارثاً بالطبع ارثه عن ابيه وجده فكانت صفاته فاسدة وراثة وتربية . أخذ بعض العلم ولكن أخذاً سطحياً لم يفده في غير انه وسع عقله الى حد يدبر به طرق الوقيعة بالناس وارضاء امياله الفاسدة

فبين تلك الاشواك المشتبكة نبت نبات الاسكندر وفي ذلك الوسط الرديء ظهر ملك السرب المنتظر . ومهما يكن من وسائل التقويم التي شهدها بعد فانها كانت أضعف من ان تؤثر عليه في اصلاح حاله كالشوك لا ينقلب ورداً او ما هو

أدنى مهما تعهده البستاني بوسائل التقويم من ري وحرث وتطعيم . نعم ان التطعيم قد يغير بعض النبات ولكن تغييره لا يكون الا سطحياً فانه لا يزال حافظاً من الطعم واللون ما ينم على أصله . وهو مبدأ طبيعي يسري على كل الموجودات ويدل على ان الطبع غلاب وان كل وسائط التهذيب قلما تصلح فاسدا من طبعه الا ان يكون على سبيل التلطيف والتخفيف

ولم يفتكر ميلان يوماً في كيف يصلح حال ابنه ويربيه تربية راقية تصلح لادارة المهام المنتظرة وكيف يتأتى له ذلك وفي عقله من المشاغل والارتباكات ما ينسيه نفسه . ولا يزال هذا حاله معه حتى كان يوم خطر له فيه ان يتنازل له عن العرش ويسلم له قياد تلك الامة الكثيرة المشاكل والاضطرابات . وقد ابان ذلك فضل المبدأ الجمهوري القاضي بأن لا ينتخب لقيادة الشعب الا من يجمع الشعب على استعداده لادارة شؤونه ورداءة النظام الملوكي القاضي بحصر الوراثة في افراد معينين . فقد كان في البلاد السربية من احقر الطبقات كثيرون يفضلون هذا الامير أخلاقاً وتربية ولم يكن في العائلة المالكة واحد آخر يحق له هذا الارث أو عنده من الاستعداد الطبيعي ما يؤهله للحكم بين الناس . ومع هذا قضت التقاليد الملوكية بان يعلو عرش السرب ذلك الشاب وان يصاب السربيون بهذا المصاب . ولم تنته سنة ١٨٨٩ حتى حملت رأس الاسكندر ذلك التاج وقد كانت عاجزة عن حمل أخف الاحمال فكرا وادراكا . كانت فارغة باطناً فامتلأت بالتاج ظاهرا فما اكتسبت مزية ولا شعرت بحمل جديد لأنها خلت من كل دواعي الشعور . وعليه فما كانت بالرأس التي عنها شكسبير في قوله ان الرأس التي تحمل تاجاً لا تستريح .

على ان الملك ميلان لم يتنازل عن عرشه لابنه الاسكندر حتى انصرف بكليته الى مقاومة الملكة ناتالي واضعاف احزابها فانصرفت هي الى ذلك أيضاً ورأى السربيون ان وقوفهما موقف الضدين في عاصمة البلاد موجد لارتباكات لا داعي لها فقضت عليهما بالبعد عن البلاد والاقامة في سواها حتى يكبر الملك الجديد ولا يدع محلا لدسائسهما والوشايات . وعليه انصرف كل منهما الى بلد بعيد هذا

Digitized by Google Original from HARVARD UNIVERSITY

الى حيث يجد فرصة لزيادة الانغماس في شهواته ومفاسده وتلك الى حيث تندب سوء حظها وتعيد الى ذاكرتها ذلك الحلم الملوكي اللطيف المخيف .

ولما جلس الاسكندر على العرش لم يكن عمره اكثر من ١٥ سنة فرأت الدولة السربية ان تقيم له مجلساً يتولى عنه ادارة شؤونها فاستصدرت بذلك أمرا من أبيه وشكل المجلس فتحسنت الحال بعض التحسين . ولكن طيشه كان يدعوه احيانا الى الاستبداد ومحاولة حصر السلطة فيه فكان يصدر كثيرا من الاوامر بدون اطلاع المجلس فيقوم شيوخه لتسكين عقله وتأديبه بأشد أنواع التوبيخ وبدأت نتائج التربية الفاسدة والوراثة الساقطة تظهر عليه بعد ان تجاوز السادسة عشرة فخلف اباه في كل نوع من انواع شروره ومفاسده وصير قصر السرب بؤرة مترعة من الاكدار والاقذار . وسمع فضلاء البلاد بذلك فتآمروا عليه لقلب عرشه وابعاد السلطة الملوكية عن كل فرد من افراد تينك العائلتين فوجدوا من المملقين الذين ينتفعون بهذه السلطة الفاسدة معارضات شديدة أقل ما في نتائجها اهراق الدماء واقامة ثورة في البلاد . ولم يحفل الاسكندر بما سمع لان المقربين اليه كانوا يظهرون له ان احزابه قادرة على تذليل كل صعوبة من هذا القبيل فانصرف في ملاذه وهزأ باعدائه واستصدر الاوامر الشديدة لمقاومتهم واضعافهم. وكان ابوه الملك ميلان في مدينة باريس فلما سمع بتلك الاضطرابات وبلوغ ابنه سن الرشاد طمع في اعادة الملك اليه حاسدا ولده على ما نال متظاهرا بالخوف من صيرورة العرش الى غير عائلته فاعيد مطرودا من ابواب بلغراد . وكان وهو في باريس مثلا في سوء السمعة وفساد السلوك فاحتقره أحقر الناس وكرهه كل الذين حوله حتى المنتفعين بامواله وكان اذا تأخرت عليه الاموال استدان الجنيه بجنيهين ليقضي مطالب نفسه الامارة بالسوء ويسدد مطالبه الكثيرة من نسائه الكثيرات . فرغ ماله يوما وتآمر عليه خدمه وحشمه فتركوه لتأخر مرتباتهم ثم خرج الى شوارع باريس وقصد العودة الى حيث كان فلم يجد عربة علم حوذيها بانه الملك ميلان الا طلب منه الاجرة مقدما . واشتهر بالاسراف والافلاس فكان اذا امتلأ جيبه صبر

محله ماهي حافلا بالغانيات والمطربات ولم يسر خطوة الا بحاشية كبيرة ثم اذا فرغ هجره كل هؤلاء وتعذر عليه ايجاد سمير . وما زال كذلك والناس يضحكون منه هنا وهناك حتى عاد فطمع في الملك كما تقدم وأعيد القهقرى فعاد الى عاصمة النمساويين وهناك قضى بقية ايامه فمات غير مأسوف عليه وذلك في سنة ١٩٠١ وعمره ٤٧ عاما

وأما نتالي فانها ظلت في منفاها زمانا ولها من الاعوان في عاصمة السرب كثيرون يقاومون أحزاب الملك ميلان حتى لا يعود فيتنعم بالاريكة الملكية فلم يهدأ حتى علمت ان السربيين ارجعوه القهقرى حين عاد اليهم طامعاً في التسلط عليهم . ولا تزال الى اليوم حية تعيد الى ذاكرتها مامضى من حوادثها الجسام وتشهد ما يجري تحت قوائم العرش السربي ولعلها تحمد الله اذا علمت بما جرى من سفك الدماء والاهوال الشداد لأنها اذا كانت في مركزها لم تكن لتأمن الغدر من الثوار الاحرار

﴿ الفصل التاسع والعشرون ﴾

﴿ الملكة دراجا ﴾

ظل الملك اسكندر تحت وصاية المجلس المشار اليه في ماتقدم حتى سنة ١٩٠١ فنودي به ملكا لأنهم حسبوه بلغ سن الرشاد وصار اهلا للحكم بين الناس . كأنما الرشاد متوقف على العمر وحده دون العقل وهو خطأ ارتكبه السربيون وشعروا به بعد ان دانت اليه الرقاب فتحكم فيها تحكم الظالم الجاهل وكانوا قد زادوا حنقاً عليه لأنهم رأوا منه ميلا الى واحدة كانت من حاشية ابيه وليست بذي اصل طيب ولا خلق حسن ولكنها كانت بارعة في الجمال فملكت قلبه ولم تجعل فيه محلا لسواها . وكان عمره حينئذ ٢٤ سنة وعمر دراجا ٣٣ اي انها كانت اكبر منه بحوالي تسع سنين . وفضلا عن انها اكبر منه سناً وليست من أصل كبير كما تقدم فانها كانت مثلا في رداءة السمعة حتى لقد كان كثيرون من اهل البلاط الملوكي عاملين على طردها من القصر ولولا قليل لطردت . على ان الذين يقدسون الجمال فوق كل

Digitized by Google Original from HARVARD UNIVERSITY

التقديس ولا يعرفون من المزايا النسائية غيره قلما يرون معه مزية فهو اذا ذكر اختفى دونه كل نقص كالشمس اذا ظهر شعاعها اختفى كل شيء آخر تحت جناحيها . ومن كان مثل الملك اسكندر لا يرى شيئاً آخر مع ما رآه من هذا الجمال الفتان ولهذا مال اليها بعد ان سلبت عقله بما وهبته من طرق التملق والرياء . وقد اشار عليه الاصدقاء بوجوب الابتعاد عنها اذا لم يكن لحقارة اصلها ورداءة سمعتها فلكبر سنها قائلين ان من تزوج بمن هي اكبر منه الى ذلك الحد قلما يرزق نسلاً يحيي ذكره من بعده فأبى الحب الا ان يضرب على كل امر حاسباً الدنيا وما فيها اموراً نافلة بالنسبة اليه . والعادة عند المحبين ان يزداد حبهم اذا شعروا بمقاومات شديدة في سبيله . ولهذا فان حب اسكندر ودراجا كان يتزايد يوماً بعد يوم لانه كان محفوفاً بصعوبات وتهديدات قلَّ من يصبر عليها اذا لم يكن هنالك ما يساويها قوة واشتداداً . وكانت دراجا ذكية الفؤاد فدرست طبع الاسكندر درساً مدققاً قدرها على زيادة اجتذابه فلم يكن يهنأ له بال الا اذا كانت عيناه تكتحلان بمرآها في كل حين وحال .

لماذا يكون الجميل ذكياً

ولا عجب ان يكون الجميل ذكياً أو ان يكون الذكي جميلاً فان ذكاء البصيرة ينير البصر فيجعل العينين لامعتين نجلاويتين تسحران بمنظرهما القلب وتخطفان بنورهما اللب واذا كان سراج الوجه اي العينين مضيئاً جميلاً كان الوجه نيراً سمحاً والدم جاذباً والروح خفيفة وفي هذا يقوم معنى الجمال . ولا ريب ان كثيرين من ذوي العقول السامية لم يشتهروا بشيء من الجمال المألوف ولكن وجوههم لم تخلُ من السماحة وعيونهم من السحر وانسانهم من خفة الروح . وما كانت السماجة والبلادة وبرودة الطبع الا دليلاً في كل حال على خمول العقل وانطفاء شعلة نار الذكاء . فشنيع الصورة مصيبة في جسمه وعقله معاً وجميلها رائق الاثنين غالباً وقلما يكذب هذا المبدأ الا في شواذ لا يجوز معها القياس

بحث في صفات الجميل

على ان الصفات الحسناء والطباع الجميلة لا تختص بالوجه الجميل دون سواه بل قد تكون

Digitized by Google Original from HARVARD UNIVERSITY

ذات منبت طيب طاهر وايجاد جيل جديدٍ من الناس على طيب أصله وشرف نسبه يتوقف مستقبلهُ من حسن ورديء

ولكن لا غرابة في ذلك ايضاً فانهما كانا يريان ان في عرش الامارة من ستائر العظمة وحجب السيادة ما يستر عيوبهما عن العيون ويحجب عنهما سهام الانتقاد من عبيدهما الناس ولم يكن احدهما يفضل الآخر في التربية الساقطة والوراثة الفاسدة والجهل بقبح الرذيلة وشرف الفضيلة . ثم ان الحب الشديد اسدل على عيونهما غشاوة تعميهما عن رؤية اي شيء آخر يختلف عما يريان وملأ عقليهما بما لا يدع فيهما محلاً يدرك غير ما يدركان

الفصل الثلاثون

زواج اسكندر ودراجا

دراجا او الموت

وعليهِ ذهبت كل الوسائط التي بذلت للتفريق بينهما سدى في سدى ولو انهما خيرا بين ان يتركا عرش الملك او يتركا ذلك الحب والاقتران لاختارا اول الامرين عن طيب خاطر وحسب كل نفسه الفائز الظافر . واشتد بهما الحب الى درجة الجنون فلم يريا ذلك العرش فقط على علوه الباذخ دون حبهما بل رأيا حياتهما نفسها دونهُ فأقسما به ان لا ينفكا عنه ولو ساقهما الى مواطن الموت . ولم يجد الاسكندر بدعاً في ذلك فقد كان هذا شأن ابيه من قبله . كذلك لم تجد دراجا بدعاً فيه فما كانت ذات شرف تغار عليه . فكانا يسمعان المنتقدين ضاحكين لانهما يعلمان انهم يحاولون المحال وكانا يقرآن الجرائد المنتقدة بما لا مزيد عليه من عدم الاكتراث والمبالاة بل انهما كانا يودان لو اكثرت من ذكرهما وطيرت اخبار حبهما في الخافقين وما وراءهما لانهما لا يريان فيه ما ترى من عار وشنار . كتبت التيمس فصلاً في هذا الشأن ضمنته الانتقاد الشديد عليهما حتى كادت تخرجهما عن دائرة البشرية واطلع احد كبار السرب على هذا الفصل فقرأه امام الاسكندر فقال له اذا كان لك صلة بمكاتب هذه

Digitized by Google　　Original from HARVARD UNIVERSITY

الجريدة فقل له انه اذا كانت هذه الاقوال قد وجدت محلاً في قلوب القراء كلهم من كل جنس وملة تحت الشمس فانها لم تجد محلاً في قلبين عليهما كل المعوّل وهما قلب الاسكندر وقلب دراجا. وان الاسكندر سيبقى الاسكندر ودراجا ستبقى دراجا . وكفى

الى هذا الحد بلغ الحب بين الملك وهذه المرأة فلم يكن في الارض قوة تحول بينهما ولا سيما لان دراجا كانت قد درست هذا الخليل درساً مدققاً ودعاها ذكاؤها الى ادراك ما يجتذبه ويجعلهُ في قبضة يديها . وقد كانت فوق ذلك بارعة في فنون الادارة فملكت قلوب الكثيرين من المقربين بما وعدتهم به من النعم المستقبلة وهددت الكثيرين بما يسقطهم من عالي مجدهم اذا ظلوا على الانتقاد



الملك اسكندر

ومهما يكن من الامر فقد تم زفافها اليه بالرغم عن حكومتهِ وعن انتقادات العالم المتمدن ومجالسه كلها وكان ذلك في ١٥ اغسطس سنة ١٩٠٠ . ومثل الاكليروس وبعض ارباب الجرائد معه ما مثلوه مع ابيه يوم عزم على طلاق نتالي والتزوج

Digitized by Google Original from HARVARD UNIVERSITY

بأرطميس وقد اشرنا الى ذلك في ما مر فنال امنيته وفي قبضة يده كثيرون من ارباب الرياء والتمليق وامامه من صحف السياسة والمدنية وبقية مصالح العالم مجلد ضخم لا يقرأ من سطوره غير هذه العبارة وهي « دراجا او الموت »

الفصل الحادي والثلاثون

فظائع اسكندر ودراجا

الضعيف اذا قوي والعبد اذا تحكم

لما استتب الامر للملكة دراجا واصبحت بعد ان كانت عبارة عن خادمة راقية ملكة على شعب كبير طمعت في ثلاثة امور أولها اقناع الناس بانها اصبحت ذات مقام خطير وثانيها الانتقام ممن كانوا يسعون في فصلها عن الاسكندر وثالثها حصر الوراثة الملكية في عائلتها اي في اخوتها لانها كانت تعلم انها لا تلد وارثاً يخلف الاسكندر . وقد كانت مساقة بحكم الطبع الى الامرين الاول والثاني وهما اقناع الناس بانها لم تبق هي تلك الخادمة التي كانت في حاشية ناتالي والمنبوذة ممن يحترمون الفضيلة والانتقام ممن لا يحترمها وذلك لان دنيء الاصل اذا ارتقى شعر بان الناس لا يزالون على عهدهم في احتقارهِ ولم يصدق انهم اصبحوا ينظرون اليه نظرة أخرى فيسعى جهده الى تغيير اعتقادهم فيه لا باصلاح نفسهِ وهو هادئ ساكن لانه لا يقدر على ذلك بل بالقوة الجديدة التي نالها فلا يقتنع حتى يراهم خاضعين له ولو خضوعاً ظاهراً دون اعتقاد باطني • ومثله يكون كثير العطف الى من يخضع له او يظهر له الاحترام شديد الميل الى البطش بمن يقف في وجههِ لانه راغب مع الفئتين في الظهور بغير المظهر الاول فيسر بمن ينضم الى حزبهِ او يعترف له بالارتقاء ويظهر له نعمه الجديدة شأن المحدث في كل حال ويطمع في اظهار قوته مع من لا يعترفون بها فينتقم منهم كل انتقام كالضعيف اذا جاءته قوة مستعارة او العبد اذا تحكَّم . لهذا رأى كثيرون من المملقين في السرب خيراً كبيراً من دراجا بعد ان دانت لها الرقاب واستهدف غيرهم لتدابيرها القاسية انتقاماً منهم

Digitized by Google　　Original from HARVARD UNIVERSITY

لاحتقارها وسعيهم الى حرمانها لذة السلطان . والمرأة قاسية القلب اذا ملكت وكانت من الساقطات لأنها ضعيفة ذات قوة مستعارة وعليه انزلت كثيرين من كبرآء السرب عن كراسيهم ودقت اعناقهم بقدميها واسقطت مشروعات وطنية كثيرة لا لشيء الا لان اعداءها هم الذين كانوا قد شرعوها • واقامت ثورة في وظائف الحكومة ومصالحها محاولة تغيير الكثيرين من موظفيها بسواهم ممن ينحازون الى حزبها ولولا اعتراض المجلس الذي شكله الملك ميلان لفازت برغائبها من هذا القبيل • ولم يكن الملك الاسكندر الا ألعوبة في يدها ففقد كل اسم الا هذا الاسم وهو انهُ زوج الملكة دراجا • ولما كانت هذه التدابير لا تنبت الا في ظلال الدسائس والوشايات صار البلاط الملوكي وما جاوره من قصور المقربين محطاً لاخبث انواع الدسائس والوشايات واختل نظام الاحكام ايّ اختلال فتقوضت دعائم الامن وفقدت الطمأنينة من القلوب وكثر الخطف والسلب وتأخرت المصالح ايّ تأخير . وطالما حاولت ارتكاب جريمة القتل تخلصاً من بعض الذين كانوا يضايقونها باحتقارهم فتمكنت من قتل اثنين لم تثبت عليها جريمة قتلها وأما الباقون فتخلصوا منها بعناية خصوصية . وكان الاسكندر لا يعبأ بالنظر في امور المملكة ومشروعاتها ولا هو يدرك شيئاً منها اذا اراد ولكنها ألحت عليه بالتداخل في كل امر لتكون سلطته ظاهرة والحقيقة لتتمكن من اظهار سلطتها ومقاومة الاحزاب القائمة ضدها • فكان كلما اتاه امر اداري لينظر فيه عرضه عليها وقلما كان يعود الى الحكومة كما حضر بل كانت تغير فيه لا لانه يستحق التغيير ولكن حتى يقال ان لها قدرة على تغيير ما يثبتون • وساعدتها الاقدار فنالت اكثر ما طلبت ولما رأت ذلك طمحت الى اعظم مطمح في البلاد وهو حصر الوراثة الملكية في اخوتها • وسمع السربيون بعزمها على ذلك فزادوا حنقا عليها وساعدهم في الحنق اعوان العائلة الاخرى المناظرة لعائلة الاسكندر وهي عائلة كاراجورجفتش واعلن كثيرون من الاحزاب المقاومة لها والملك اسكندر انهم يطلبون الاضرار بالعرش السربي لانه اصاب البلاد بمصائب جمة وتجرأ على الرغبة في حصر الوراثة الملكية في عائلة غريبة جديدة يمتد نسبها الى الخادمين والخادمات • ولما سمعت الملكة دراجا بهذا العزم وعلمت ان

Digitized by Google　　Original from HARVARD UNIVERSITY

في امكان السربيين اتيان ما يرغبون فيه من هذا القبيل ما دام لهم ذلك الدستور الذي وضعه الملك ميلان سعت الى الغائه ريثما تتمكن من تغيير اصحاب المناصب العالية بمن هم في حزبها واقنعت الملك بوجوب ذلك فلم يأت يوم ٨ ابريل سنة ١٩٠٢ حتى ألغي ذلك الدستور وحل مجلس النواب

الفصل الثاني والثلاثون

يحسب الناس ان ما ساء يُنسى　　ومليك الملوك ليس بناسيْ

الثورة السربية

التألب على الملك — قتل الملوك الظالمين — اقرار المخيف

كان اقدام الملك اسكندر على الغاء الدستور وحل مجلس النواب السربي اقداماً خطراً جداً لان هذا الدستور أهم ما نال الشعب السربي من نعم المدنية في هذا العصر وقد طالما قام حيالاً بينه وبين مظالم الهيئة الحاكمة . ولهذا اصبح الشعب كله الا نفراً قليلاً من الوزراء والمشيرين ضد هذا الملك والملكة على الخصوص لاعتقاده انها هي التي اوصت بالغائه لاعادة المظالم السابقة والتمكن من الاستبداد بالناس . فتألف وفد من كبراء الاحرار وذهب الى الملك طالباً تغيير الحالة الحاضرة التي جرى عليها هو والملكة دراجا والا اصبح مركزه ومركزها خطراً وانقلب العرش رأساً على عقب . ولما كان الجاهل جريئاً في كل حال لانهُ لا يحسن التبصر في العواقب ويعتد بقوتهِ اظهر الملك ازدراء بهذا الطلب وما عقبه من وعيد وتهديد وقال لرجال الوفد شامخاً ليس لامثالكم تجوز الجراءة الى ذلك الحد فان الملك هو الذي اتى ما اتى وليس لغير الملك ان يغير ما فعل بارادته المحضة . وكان بينهم رجل كثير الاقدام فقال له اعلم ايها الملك انك في حضرة الشعب كلهِ الآن لا في حضرتنا فقط وانت تعلم ان ليس في الارض قوة تقاوم قوة الشعب اذا اراد . فاجاب الملك ان شعباً كهذا كثير التمرد يجب ان لا يستحق شيئاً من الاهتمام . فوقف ذلك الرجل على قدميه وقال سيعلم وارثوك ايها الملك انك كنت مخطئاً في هذا الظن وان الشعب اكبر من ان تقف في وجهه هيئة

Digitized by Google　　Original from HARVARD UNIVERSITY

حاكمة . فاستشاط الملك غضباً وصفع الرجل صفعة القته على الارض فأخرج الرجل مسدسه من جيبه ليضرب به الملك فقبض عليه الحرس وزجوه في السجن . وقد استاء رجال الوفد من ذلك وطلبوا الى الملك بالحاح ان يخرج هذا السجين والا لم يكن العرش كافياً للتعويض عنه فاخرجه بالرغم عنه وصار بعد ذلك من زعماء الذين عملوا على الانتقام منه وتطهير البلاد من شروره ومفاسده

وكان بين الاحزاب الكارهة للملكة رجال بعضهم ممن تعلقوا بها سابقاً ثم هجرتهم وبعضهم ممن كانوا يطمحون الى الاقتران بها قبل ان رغب الملك فيها . فهؤلاء لم يكن ميلهم الى معاداة العائلة المالكة ناشئاً عن رغبة في اصلاح البلاد بل عن رغبة في الانتقام . وكان بينها احزاب ممن سخط عليهم الملك وابعدهم عن مراكزهم واحزاب أخرى ممن كانوا يرون الفساد المنتشر في البلاد فيغارون على الاصلاح غيرة حقيقية واحزاب من اعوان عائلة جورجفتش الطامعة في اعادة الملك اليها . فهؤلاء كلهم اجمعوا على وجوب الانتقام من الملك والملكة ولكنهم اختلفوا في كيفية الانتقام . قال بعضهم ان التفريق بينه وبين الملكة كاف وحده للانتقام . وقال آخرون بل ان هذا التفريق محال ولئن تمَّ لم تصلح الحالة التي يراد اصلاحها فأوفق من ذلك ان يبعد الاثنان عن عرش البلاد ويستدعى وارث العائلة الاولى التي على يديها تم تحريرنا . واصحاب هذا الرأي كانوا غالباً من المتحزبين لعائلة كاراجورجفتش وممن شاع ان وارثاً لها اسمه الامير بطرس يهبها كثيراً من امواله ويحرضها على مساعدته في اعادة العرش الى عائلته . واشار قوم ممن لا يهمهم غير اصلاح البلاد وقد سئموا فظائع العائلتين بوجوب انشاء جمهورية والقضاء على هذه الملكية . واشار آخرون وهم الدمويون بقتل الملك والملكة وكل الذين يلتفون حولها بدعوى انهما اذا عزلا لا تأمن البلاد دسائسهما وكان بعض القائلين بهذا القول ممن كان يهمهم اعدام الملكة على الخصوص انتقاماً منها على الاعراض عنهم

وعليه كان كلهم مجمعا على وجوب التخلص من الملك والملكة ولم يكن الاختلاف في سوى الطريقة المثلى لذلك . وكان معظم الاختلاف في هذه المسألة وهي هل تجيز

Digitized by Google　　Original from HARVARD UNIVERSITY

الشرائع المتمدنة قتلهما فيقتلان او انها لا تجيزه فيطردان . وهل اذا طردا أمنت البلاد شرهما او فقدت بسببهما الهدؤ والاطمئنان .

فقال قوم ان اهراق دمائهما عمل وحشي فظيع يثلم صيت السرب والسربيين وما دام ان التخلص منهما ممكن بغير الاقدام على هذه الفظيعة فان تلطيخ عرش السرب بدمائهما لا يعد من الحكمة والصواب . ولا ريب ان البلاد قادرة على التخلص من شرهما ايضاً وهما بعيدان فقد تخلصت من شر الملك ميلان والملكة ناتالي بعد أن أبعدا . وسبقت البلاد السربية فطردت ميلوش ابرونيفتش نفسه مؤسس عائلته سنة ١٨٣٣ وطردت بعده الامير ميخائيل سنة ١٨٤٢ واسكندر كاراجورجفتش سنة ١٨٥٩ ومع هذا ظلت البلاد في خير ولم تؤذها دسائسهم . فاقدامنا الآن على قتلهما مما يجدد الثار بين العائلتين المتناظرتين وما دام ان الجيش يكون في قبضة ايدينا والملك الجديد مقاوماً لها فلا يخشى منهما على اي وجه من الوجوه . ولا جدال في ان القادرين على قتلهما قادرون ايضاً على طردهما فلا عذر لهم اذا ابدلوا الطرد بالقتل ودنسوا الانسانية بهذا العار . قولوا ولا ننكر انهما اتيا من الفظائع شيئاً كثيراً وانهما اضرا بصالح السربيين ضرراً بليغاً ولكن ذلك كله لا يستوجب الاعدام لانهمـا لم تثبت عليهما جريمة اعدام احد ولئن طردا ذهبت عنهما كل قوة لان كل الذين حولهما الآن انما هم من المملقين الذين يتبعون صالحهم اينما كان

واما الذين ذهبوا الى وجوب قتلهما فكانت حججهم راجعة الى ان ما اتياه من ضروب الفساد يستحقان عليه الاعدام فضلاً عن ان بقاءهما حيين مما يجعل لهما املاً في الرجوع الى الملك والتمتع بلذاته ولا سيما لانهما غنيان فهما قادران على استمالة الاحزاب بأموالها . قالوا ولا تنحصر فوائد قتلهما في اجراء العدل واستراحة الشعب منهما بل تتجاوز ذلك الى ردع ذوي البغي من ملوكنا المتطرين لان الملك اذا علم بان كل القصاص منحصر في الطرد والحرمان من الملك طاوع النفس في ما تطمح اليه من المظالم واستعبد الشعب على ما يريد وسلب من اموالهم ما شاء ولا بأس عليه بعد ذلك اذا اعتزل العرش وعاش بقية العمر ممتعا بما سلب من اموال العباد. وضربوا

Digitized by Google　　Original from HARVARD UNIVERSITY

الامثال بالثورة الفرنساوية وهي التي جاء ذكرها في بدء هذه الرواية وكيف ان الفرنساويين تجرأوا على قتل ملكهم فاصطلحت بعد ذلك الاحوال ولو أنهم أبقوا عليه لماتمّ شيء من ذلك الاصلاح . ولم يروا في هذا العمل شيئاً من الفظاعة والتوحش لانهم كانوا يرون انه خير ان يقتل فرد واثنان واكثر عن الشعب كله ما دام انه لا توجد طريقة اخرى تعادل طريقة الاعدام

ومهما يكن من امر هذه الحجج فان الذين قالوا بها كانوا اصحاب النفوذ فقر الرأي في جلسة سرية على ان يقتل الملك والملكة اذا لم يرضيا بالتنازل وذلك بعد ان يستمال الجيش ليكون عوناً معهم على اتمام هذا الامر الخطير

الفصل الثالث والثلاثون

قتل الملك اسكندر والملكة دراجا

نبوءة عجيبة — حكم غريب

كفر المتمدنين بعبادة الملوك — توحش المتمدنين — صوت الشعب الرهيب

ويل لملك مقته الرعية - لويس السادس عشر

السيف أنجع دواء لاعناق الملوك　بطل الباستيل في الثورة الفرنساوية

السيف اصدق انباء من الكتب - المتنبي

ليس في السياسة غير السيف والنار - بسمرك

اوضح الادلة على ارتقاء الحرية الشخصية في الهيئة الاجتماعية كفر اهل التمدن بار باب التيجان بعد ان عبدوهم من اقدم الازمان - سبنسر

ما احسن كفر المتمدنين اذا لم يتعدّ الملوك - سبرجن

تحت ثلاثة تضطرب الارض...... عبد اذا ملك وأمة اذا ورثت سيدتها - أجور (امثال سليمان الحكيم) - تذكران دراجا ورثت سيدتها تالي

Digitized by Google　Original from HARVARD UNIVERSITY

بغتة يموتون وفي نصف الليل • يحطمهم بدون فحص ويقيم آخرين مكانهم حتى لا يملك الفاجر ولا يكون شركاً للشعب - اليهو (سفرايوب)

رب ملك معجل في اوله أما آخرته فلا تبارك • ويل لك ايتها الارض اذا كان ملكك ولداً . وطوبى لك اذا كان ملكك ابن شرفاء . الرحمة والحق يحفظان الملك والملك بالعدل يثبت الارض - سليمان الحكيم

فتن عليه عبيده (الملك يواش ملك بني اسرائيل) من اجل دماء بني يهو ياداع وقتلوه على سريره فمات ولم يدفنوه في قبر الملوك - التوراه

قل للملك والملكة اتضعا واجلسا لانه قد هبط عن رأسيكما تاج مجدكما - ارميا النبي

في لندن عاصمة البلاد الانكليزية عرافة كانت ساهرة ليلة من الليالي الواقعة قبل مؤامرة الشعب ضد الملك والملكة امام كثيرين من ارباب العقول والاقلام فسئلت عن بعض ما في الغيب فاخذت خاتماً من احد الحضور ونظرت اليه مضطربة وصرخت قائلة ماذا ارى ؟ ثم كأنها وقعت في ذهول وتقمصت روحها الى عالم الارواح فقالت ويلاه اني ارى في بلاد السرب فظائع دموية والدماء تجري في اكبر قصورها والاعناق تدق والصدور تشق والبلاء يسود في كل مكان . ان هذا القصر قصر الملك نفسه لا قصر سواه . انظر انظر كيف يتجرأ السربيون على قتل الملك اسكندر وامرأته الملكة دراجا . نعم ها هم يسددون على صدورهما الرصاص ويمزقون احشاءهما شر تمزيق • ويلاه قد مات الملك والملكة . غرق الاثنان في بحر من الدماء وغرق غيرهما من الحراس والوزراء والامراء . ما اقسى قلوبكم ايها القاتلون . اشفقوا على الانسان الضعيف — لا شفقة ولا رحمة فقد تحول القصر الى شعلة من نار ولا ارى امامي غير ثورات هائلة ودماء جارية ومذابح دامية تقع في كل مكان •

وقد شهد المستر ستد صاحب مجلة المجلات الانكليزية بوقوع هذه النبوءة واشار الى انها نشرت قبل اتمامها بزمن كاف ولكن رأى غيره بعد ذلك عن الامكان قائلاً اننا اذا فرضنا حدوثه فقد كان عند هذه العرافة علم من بعض الحاضرين بما اقره

Digitized by Google　Original from HARVARD UNIVERSITY

المتآمرون وبما سيكون . ولكن اذا كانت هذه النبوءة قد وجدت من يناقضها فهنالك شيء آخر يشبهها ولم يروِ احد ما يكذبه وهو حلم حلمته الملكة دراجا قبل حدوث حادثتهما بليلة واحدة ومؤداه انها رأت ناراً تضطرم في القصر الملوكي ودماء تجري في كل جوانبه ورأت نفسها والملك وغيرهما من المقربين يهربون من الموت ولا يستطيعون. وعلى أثر هذا الحلم اوصت بمضاعفة الحراس وتوقعت شراً كبيراً

ومهما يكن من تأويل هذه النبوءة وذلك الحلم فقد تما حرفاً بحرف ولم تأت عشية ١١ يونيو سنة ١٩٠٣ حتى كان أولئك المتآمرون الذين مرَّ خبرهم في الفصل الماضي قد دبروا انجاز ما أقروه واستمالوا الهيئة العسكرية اليهم فذهب وفد منهم الى سراي الملك والملكة وبينهم بعض قواد الجند والذين كانوا يطمعون في الاقتران بالملكة والذين خلوا من وظائفهم ونفر من الجند وصعدوا الى حيث يقطن هذان المسكينان ومن وراءهم تحت السراي فرق كثيفة من الجيش فقتلوا الحارس في اول الامر ثم نسفوا الباب الذي يوصل الى حجرة الملك والملكة . فصرخ الملك قائلاً ما هذه الجراءة ثم قام من فوق سريره لانه كان نائماً وقبض على مسدسه وضرب واحداً منهم كان يحاول الاقتراب من الملكة فقتلهُ . فصبر اخوان القتيل وقالوا لقد اتينا ايها الملك وفي النية ان نعفو عنك وعن امرأتك اذا أمضيت على قرار تجده في هذه الورقة فلا يضطرب قلبك ولا تمس احداً بسوء فانك وحراسك لا تستطيعون النجاة ما دام الجيش كله متألباً تحت قصرك . فخاف الملك ذلك التهديد وتناول الورقة وقرأها واذا بها قرار بعزله أو الابتعاد عن دراجا وفيه تعريض بالملكة فاستشاط غضباً وصرخ قائلاً ذلك لا يكون اقتلونا فانا صابرون . ورأى الوفد ان استمالة الملك الى ارادة الشعب امر بعيد فتقدم واحد من رجاله وقصد الملكة ليقتلها فوق سريرها فصرخ الملك قائلاً اهربي يا دراجا انهم يريدون بكِ شراً ثم طلب اليهم ملتمساً ان يقتلوه هو ويعفوا عنها لانهُ لا ذنب لها في ما صار . ثم قام بلباس النوم وتبع دراجا محاولاً الهروب فلحقوه واياها فوق سطح القصر بعد ان قام بعض الامراء اقرباؤهما قاصدين الدفاع فقتل منهم كثيرون . وكان القمر يرسل اشعته الجميلة على سطح القصر فقال واحد من

Digitized by Google Original from HARVARD UNIVERSITY

الثائرين ما أحلى ان يختلط الذهب بالفضة يعني بذلك ان يختلط الدم الاحمر بنور القمر الفضي الجميل . وكان كلٌّ من الثائرين يظن ان قتل الملك والملكة افضل خدمة وطنية تؤدى الى البلاد فتنازعوا في ما بينهم على من يبدأ بقتلها ويحظى بهذا الشرف العظيم . فتقدم الذي كان راغباً في الاقتران بالملكه واتجه نحو هذه المسكينة وصوب مسدسه وأطلق على رأسها ست طلقات متواليات حتى لا يشترك غيره في قتلها وينال هـذا الشرف العظيم . ورأى ذلك الاسكندر فحاول الدفاع عنها مستبسلاً وعرض صدره للرصاص صارخاً انه يتمنى مغادرة هذه الدنيا قبلها فاشتركوا كلهم في اطلاق الرصاص على جسمه المضطرب وبالغوا في ذلك جداً حتى يتفاخر كلٌّ منهم بانه اطلق عليهما من النار اكثر مما أطلق الغير فأحصوا الرصاص الذي دخل جسميهما فكان ثلاثين رصاصة دخلت جسم الملكة دراجا واربعين جسم الملك اسكندر . وقد تدفقت الدماء من جنبي القتيلين ورأسيهما تدفقاً هائلاً حتى غطى سطح السطح ولم تكن الا بضع دقائق حتى زف الاثنان ميتين كما زفا حيين . وترى تمثيل ذلك العمل الفظيع في الرسم المدرج في صدر هذه الرواية وفيه تجد الاثنين متقاربين بعضهما من بعض كانهما يحاولان الدخول سوية الى عالم الارواح . ووقف القاتلون بعد ذلك يشرفون على هذا المنظر الفظيع وينشدون الاناشيد الوطنية الحماسية ويمتعون انظارهم في الاشعة القمرية وكيف تقع على الدماء الحمراء المتدفقة فتكسبها لوناً جيلاً كما كانوا يقولون . وتقدم اثنان منهم فتناولا شيئاً من دماء الملك والملكة وشرباه قائلين فلنشرب نخب هذين الشقيين سروراً بخلاص الشعب منهما ورفاه البلاد . واخذوهما بعـد ذلك فألقوهما من السطح الى الارض كما تلقى الكلاب واتوا غير ذلك من ضروب التوحش والقساوة ما لا يصدر عن غير تلك القلوب قلوب السربيين ومعظم سكان البلقان فانهم اكثر خلق الله تلذذاً بشرب دماء الانسان . وقد قتلوا في تلك الليلة المشؤومة ايضاً كثيرين من الوزراء والمقربين

الفصل الرابع والثلاثون

عرش ملطخ بالدماء — السياسة الدولية



الملك بطرس صاحب السرب الجديد

قام السربيون صباح هذه الواقعة الهائلة فسمعوا ما طنت بهِ اذانهم من تلك الاخبار فكانوا كاكثر الناس في تلقيها حيث سر بعضهم سروراً بالغاً لانها كانت دليلاً عندهم على الحياة القومية وداعية الى تخلص شعب برمته من فردين فذّين وأسف البعض لسماعها اسفاً كبيراً لاعتقادهم انها فظيعة خرجت عن طور البشرية وكان في الامكان الابتعاد عنها وطرق باب آخر من ابواب العقاب. على ان معظم السربيين كانوا من الفريق الاول فاقاموا الزينات الشائقة واولموا الولائم وشربوا وطربوا سروراً بزفاف ذينك الشخصين الى عالم الارواح. وسمعت الممالك الاخرى بذلك فانقسمت الى قسمين قسم اظهر رضاه التام عما صار كروسيا والنمسا وفرنسا وقسمٌ ابدى استنكاره

له كبريطانيا العظمى وايطاليا والولايات المتحدة . وظهر ذلك بنوع أخص بعد ان استدعي الامير بطرس كاراجورجفتش وارث العائلة المعروفة بهذا اللقب والمتهم بتحريض الشعب على قتل الملك اسكندر . فانه لما حضر وجلس على ذلك العرش الملطخ بالدماء هنأته تلك الدول الراضية لا سروراً بخلاص الشعب السربي كما ادعت فان الانسانية والسياسة نقيضان لا يجتمعان ولكن لان لها مصلحة خصوصية في ذلك الانقلاب ولاسيما روسيا فان في بلاطها الملوكي ابناً لهذا الملك الجديد يتلقن العلم ليشب متشرباً بالسياسة الروسية ويساعد الروس على تحقيق امانيهم من السرب . واما الدول الاخرى الناقمة فلم تنقم كراهة في هذا العمل كما ادعت بل لانه لا صالح لها في ذلك الانقلاب ولهذا امرت مندوبيها بالامتناع عن ذلك الاحتفال

وقد كان الذين قتلوا الملك والملكة يظنون انهم سيلاقون من الملك الجديد كل ترحاب ومساعدة على الارتقاء وكان انتظارهم في محله لانه رغب في مكافئتهم على اتمام هذه المأمورية لولا ان الدول الاخرى طلبت اليه بالحاح ان يقاصصهم ولكن كيف يستطيع مقاصصتهم وفي ايديهم الانتقام منه كما انتقموا من سابقه ولا سيما وان الجيش كله بات تحت امرتهم . على انه اعتدل في الامر فقاصص الذين استضعفهم وعفا عن الاقوياء ولم يجر في هذا الا على سنّة الناس القاضية بان لا يجري العدل الا مع الضعفاء . على انه لايزال الى ساعة تحرير هذه السطور معرضاً لذلك الخطر ولا عجب في هذا فان دماء القتلى الذين اقيمت على اشلائهم قوائم عرشه لا تزال صارخة تطلب الانتقام .



جورجانيدي اخ الملك اسكندر المقتول من ابيه وام أخرى وهو اليوم في الاستانة ويطمع في الملك !!!

Digitized by Google Original from HARVARD UNIVERSITY

النتيجة

وبعد فقد رايت ايها القارىء في هذه الرواية الحقيقية من غريب الحوادث ومدهشاتها ما يفرغ الروائيون الخياليون جهدهم في استنباط مثله استلفاتاً لانظار قرائهم واستجلاباً لاعجابهم . ولا ريب ان في بعض حوادث الدهر من الحقائق المدهشة ما قد يغني الروائي عن استنباط الاوهام . ففي هذه الحوادث التي بين يديك كل ما يدعو الى الدهشة والاستغراب من فعال الحب وأسرار القصور والمخاطرة بالنفس في سبيل الرفعة والعلاء وما شا كل ذلك من دواعي زحام الحياة . تفتح للقارئين قلوب الناس كتاباً مقروآً مظهرة بعض ما تحوي من مفاسد ومحاسن وما يمكن ان يصل اليه ابناء آدم وبنات حواء من المروءة العالية والدناءة المتناهية وما يصدر عن صفات الانسان في كل حالة من حالاته فقراً وغنىً وحقارةً وامارةً وخيانةً وامانةً ولؤماً وكرماً ونحو ذلك مما له اكبر علاقة بمسائل الاجتماع

وقد كان اكبر ما اهتممنا له في انشاء فصولها تطبيق حوادثها على الحالات الاجتماعية المألوفة واظهار ما ينطوي تحتها من عظات بالغة وما تتعلق به من الصفات الانسانية وما ترجع اليه من الاسباب الطبيعية الأولية وشرح ما ذكر فيها عرضاً من مباحث عقلية ونفسية وذلك لتكون جامعة بين اللذة والفائدة فتصيب الغرض الأولي من انشاء الروايات وهو دعوة الناس الى الاعتبار بحوادث الناس وتقديم هذه الدعوة في شكل غريب لا تمله الاسماع

وآخر ما نرى ذكره فيها ضرورياً للاعتبار سرد ما انتهت اليه حالة تينك العائلتين اللتين تناوبتا عرش السرب حوالي ٩٠ عاماً . واليك هو :

كاراجورجفتش رأس عائلته ولي ١٨١٧ وقتل في السنة نفسها بعد اضطراره للهروب

اسكندر كاراجورجفتش ولي سنة ١٨٤٢ وطرد مهاناً سنة ١٨٥٩

بطرس كاراجورجفتش الحالي ولي سنة ١٩٠٢ على عرش ملطخ بالدماء

ميلوش ابرونيفتش رأس عائلته ولي سنة ١٨١٧ وطرد سنة ١٨٣٣ وفر هارباً

ميلان ابنه ولي سنة ١٨٣٣ وكان ضعيفاً فطرد ومات حالاً

Digitized by Google Original from HARVARD UNIVERSITY

مخائيل اخ ميلان ولي سنة ١٨٣٣ الى سنة ١٨٤٢ ثم طرد مهاناً
ميلوش ابرونيفتش ولي ثانية ولم يلبث حتى مات سنة ١٨٦٠
مخائيل ابنه ولي مرة ثانية سنة ١٨٦٠ وقتل سنة ١٨٦٨
ميلان بن افريم اخ ميلوش ولي ١٨٧٢ وطرد ١٨٨٩ ومات ١٩٠١ وسط الفضائح
اسكندر بن ميلان ولي سنة ١٨٨٩ وقتل سنة ١٩٠٢

ذكرنا ذلك هنا ليزيد الناس ايقاناً بعدل الطبيعة وبأن تلك اليد السامية التي تشرف على الهيئة البشرية انما تحمل ميزانياً متناهياً في الدقة والعدل بحيث تعطي كلاً مايستحقه ان خيرًا وان شرًا لا فرق عندها في ذلك بين غني وفقير وامير وحقير وكبير وصغير لان العدل في عرفها عدل ولا شيء غير ذلك مهما اختلفت ظروف الامكنة والازمنة وظواهر الاشخاص. وقد علم القراء ان هاتين العائلتين خرجتا من رأسين أولهما من رعاة الخنازير ولم يشتهر باخلاق طيبة راضية وثانيهما من زعماء اللصوص وكفى بذلك وصفاً فدامتا متنازعتين الى هذا اليوم ولا عجب ان يتنازع اللصوص مع الرعاة. وعلموا ان اعقابهما فضلاً عما ورثوه من تلك الاخلاق فأنهم ظنوا الامارة والعظمة ستارين سميكين يحجبان ماوراءهما من مفاسد وخبائث ودرعين منيعين يردان عنهما كل شيء حتى سهام العدل القاضية بأن يقابل المثل بالمثل ويغيران السنة الطبيعية القاضية بصحة المنبت والاصل فكانت نتيجة ذلك ما رأيت من قتل ثلاثة منهم وطرد اربعة بعد ان ملأوا الارض بذكر فضائحهم وعاشوا عيشة القلق والخوف والبعد عن كل لذة حقيقية واطمئنان وكلهم لا يزيد عن ثمانية فلم يبق غير واحد وهو الحالي نظنه سيعيش معتبرًا بالحوادث الماضية بعد ان بعد جيله عن ذلك الاصل وأضعف تقادم الزمن تأثير وراثته ولا سيما لانه نال حظاً من التربية الراقية على ما يقال ونتمنى ان يسعد ويسعد بسعده شعب السرب المجيد على كل حال

كان الفراغ من طبع هذه الرواية في شهر مايو سنة ١٩٠٥

Digitized by Google Original from HARVARD UNIVERSITY

فهرس رواية اسكندر ودراجا

Digitized by Google
Original from HARVARD UNIVERSITY

Digitized by Google
Original from HARVARD UNIVERSITY